آفاق جديدة

فى الأدب والتاريخ والتراجم

أنور الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

منذ تمت دراسة « معالم الأدب العربي » عام ١٩٦٢ فى أجزائها العشرة : (النثر — الشعر — القصة — أدب المرأة — الترجمة — الصحافة — اللغة — المعارك الأدبية — الفكر — أدب المقاومة والتجمع) والبحث مازال متصلا لإضافة ملاحق جديدة للموسوعة فى جوانبها المتعددة وخاصة فى مجال التراجم التى شكلت بدورها دراسة جامعة متكاملة ، [أعلام وأصحاب أقلام — تراجم المعاصرين — مفكرون وأدباء —] مع دراسات عن أحمد زكى باشا شيخ العروبة وعبد العزيز جاويش وزكى مبارك والمراغى وفريد وجدى .

كذلك فإن دائرة معالم الأدب قد اتسعت فى اتجاهين :

(١) « اتجاه جغرافى » بدراسة : الفكر والثقافة فى شمال أفريقيا وهى دراسة ضمت الأقطار الأربعة : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب .

(٢) « اتجاه اجتماعى » وذلك بدراسة : (الشرق فى فجر اليقظة) من حيث هو دراسة عن المجتمع المصرى العربى الإسلامى بكل جوانبه من الأزهر إلى الجامعة إلى عيادات الأطباء إلى نوادى المحامين إلى الصحف والمقاهى ومجالات الفن والفكاهة .

كذلك فقد توسعنا فى دراسة الصحافة حيث تناولنا الصحافة السياسية فى المجلد الأول ثم تناولنا الصحافة الاجتماعية فى المجلد الثانى (تطور الصحافة العربية)

وتوسعنا فى مجال المعارك الأدبيـــة فقدمنا المجلد الثانى منها تحت عنوان « المساجلات والمعارك الأدبية » .

وقد تطور ميدان العمل من مجال الأدب والصحافة إلى مجال الثقافة العربية والفكر الإسلامى .

وهكذا تجاوزت موسوعة معالم الأدب العربى إلى أكثر من عشرين كتابا

ولقد بدأت دراسة الأدب العـــربى من منطلق عصر اليقظة العربية الإسلامية فشملت تلك المرحلة منذ بدأت حركة اليقظة ١٨٧١ حتى أوائل الحرب العالمية الثانية .

ولما كان علينا أن نتجاوز هذه المرحلة إلى اليوم فقد جاء كتابنا « خصائص الأدب العربى فى مواجهة نظريات النقد الوافد » منطلقا إلى هذه المرحلة ونحن فى هذا الكتاب نوسع آفاقنا إلى جوانب كثيرة من دراسات اللغة والأدب والتراجم بحيث نقدم للقارىء باقة منوعة تضم دراسات عن شوقى وطه حسين ومحمد فريد وعزيز أباظة وأبو الطيب المتنبى وأحمد محرم ومحمد إقبال وكامل كيلانى وإبراهيم ناجى .

وهى تمتد إلى الجزائر وليبيا والمغرب من ناحية الجغرافيا وإلى التراث الاسلامى وإلى مجالات الفلسفة وأطروحات الدكتوراه وأثر الصهيونية فى الأدب العربى الحديث من ناحية التاريخ مما يفتح أبواب البحث لعشرات القضايا المثارة فى هذا المجال .

والهدف الواضح من الدراسة كلها هو البحث عن الاصالة العربية الاسلامية التى هى منطلق الأدب العربى المعاصر الذى لا تستطيع أن تنفصل عن الأدب العربى العام الممتد على الأجيال العصور ، فى ترابط وتكامل وفى مواجهة حملات التغريب والغزو الفكرى والشعوبية التى تحاول أن تفسد مقومات هذا الفكر المنطلق إلى غاياته دون أن تعوقه هذه المحاولات المسمومة التى مهما تمكن أصحابها فترة من الزمن فهم إلى زوال وقد زالوا وعاد الأدب لينطلق فى طريقه الأصيل : طريقه المتصل فى حاضره بماضيه من ناحية والمتصل بالفكر الاسلامى بوصفه منافذاً من روافده التى تتكامل فى مجموعها تحت لواء النظرة الجامعة :

أنور الجندى

الباب الأول

في الأدب

الفصل الأول

الحرف العربي فى الأدب الجزائرى

لاتزال تتردد بين حين وحين تلك المقولة التى تزعم أن الأدب الجزائرى لايتمثل إلا فى بعض إنتاج كتابه الجزائريين بالفرنسية . أمثال : محمد ديب — والمعمرى — وكاتب يس ، والحداد — لقد شاع فى البلاد العربيه أن هذا هو الإنتاج الوحيد الذى يمثل روح هذه الثورة الفذة التى قدمت مليوناً من الشهداء ، بينما يدحض هذا ويكشف زيفه تلك الصورة الباهرة التى نراها الآن للأدب الجزائرى بالحرف العربى ، وهى نهضه ذات جذور ممتدة تسبق تاريخ الثورة بأكثر من ثلاثين عاماً .

والحق أنه عندما صدر « الشهاب » عام ١٩٢٧ فى قسنطينه ولمع عام ١٩٣٠ فى أرض الجزائر كلها ، كان الحرف العربى فى الأدب الجزائرى قد أكد وجوده فى سماء الفكر العربى ، وثبت ثبوتاً لم يتزحزح بعده ، بل ازداد مع الأيام سطوعاً وتوهجاً .

كان منطلق النهضه الجزائرية التى قادتها جمعيه العلماء بزعامه عبدالحميد بن باديس ومن حوله كوكبة من العلماء النابهين الذين امتازوا بالتخصص فى ميادين مختلفه — قد ركز فى الأساس على إنشاء ثلاثمائة مدرسه عربيه فى مساجد الجزائر ، ولم يمض إلا قليل حتى برز عدد كبير من الشباب المثقف ومن الشعراء والكتاب الذين قدموا إنتاجهم العربى فى مختلف المجالات ، فما أن صدرت « البصائر » فى أوائل الخمسينات حتى حفلت بالأسماء الجديدة التى زاحمت كتاب العربية فى ميدان البيان ، وكان هذا الإنتاج كله يتجه نحو بناء الإنسان الجزائرى العربى ، داعيا إلى الله ، ومجاهـداً فى سبيل الحرية ، ومؤمناً بالعروبة .

ويمكن القول أن لهذه النهضة التى أتت أكلها فى نفس العام المائة لاحتلال الجزائر كانت قد انطلقت فى ميادين ثلاثة :

أولا — الشعر : وهو ديوان النهضة ومنطلق المشاعر إلى الحرية والقوة .

ثانيا — المقالة الأدبية وهى من أبرز فنون الأدب الجزائرى عن طريق الصحافة العربية .

ثالثا — إعادة كتابة التاريخ الجزائرى من جديد فى مواجهة التحديات التى حاولت تزييفه .

ومن هنا نجد أن الحرف العربى فى الأدب الجزائرى الحديث ليس جديداً ، ولكنه سابق للثورة الجزائرية بأكثر من ثلاثين عاماً ، وأن حركة العلماء التى قادها الإمام ابن باديس كانت بمثابة القذيفة الاولى فى الثورة الجزائرية ، أو بمثابة البذرة القوية التى أخرجت تلك الشجرة الضخمة . وإذا نظرنا اليوم فرأينا تلك الألسنة والأقلام الناهضة التى تتصدر نهضة الفكر الجزائرية العربية الاسلامية ، وفى مقدمتها مولود قاسم ، وأحمد طالب الإبراهيمى ، ومفدى زكرياء ومحمد العيدال خليفة ، وأبو القاسم سعد الله . وصالح خرفى ، وتركى رابح ، وعبدالله الركيبى ، وعبد الله شريط ، ومحمد على دبوز — ذكرنا على الفور ذلك الرعيل القائد الذى أقام النهضة ودعمها وهم صفوة الأعلام الذين كانوا حول (ابن باديس) : البشير الإبراهيمى ، والطيب العقبى ، ومبارك الميلى ، وتوفيق المدنى .

ولقد أسهم هذا الجيل من شباب ومفكرى الجزائر فى الفكر والأدب العربى الحديث إسهاماً ، وقدموا آثاراً ضخمة هامة فى هذه الميادين الثلاثة : الشعر — والأدب الجزائرى — الصحافة والمقالة الأدبية — وإعادة كتابة تاريخ الجزائر .

● في مجال الشعر والأدب الجزائري ●

نجد في مقدمة البارزين في الميدان : محمد العيد آل خليفة ـ ومفدي زكريا ـ وعمر ابن قدور — ومحمد السعيد الزاهري — ورمضان حمود ، وأحمد سحنون .

ولقد كان الشعر حداء الأزمة والمحنة والتحدي والثورة جميعاً ، وهو الصوت القوي ولذلك فقد عني الأدباء بنقد هذا النتاج وتقييمه ، وفي مقدمة من تصدى لذلك : الدكتور صالح الخرفي ، والأستاذ عبدالله الركيبي ، ولهما العديد من الدراسات في هذا المجال نشرت في فصول مختلفة في مجلات مصر وسوريا وجمع بعضها في مؤلفات (١) .

أما الدكتور صالح الخرفي فقد كانت أطروحته عن الشعر الجزائري الحديث (من ١٩٣٠ — ١٩٦٠) وندهش حين نجد أن هذه الفترة وهي فترة الاحتلال حافلة بالنضال الشعري في ميادين أربعة : الشعر الديني — والشعر الوطني — والشعر الثوري — والشعر العاطفي — تبرز فيها الدعوة إلى تأكيد الشخصية الجزائرية : عربية إسلامية على النحو الذي أفصح عنه الإمام ابن باديس في شعره الذي جرى مجرى الأمثال :

شعب الجزائر مسلم	∴	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	∴	أو قال مات فقد كذب
يانشء أنت رجاؤنا	∴	وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها	∴	وخض الخطوب ولا يهب
وارفع منار العدل	∴	والاحسان واصدم من غضب

---

(١) الدكتور صالح الخرفي كتابه (شعراء من الجزائر) وللاستاذ عبد الله الركيبي عدد من المؤلفات : قضايا عربية في الشعر الجزائري ، ودراسات في الشعر الجزائري — وأحاديث في الأدب الجزائري .

نحن الأولى عرف الزمان ∴ قديمنا الجم الحسب
ومصين ذاك المجـد ∴ فى نسل العروبة ما نضب
من كان يبغى ودنا ∴ فعلى الكرامـة والرحب
أو كان يبغى ذلنا ∴ فـله المهانة والحرب

فى ضوء هذا الإطار سارت حركة الشعر الجزائرى العربى من خلال تلاميذ جمعية العلماء ، وكانت المناسبات الإسلامية العديدة : المولد — والحج — والأعياد — وبدر — وغيرها تدفع الشعراء إلى الربط بين المناسبة وبين دعوة الحرية ، وتطعم العقيدة الدينية بروح سياسية .

ولقد ربط الشعر الجزائرى الحديث نفسه بالإسلام ومحمد أولا ، كما ربط نفسه بجهاد الأمير عبد القادر الجزائرى من ناحية أخرى ، وربط نفسه بالأمة العربية كلها من ناحية ثالثة .

وكما تناول الوعى التاريخى فقد تناول الإصلاح الاجتماعى والتعبئة السياسية وإحياء الأمجاد البطولية ، ثم جاء شعر الثورة بعد ذلك فياضاً بالبطولات ، يرتفع فوق الآلام الجسدية ، وينتعش فى غمرة المأساة - على حد تعبير الدكتور صالح الخرفى - ويبتسم فى ذروة المحنة « ولم ينس الشعر أن يعير لفتات إلى البطولات الحية النابضة التى تزحف من سفوح وقمم الأطلس أو تنفجر فى العواصم والمدن » .

ولقد كان محمد العيدال خليفة وهو رافد تاريخ الجزائر الحى منذ مطالع حياته حتى عام ١٩٠٤ — وقدقضى حياته معلماً حراً فى مدارس جمعية العلماء ، وعاش قصة الإحتلال والثورة .

وقد حاز تقدير النقاد والباحثين من مختلف أنحاء البلاد العربية على السواء حتى ليقول الأمير شكيب أرسلان عنه : « كلما قرأت شعراً لمحمد العيد الجزائرى أخذتنى هزة طرب تملك على جميع مشاعرى وأقول : إن كان فى هذا العصر شاعر يصح أن يمثل البهاء زهير فى سلامة نظمه ، وخفة روحه ، ورقة شعوره »

وجودة سبكه ، وإستحكام قوافيه ، وأن التكليف لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه — يكون محمد العيد الذى أقرأ له القصيدة المرتين والثلاث ولا أمل ، وتمضى الأيام وعذوبتها فى فمى. كان يظن أن القطر الجزائرى تأخر عن إخوته سائر الأقطار العربية فى ميدان الأدب ، ولا سيما فى الشعر ولعله بعد الآن سيعوض الفرق ، بل يسبق غيره بمحمد العيد (١) .

وقد التقى شكيب أرسلان قبل محمد العيد بشاعر آخر هو : محمد السعيد الزاهرى فى كتابة « الاسلام فى حاجة إلى دعاية وتبشير » عام ١٩٢٣ .

ولقد تعرض الامام ابن باديس عام ١٩٢٤ فى إحتفال جمعية العلماء بوفاة شوقى وحافظ إلى بعض ملاحظات لشوقى أبان زيارته للجزائر سنه ١٨٩٩ . وقال : لو أن فقيدنا رأى فى عالم الغيب حفلنا هذا لكان له فى الجزائر رأى آخر . ولعلم أن الأمة التى صنعها الاسلام وهو صبغة الله ، وأنجبها العرب ، وهى أمة التاريخ وأنبتتها الجزائر وهى العاتية على الرومان والوندال — لا تستطيع أن تمسخها الأيام أو نوائب الدهر » .

ويعد الشاعر مفدى زكريا هو « حافظ » الجزائر إذا وصف محمد العيد بأنه شوقى الجزائر . وقد تابع مفدى زكريا قضية الجزائر وعايشها بنشيده لحظة بلحظة وكان واحداً من المجاهدين الذين دخلوا السجن مرات ومرات ولم ينثن لهم عنان .

وأبرز أعماله ديوان « اللهب المقدس » الذى أصدرته وزارة الثقافة من خلال النهضة الضخمة التى يقودها المناضل مولود قاسم فى شتى الميادين .

ومفدى زكريا إلى ذلك هو صاحب نشيد الثورة الجزائرية (قسماً بالنازلات)

---

(١) كتب هذا شكيب أرسلان عام ١٣٥٥ هـ فى جنيف (توافق ١٩٣٧)

ونشيد جيش التحرير الجزائري، ونشيد الشهداء الجزائريين وسائر الأناشيد، ومن آيات شعره قوله :

من يشترى الخالد إن الله بائعه ∴ فاستبشروا واسرعوا فالبيع محدود
إن تبذلوا المال فى الجلى يرد لكم ∴ الخير بالخير مزروع ومحصود
جودوا به قبل أن تكوى الجباة به ∴ المال يفنى ويبقى الفضل والجود

وجملة القول أن الشعر الجزائري استطاع أن يعمل فى الميادين المختلفة للشعر العربي، ولم يقصر فى واحد منها . وكان أبرز معالمه : التغنى بالعروبة، مقاومة السيطرة الاستعمارية فى الجزائر التمكين للشخصية الجزائرية، وقضية فلسطين . وتكشف الدراسة التى قدمها محمد الهادى الزاهرى عام ١٩٢٦ تحت إسم شعراء الجزائر فى العصر الحاضر — عن زيف دعوى أن الأدب الجزائري كله كان مكتوباً باللغة الفرنسية لا العربية . فقد حوى قصائد قيلت فى رثاء الشيخ محمد عبده عام ١٩٠٥ منها شعر محمد بن مصطفى محمد الخوجه . وعبد الحليم بن سماية، ويدل طابع الشعر الذى جمعه الزاهرى، ومنه مالم يكن يسمح بنشره فى الصحف على صرامة الايمان بالعقيدة والأمة والوطن.

كما يدل على أن الشعراء الجزائريين فى هذا الوقت الباكر قد استوحوا كل فنون (١) الأدب — القصة والشعر والمسرحية الشعرية (ولمحمد العيد مسرحية شعرية بعنوان بلال) .

● الصحافة والمقالة الأدبية ●

وفى هذا المجال ظهرت صحف كثيرة وكتاب كثيرون : كان فى مقدمتها المنتقد والشهاب والبصائر . وقد أحصى الشيخ أبو اليقظان منشىء الصحافة فى جنوب الجزائر صدور ٢٢ جريدة ومجلة فى الفترة من عام ١٩٠٤ إلى عام

---

(١) صالح الخرافى : شعراء الجزائر

١٩٠٤ أصدر منها هو وحده سبع صحف ، منها : وادى ميزاب ، والنبراس والأمة ، والمغرب ، والبستان .

وقد كان لهذه الصحف دورها الحاسم فى دعم الحرف العربى فى الأدب الجزائرى وهو تتناول القضايا فى حدود الرقابة التى كانت مفروضة عليها . وكان لها أيضاً دورها فى تطوير اللغة العربية وربطها بالنهضة القائمة إذ ذاك فى المشرق العربى ..

يقول العلامة عبد القادر المغربى فى بحث له بمجلة المجمع العلمى العربى التى تصدر فى دمشق عام ١٩٢٦ أنه استكشف ظاهرة هامة هى « وحدة اللغة العربية الفصحى بين معشر المشارقة وأخواننا المغاربة فهم يكتبونها كما نكتبها ويتذوقون بلاغتها كما نتذوقها ، وذلك نتيجة « توحد المنازع والمشارب ، وذلك مزية القرآن وهو العروة الوثقى التى تضم إليها ما تفرق من أقطار الأمة الاسلامية . ويشير الدكتور صالح الخرفى إلى شبهة الطابع الفرنسى فى الجزائر أو فى أدبها فيقول : لقد كان الطابع الفرنسى الذى يفرض نفسه على الجزائر لا يجد صداه إلا عند الذين فرضوه ، فهى عربية مسلمة وإن رفرف عليها ألف علم فرنسى مثلث الالوان ، وكانت القطيعة المفروضة بين الشعب ومقومات شخصيته تستثير فيه حفيظة وتحديا صارخا يزداد تطلعا لاستكمالها وتزويدها من شعب عربى عريق تبعده المسافة بقدر ما يقربه الحنين العرقى الذى تزكيه السياسة الاستعمارية العنصرية » .

وإذا كانت « الشهاب » هى بادرة النهضة الحقيقية فإن « البصائر » هى الصورة القوية لما حققته النهضة ، فقد كانت تمثل أبان فترة صدورها مدى قوة الحرف العربى وصولة الإيمان بالجزائر وطناً عربيا إسلاميا .

وكانت البصائر قد صدرت للمرة الثانية عام ١٩٤٧ بعد أن توقفت عام ١٩٣٩ فى أوائل الحرب العالمية ، وكانت مقالات العلامة محمد البشير الإبراهيمى مثلا عالياً للبلاغة العربية .

ولم تلبث الصحافة العربية أن استأنفت مسيرتها بعد ثورة الجزائر الكبرى فصدرت المعرفة (١٩٦٣ — ١٩٦٥) والقبس (١٩٦٦ — ١٩٦٩) والثقافة ١٩٧١ والأصالة في نفس العام . وظهرت على صفحاتها أسماء جديدة لم تلبث أن لمعت في مقدمتها الصغير الأخضري ، وعمار طالبي ، ورشيد نجار ، والأخضر السائحي ، والهادي السنوسي ، وباسم التميمي ، ومحمد بو عروج ، وعبد المجيد مزيان ، ودكتور الطاهر أحمد مكي ، وحنفي بن عيسى ، وعبد القادر زبادية ، وعبد الله شريط ، وتركي رابح ، وبو عمار الشيخ . وأولت هذه الصحف اهتمامها إلى التعريب وإعادة كتابة التاريخ ودراسة الشعر العربي في الثورة الجزائرية والشعر الجزائري في قضايا العروبة وفلسطين .

● إعادة كتابة تاريخ الجزائر ●

هذا هو المجال الثالث الذي أولاه الحرف العربي اهتمامه الكبير في ظل

التحدي الخطير الذي واجهته الجزائر نتيجة تزييف تاريخها على أيدي المستشرقين في محاولة للغض من مكانتها وانتقاص دورها وبطولتها .

ولقد بدأ هذا العمل العلامة مبارك الملي في ظل الصيحة الأولى لجمعية العلماء ، ويعد الشيخ مبارك الملي (المتوفى سنة ١٩٤٥) أول من ارتاد هذا الطريق الوعر المليء بالصعاب وله كتابه الضخم تاريخ الجزائر في القديم والحديث : وقد راجع كل ما كتب عن الجزائر في الكتب القديمة وألم إلماماً بكل ما كتب الأجانب من بلاده ، ولما كان يجهل اللسان الفرنسي فقد استعان بأصدقائه في تعريب ما احتاج إليه من المواد الأجنبية ، وسار في هذا الطريق . وقام فيه بدور ضخم العلامة توفيق المدني حيث حقق كثيراً من المواقف ودحض عدداً من الشبهات التي أثارها المؤرخون الأجانب وفي مقدمتهم «لوي برتران» .

وفي نفس الطريق إلى تحقيق تاريخ الجزائر القديم سار الأستاذ محمد علي دبوز فأصدر موسوعته الكبرى (تاريخ المغرب الكبير) في أربعة مجلدات

تناول فيها تاريخ المغرب كله قبل الاسلام وبعده على نحو مستفيض ، وأبرز دور الاباضية وموقفهم من أدوار الحكم المختلفة . وقد أصدر ألف صفحة ليصل إلى ختام حكم الدولة الرستمية فى نهاية القرن الثالث الهجرى . ثم تناول بالاضافة تاريخ النهضة الجزائرية الحديثة وإعلامها ، وأرخ لنهضة الجنوب الجزائرى (١) وفى هـذا المجال يبرز إسم الدكتور أبو القاسم سعد الله وأطروحته التى أحرز بها درجة الدكتوراة من جامعة مينيوتا بالولايات المتحدة عن الحركة الوطنية الجزائرية منذ أوائل الحركة عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٣٠ (ظهور جمعية العلماء) وقد حفلت هذه الدراسة العلمية الموثقة بكثير من الاضافات ، وحققت الكثير من المواقف والمواقع والأحداث :

ويصور الدكتور سعد الله عمله فيقول : « نحن مؤرخى العالم الثالث نواجه عقبة شاقة فى كتابة تاريخ بلداننا ، فالعاطفة لازالت تلعب دوراً ساسياً فى تقييمنا للأشياء والحكم على الأحداث ، وهذه العاطفة قد تكون خطراً على الموضوعية والبحث المجرد ، ولكننا من جهة أخرى نحس أن علينا مسئولية إنسانية نحو بلداننا فى هذه المرحلة التاريخية التى تقف فاصلا بين الاستعمار والتحرر ، وبين العبودية والحرية ، وقد حفلت بفكرة البحث منذ انفجار الثورة الجزائرية . ولم تكد الثورة تنتهى عام ١٩٦٢ حتى كنت قد وضعت المخطط العام للفكرة وأوشكت على جمع المراجع ، وكنت أحس من الأعماق أننى قد اكتشفت كنزا ثمينا فى أكوام من الوحل » .

ولقد أولى الباحثون الجزائريون اهتماما كبيرا : قضية الاستشراق فى تاريخ الجزائر وكتب فيها كثيرون فى مقدمتهم — بلقاسم النعيمى : نحن والحضارة الأوربية .

كما اهتمت مجلة الاصالة ببحث قضية : إعادة كتابة تاريخ الجزائر ، واشترك

(١) راجع كتابنا « الفكر والثقافة فى شمال إفريقيا »

فى الدراسة : دكتور عبد القادر زبادية — محمود أبو عياد ، عبد المجيد مزيان ، ابو القاسم سعد الله .

ويقول الاستاذ حنفى بن عيسى « كانت فرنسا تمنعنا من تعلم التاريخ على أيدى الوطنيين ، ولكنها كانت تعنى فى نفس الوقت بتشجيع الدراسات التاريخية التى هى من نمط معين وتخدم أغراضا معينة ، ولابد من الاشارة إلى أن فكرة الاستشراق هى محاولة لتأويل الحضارة الغربية من زاوية معينة ، ذلك أن الاستشراق هو نمط من التفكير لا يخلو من الاعتبارات السياسية .

والقارىء الواعى يستطيع بسهولة أن يكتشف وراء هذه المحاولة طريقة ترمى إلى تشويه الحقائق الناصعة وطمس معالم التاريخ القومى . والهدف هو محاولة إقناع العالم بأن الجزائر لاتستطيع أن تحكم نفسها بنفسها من غير مساعدة فرنسا . لأن سكانها لايخضعون لأى نظام ، ونقطة الضعف فى أحكام المستشرقين هى حديثهم عما يسمونه (طوائف السكان) وذلك أن سكان الجزائر — والمغرب العربى بصورة عامة — لايؤلفون فى نظرهم مجموعة متجانسة من المواطنين الذين تجمع بينهم التقاليد والعادات واللغة والدين والأرض ، بل ينتمون إلى طوائف بينها فروق عديدة وهذه الفروق موضع لاهتمامهم .

ويتصدى الدكتور أبو القاسم سعد الله لآراء الاستاذ : جوليان (شارل أندرى جوليان) فى كتابه « تاريخ الجزائر المعاصرة » فيقول : « لا يمكن للجزائر فى فترة استعادة بناء شخصيتهم الوطنية أن يتقبلوا ذلك التاريخ وأن يمنحوا الثقة الفكرية لوثائق كتبها أمثال : بوجو وبيليسى وراندون وعوينى ولريسكى واضرابهم من الذين لم يكتفوا بحالة الشعب الجزائرى فى أرضه . بل حاولوا تشويه إرادته وتزوير تاريخه الوطنى » .

ثم أشار إلى محاولات النيل من رسالة الإسلام فى الجزائر فقد وصفوا حامليه بالعدوان واتهموا معتنقيه بالتعصب ، وحاولوا خلق العنصرية والطائفية لذبذبة

الأفكار وضعضعة القوى الوطنية . وجوليان لم يسلم من الانحراف فى هذا التيار فى الأحيان . وقال : إن الإسلام قد أعطى الشعب الجزائرى حضارة كاملة تقوم على العربية كوسيلة تفكير وتعبير ، وعلى الدين كطريقة حياة وسلوك ، والجزائريون لم يتقبلوا هذه الحضارة فقط . بل أسهموا إسهاماً فعالا فى تقويتها وتمكينها ، وكل من يؤرخ للشعب الجزائرى دون أن يشير إلى دوره العملاق فى التشييد والدفاع عن الحضارة العربية — الاسلامية فإنه يغمطه حقه » .

ولا ننسى فى هذا المجال جهد العلامة مالك بن نبى — وقد كانت مؤلفاته الأولى باللغة الفرنسية . غير أن مؤلفاته — الأخيرة قد كتبها باللغة العربية . فأضاف إلى الحرف العربى قطاعا جديداً من الدراسة الاجتماعية وفلسفة الاجتماع .

* * *

ومن الأعمال التى تؤكد أصالة الحرف العربى دراسة الدكتور تركى رابح السيد عبد الحميد بن باديس من خلال فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم ، وهى الأطروحة التى تقدم بها إلى كلية التربية فى القاهرة . فقد كشف عن مفهوم التربية عند ابن باديس وفلسفته الأخلاقية التى تقوم على أساس المزج بين النظرية والتطبيق طبقاً لمضمون الآية « إن الدين عند الله الاسلام » فالاسلام معناه الإيمان بالله مضافاً إليه العمل الصالح .

● مولود قاسم والملتقى الإسلامى ●

فى ضوء هذه الصورة ، ومن خلال هذه الحركة الدائبة لدعم الحرف العربى

نستطيع أن نفسر ذلك العمل الضخم الذى يجرى منذ سبع سنوات تحت لواء الملتقى الإسلامى ، ويشرف عليه علم من أعلام اليقظة هو : مولود قاسم ، وهو يتمثل بصورة مراجعة عامة شاملة لمختلف القيم الأساسية للفكر الإسلامى والأدب العربى فى مواجهة التحدى الخطير المتمثل فى التغريب والغزو الثقافى من ناحية ، وأزمة الحضارة الغربية من ناحية أخرى . وتحدى العصر فى مواجهة الأصالة من ناحية ثالثة . .

فإذا نحن ذهبنا نراجع رءوس الموضوعات التى طرحت فى هذه الملتقيات السبعة والتى شارك فى عرضها وتقنينها ووضع الخطط الحاسمة لها رجال الفكر فى العالم الإسلامى كله ، وجدنا أننا نمضى على الطريق فى دعم قضية الحرف العربى ، وأن هذه النهضة بمثابة جولة جديدة على الطريق لا يتوقف أثرها عند الجزائر وحدها أو المغرب العربى فحسب ، ولكنها تتعانق مع جهود المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومجمع البحوث فى مصر ، وجمعية الدعوة الاسلامية فى ليبيا ، ورابطة العالم الاسلامى فى مكة ، والحركة الاسلامية فى باكستان وأندونيسيا وغيرها .

كما تكشف عن الخطوة الثانية على نفس الطريق الذى رسمه الامام عبدالحميد ابن باديس والذى كان هو الضوء الكاشف للثورة الجزائرية فى جهادها وتضحياتها خلال المعركة ، وفى عملها الاجتماعى والفكرى فيما بعد ذلك من خلال الحرف العربى والكلمة العربية .

ولذلك نجد فى مختلف كلمات مولود قاسم ذلك التركيز الواضح على الأصالة التى لا تفقد روحها وهى تتفتح على العصر والتى تكشف عن جوهر الشريعة الاسلامية فى مختلف علاج قضايا العصر فى العالم الاسلامى : التربية ، والأسرة .

والمرأة ، والاقتصاد ، والاجتماع دون أن تتنازل أنملة واحدة عن القيم الأساسية التى بناها القرآن .

وهكذا تمضى قضية الحرف العربى فى الأدب الجزائرى ، والفكر الجزائرى الاسلامى إلى مرحلة أشـــد قوة . ولـكنها ليست إلا امتداداً للحلقات التى سبقتها على الطريق منذ رفع اللواء : الامام الشهيد الجليل عبد الحميد ابن باديس .

الفصل الثاني

الشعر العربي الليبي المعاصر

« خاض معركتين هما الحرية والوحدة »

« حقيقة أساسية ، لا سبيل إلى إنكارها أو تجاوزها هي : أن « الأدب العربي المعاصر » يمثل وحدة شاملة للامة العربية فى مشاعرها وخواطرها ومفاهيمها وإيمانها ، ذلك أن هذا « الأدب » قد امتد كيانه من ضمير وفكر وذوق واحد تصل جذوره إلى أعماق ينابيع العروبة والإسلام ممتزجين نابضين بالقوة والحياه ، فقد كان أبرز معالم هذا الفكر العربي الإسلامى هو « الحرية » ومقاومة الغاصب ، والدفاع عن الكيان والكرامة والعرض « من مات دون ماله فهو شهيد ومن مات أيضا دون أرضه فهو شهيد »

ذلك هو ضمير أمتنا ولباب فكرنا «أمة» لاتستكين قط لغاصب ولاتخفض رأسها ، وعصارة فكرها هو أنها لا تستسلم ولا تذوب ولا تتحول وإنما هى تدفع دائما عدوان المعتدين وترد الغاصبين وتقاوم حين تفقد وسائل الدفاع بالأجساد المتراصة الملتحمة ، تلك هى صورة أمتنا وروح فكرنا ، وهى صورة تتجلى أمامى اليوم ممثلة أروع تمثيل فى «ليبيا» خلال هذه المرحلة الطويلة الممتدة من ١٩١١ إلى ١٩٥٠ وتلك هى مرحلة تاريخها قبل الإستقلال . اتصورها معارك متوالية وكفاح دائم ، مجاهدون على فرسانهم ، وسيوف ودماء وكر وفر وتضحية وفداء ، كم ضمت هذه المنطقة الممتدة من حدود مصر إلى حدود تونس من رفات شهيد قاتل فى سبيل الحرية ومات دون وطنه وعرضه ، وكم من معارك أديرت وكم صور لاتخطر بالبال واجهها أخواننا أهل طرابلس وبرقة

وفزان وما بينهما فى سبيل مقاومة العدوان والإستعباد والإستعمار والإحتلال.
وما أظن أن «معركة الحرية» كانت فى جزء آخر من الوطن العربى أشبه بالمعركة
فى هذا الجزء الذى احتمل معركة طويلة ممتدة والاها وانصهر فيها حتى ليكاد
يكون أدبه كله فى هذه الفترة أدب كفاح وجهاد وقتال ودماء.

وأى ألوان الادب أو الشعر يمكن أن يلتفت إليه الاديب أو الشاعر فى
خضم هذه المعركة المنصوبة: تلك هى الصورة التى تملأ نفسى وأنا أتقدم للكتابة
ملبيا دعوة أخى الأستاذ نجم الدين لمجلة الرواد عن الشعر والشعراء فى ليبيا.

ولست أذكر هنا كيف عشنا هذه المعركة فى صحافتنا المصرية العربية
وواكبناها زمنا حتى لقد وجدنا فى صحف المؤيد خلال عامى ١٩١١ و١٩١٢
عشرات القصائد والمقالات والبرقيات، لقد كان قلب الشعب فى مصر وكذلك
فى تونس وفى الأطراف من العراق إلى المغرب يخفق مع ليبيا، ويستجيب،
كان الشعر فى صحف مصر يمثل ذلك الإلتقاء الحقيقى العميق وذلك الروح
الواحد الممتزج فى هذه الأمة. وكلمة النثر هنا فى المقالة لا تمثل عمق الشعور
بقدر ما تمثله القصيدة.

ولقد عشت هذه الحقيقة وصورتها فى كتابى «الأدب العربى الحديث» فى
معركة المقاومة والتجمع عام ١٩٥٩ وعرضت لمعارك العالم العربى كلها فى مقاومة
الإستعمار وخلصت إلى نتيجة أساسية، هى «أن قلب هذه الأمة واحد. وهو
يخفق فى أى مكان فيجد صداه فى كل مكان».

والشعر فى ليبيا فطرة صادقة وتعبير خالص وبلاغ حربى وصحافة، حيث
كانت هذه الأمة فى أزهر عصورها، فلا شك أن له دولة هناك ما زالت حية
هى صورة الأمة فى أعماق ضميرها ولقد عاشت «ليبيا» تحارب بالقنا والسيف

والمدفع ومضى الشعراء حول الركب يقولون « الكلمة » التى تهز النفوس وتدفع الكتائب إلى القتال والاستشهاد .

فلقد عاشت ليبيا تقاوم الاستعمار الإيطالى نيفا وعشرين عاما بلا انقطاع دون أن ترضخ أو تستسلم وهان عليها أن تضحى بمليون شهيد من أبنائها وهو ما يزيد على نصف سكانها فى سبيل حريتها وعروبتها . وقد واجه الليبيون الغزو الإيطالى وحدهم بعد أن انسحبت تركيا من المعركة الأولى ، وصمدوا لوحشية هذا الغزو الذى ترك جراحا لما تلتئم ورسم صورة قاتمة لفترة من تاريخ ليبيا ، مازالت حية فى نفوس الكتاب والمؤرخين تبدو مرارتها واضحة فى كل صنوف الإنتاج الفكرى ، ومايزال أعلام من أبنائها يجرون بلهفة وراء هذه المرحلة يغطون تاريخها وبطولاتها فى مقدمتهم أستاذنا الشيخ الطاهر الزاوى وأخانا على مصطفى المصرانى وصديقنا مفتاح الشريف وعشرات من الشباب الجديد الذين يكتبون اليوم صفحة ناصعة ونترقب آثارهم فى هذا المجال بشغف للتعريف بها .

ولاشك كان للشعر الليبى دوره الضخم فى معركة التحرير وفى معركة الوحدة فقد كان الإستعمار حفيا بالقضاء على اللغة العربية ومنع انتشارها حتى لقد سجن بضعة أشخاص بتهمة العثور على كتاب العبرات للمنفلوطى مجتمعين لقراءته . وفرض الغاصب تعليم لغته ، وبالتالى ثقافته ، ومن هنا كانت « الكلمة العربية » فى ديوان الشعر تعمل أكثر مما يعمل المدفع ، ولم تستطيع إيطاليا أمام قوة الكلمة ، أن تطفئ جذوة النضال ضدها .

ومن هنا كان الشعر العربى فى ليبيا شعر مقاومة وعروبة وحرية وكان شعر وحدة أيضا .

٢ — وحتى لا أطيل حول مجال البحث أقول أن فن الشعراء النابغين - يتمثل أمامى فى شخصيات ثلاث ، هى نماذج لا تغنى عن كل النماذج والأسماء هذا الشعر العربى الليبى - مع تقديرى لعشرات ولكنها ترسم الإطار للصورة وهى فى مجموعها تتكامل زمنا ، وأسلوبا ، ومضمونا .

هؤلاء هم : أحمد الشارف « طرابلس » المولود عام ١٨٧٢ - والمتوفى ١٩٥٩ ،
رفيق المهدوى « برقة » المولود عام ١٨٩٨ — والمتوفى ١٩٦١ .
إبراهيم الأسطى عمر « برقة » المولود عام ١٩٠٧ — والمتوفى ١٩٥٠ .

وأعتقد أنه من خلال دراسة الشعراء الثلاثة يمكن رسم صورة مقبولة للشعر الليبى فى هذه المرحلة وقد تصادف أن كتب عنهم المعنيون بدراسات الأدب الليبى وأمامى ديوان « أحمد الشارف » الذى قدمه الأستاذ المصراتى يمثل حياة فكر وذوق عريضة ، أما « الرفيق المهدوى » فقد كان شعره ديوان الحرية فى حياة ليبيا . ويمثل إبراهيم الأسطى عمر مشاعر الوطنية من خلال الهجرة ..

« أما أحمد الشارف فهو لم يغادر وطنه خلال هذا العمر الطويل مهاجرا وقد عمر حياة خصبة لم يتوقف فيها عن نظم الشعر فشهد العصور الثلاثة : العصر العثمانى وعصر الاحتلال وعصر الاستقلال ، لقد كان شعره سلاحا من أسلحة المقاومة للاستعمار الإيطالى فى فترة من الفترات وعرف الإيطاليون أنه يحرض عليهم ويغرى الناس بالجهاد ، ويقول الشعر فى مقاومتهم ، فاعتقل واودع السجن ، ثم ترك منصب القضاء إلى غريان وانضم إلى المجاهدين فيها ثم أعيد مرة أخرى إلى منصب القضاء ومن أبيات شعر الجهاد قوله :

رضينا بحتف النفوس رضينا ... ولم نرض أن يعرف الضيم فينا
ولم نرض بالعيش إلا عزيزا ... ولا نتقى الشر بل يتقينا
فما الحر إلا الذى مات حرا ... ولم يرض بالعيش إلا أمينا
وما الشعر إلا من كان يفدى ... ذماما ويبقى عليه الثمينا
وما الخزى والعار إلا اشخص ... إلى وطن العز أضحى مهينا
ونحن فروع زكت من أصول ... فنحصى مآثرنا ما حيينا
لتاريخ عنصرنا فى الورى ... حديث على صفحات السنينا

و « الشارف من الشعراء المكثيرين ، يقول على البديهة الفياضة مثل الكاظمى

فى المشرق وقد أطلق عليه بحق شيخ الشعراء فقد عاش أكثر من تسعين عاما ، كما لقب بشاعر القطرين « طرابلس وبرقة » وقد بدأ حياته وختمها بالشعر الصوفى، وتأثر فى مطالع حياته بعمر بن الفارض وعبد الرحيم البرعى ، وكان إلى ذلك من جلة العلماء وقد عرفت أحكامه الشرعية بالدقة ، نتيجة تمكنه من الفقه الإسلامى وهو كاتب ثائر له فصول ومقالات وأبحاث نشرها فى الصحف قبل الحركة الوطنية ، وله مراسلات مع شعراء وأدباء تونس ومصر والشام والعراق .

وقد اضطر فى بعض ظروف الضغط إلى التماس مسالك الشعر الرمزى وجنح إلى التقية ، ولكنه كان حتى فى تخفيه هذا كان داعيا إلى الإيجابية والقوة ودفع الشخصية القادرة على الكفاح :

اعمل لنفسك صالحا — واختر لغيرك ما تحب
وادفع عدوك بالاناة — ودع محاولة الشغب
لابد للفرس الجموع — من الوقوف إذا تعب
واربأ بنفسك أن تقوم — أمام تيار الغضب

وقد أشار مؤرخه المصراتى أن أناشيده وقصائده الوطنية سارت فى البلاد وخارج البلاد قد حفظها الناس ومضوا يرددونها ويذكون بها نار الغضب على المستعمر .

وقد صور أعماق النفس العربية الليبية ورسم أمانيها وسجل آلامها وأنشأ الصورة فى مدى ثلاثة أرباع قرن من عمر مكافح ولم يترك ضربا من ضروب النظم دون أن يسهم فيه غير أن أغلب شعره قد ضاع وأتيح للمصراتى أن يجمعه من الأفواه بعد وفاته فى ديوان ضخم أنيق ومع ذلك فهو لا يمثل كل شعره .

أما « رفيق المهدوى » فذو جاه عريض فى الأدب اكسبته هجرته بين برقة ومصر وتركيا شهرة ودويا ولقد أتيح لنا فى مصر أن نوليه بعض الاهتمام كما وقع ذلك لإبراهيم الأسطى عمر ، وليس الغريب أن يهاجر فقد كان شعراء ليبيا فى فترة الإحتلال هم الطلائع التى تلقت الضربات وأحدقت بها الخطوب — على حد تعبير الأستاذ الصادق عفيفى ولاشك أن رفيق قد غذى الدعوة إلى الحرية

والحركة الوطنية فى البناء ودفع المجاهدين فى طريق الكفاح وحمل على المستعمر وعاش لهذه المعانى فى وطنه وخارج وطنه وزاده النفى والاغتراب هياما ببلاده فأشاد بها فى عديد من القصائد وأحب وطنه إلى درجة التقديس .

وقد أمدته طبيعته المتماسكة العربية الأصيلة بالقوة والخصوبة ، فلم يتحول ولم يستسلم ولم يمدح الاستعمار مرة واحدة ولم يتحول إلى الشعر الرمزى .

أذم فلا أخشى عقابا يصيبنى وأمدح لا أرجو بذاك ثوابا

ومن أجل ذلك تعرض للنفى والسجن مرارا وقد عاش رفيق حياة مضطربة بين الهجرة والعودة إلى وطنه منذ عام ١٩١٠ إلى عام ١٩٤٦ قضاها بين مصر وبنغازى وتركيا ثم بنغازى ومصر وتركيا مرة أخرى وقد عاش فى ظل فكرة الحرية لوطنه والحرية للأمة العربية والعالم الإسلامى جاء شعره سجلا تاريخيا كاملا لأحداث هذه الفترة .

وقد أتيح له أيضا أن يضمن شعره معانى التحرر الإجتماعى إلى جوار التحرر الوطنى غير أن الدعوة الوطنية والأمل فى الحرية إزاء مالقى وطنه من عنف المستعمر وقسوته كانت تغلب وتحتل مكان الصدارة .

أما إبراهيم الأسطى ، فقد صاغت الهجرة وصاغ الألم شاعريته وقد استطاع أن يكون نفسه ويعلمها ويصل فى الثقافة إلى القدر الذى يتيح له أن يكشف عن طبيعته الشعرية المدفونة ، نشأ فى مدينة درنه وعمل حطابا يخرج إلى البادية ثم التحق بإحدى المحاكم حاجبا ، ثم أتيح له أن يتصل بالقاضى الذى يعمل معه ويستمع إلى مجالسه وندواته ويقرأ عليه بعض الكتب ويتلقى منه مبادىء العربية والفقه .

ثم لم يلبث أن عاش محنة وطنه وشعر كيف يتخاطفون الشباب الليبى ليجندوه فى حرب الحبشة فهاجر إلى مصر وفى مصر وجد مجالا متفتحا فى ندوات الشعر والأدب ثم اشترك فى الجيش السنوسى .

الفصل الثالث

الثقافة المغربية

ثقافة عـــربية إسلامية

لم يعد المثقفون فى حاجة إلى إطالة القول حول مفهوم « الثقافة » بعد تلك الأبحاث المستفيضة التى شغلت الباحثين فى السنوات الأخيرة وانتهت إلى تلاقى وجهات النظر حول مفهوم واضح يمكن تلخيصه فى أن الثقافة قومية ووطنية بينما العلم عالمى والمعرفة عامة ، وأن لكل أمة ثقافتها التى تقوم على أسس ومقومات مستمدة من ذاتها وتاريخها ولغتها ومزاجها الخاص ، وأنه لا سبيل أن تتداخل ثقافة فى ثقافة أخرى ، وإن كان فى الامكان أن تقتبس إحداهما من الأخرى على النحو الذى يعطيها قوة وحيوية ، ودون أن يفقدها مقوماتها أو يجعلها تذوب فى الثقافة الأخرى أو تنماع . وأن النظرية التى حاولت أن تفرض نفسها بأن تقول أن الثقافة « إنسانية » وهى تريد أن تختلط ثقافات الأمم ، إنمـــا كانت تستهدف القضاء على مقومات الثقافة العربية فى مرحلة لم تكتمل بعد قوتها وقدرتها على التماسك أو التأثير فى الثقافات المختلفة .

ومن حق أن تكون الثقافة « إنسانية » بقدر ما تحمل مقوماتها من إيمان بالله والقيم العليا للعدل والحق والخير والاخاء ولكنها « أساسا » لابد أن تعتمد على أرضية من اللغة والتاريخ وجذور من المزاج النفسى والطابع الذاتى .

وإذا كانت الثقافة قومية وذاتية فإن الحضارة عالمية وعامة ، وكذلك العلم والمعرفة فهذه كلها ملك مشاع للانسانية وحق مشترك للبشرية ، ومن هنا جاء

طابعها العالمى العام ، مختلفاً عن طابع الثقافة القومى الذاتى المرتبط بالأمة واللغة والشخصية القومية .

فإذا صح هذا وهو صحيح ، استطعنا أن نقول أن الثقافة المغربية (وهو اسم مجلتنا الزاهرة الجديدة التى نرجو لها النجاح والتقدم) هى ثقافة عربية إسلامية .

ذلك أنها تستمد مقوماتها من الفكر الاسلامى والقرآن واللغة العربية ، تلك القوى التى أعطتها طابعها الاجتماعى ومزاجها النفسى .

فالخطوط العريضة للثقافة المغربية ، أنها ثقافة عقائدية تؤمن بالله وتربط بين العروبة والاسلام فى تكامل ووسطيه تمثل التقدم ، بحسبان أن الإسلام ليس دنيا فحسب ، ولكنه دين ومجتمع وحضارة .

فالثقافة المغربيسة مثاليسة وواقعية فى آن ، تقوم على الشريعة الاسلامية وتربط بين الأخلاق والسلوك . وبهذا تكون الثقافة المغربية ثقافة إسلامية . وهى فى نفس الوقت ثقافة عربية بحكم رابطتها باللغة والبيان العربى والتاريخ وذلك التراث الضخم المؤثر المشترك .

ولا ضير أن تأخذ الثقافة المغربية طابعا وطنياً فى هذه المرحلة فهذه طبيعة الأشياء ولا بد أن تستمر مرحلة الإهتمام الوطنية فترة طويلة لتؤكد هذا الطابع وتعمقه . وإن كانت حلقات الترابط العربى والإسلامى ما تزال تعمل وتنمو . وقد مرت هذه الظاهرة بالثقافة العربية فى مصر وسوريا والعراق . واستمرت سنوات طويلة . ويمكن القول أن الثقافة العربية فى العصر الحديث تمر بدوائر ثلاث : دائرة الأرض ودائرة الوطن ودائرة الفكر . وهى ليست دوائر متوالية بقدر ما هى دوائر متساندة يجرى العمل فيها فى وقت واحد .

ذلك أن الدائرة الأولى التى تنفتح عليها الشعوب بعد استقلالها هى الدائرة الوطنية التى كانت شغلها الشاغل فى مرحلة الاستعمار فهى تعمل على تأكيدها فى مرحلة التحرر والاستقلال والدائرة الوطنية ترتبط بالأرض وبالأحياء للتراث والعناية بالأبطال والأعلام فى ذلك المحيط الذى تقوم عليه الدولة . وقد عرفت الحركات الوطنية المصرية والعراقية والسورية ذلك وكانت كلها حركات مفتوحة على الآفاق العربية والاسلامية لا تستطيع أن تنفصل عنها أو تنعزل .

فهى لم تلبث بعد قليل أن تحررت من طابع الثقافة المصرية والثقافة السورية إلى مضمون أوسع هو الثقافة العربية فى مصر والثقافة العربية فى سوريا .

وهذا ما تتجه اليه « الثقافة المغربية » اليوم وبعد مضى أكثر من خمسة عشر عاماً على الاستقلال . حتى ليمكن القول أن الثقافة المغربية الآن قد دخلت أو هى وشيكة الدخول فى مرحلة « الأمة » حيث تلتقى الخطوط العريضة لأمة تجمعها لغة واحدة من الدار البيضاء إلى البصرة . ثم هى فى نفس الوقت تتحرك فى الدائرة الثالثة وهى دائرة الفكر الاسلامى الذى يمثل الخلفية الأساسية والأرضية العريضة لكل مقومات الثقافة المغربية .

ولقد كان هذا الترابط بين الدوائر الثلاث : الوطنية والقومية والفكرية (أو دوائر المغرب والعروبة والإسلام) قائما وواضحاً فى جميع أجزاء التراث المغربى الذى ظهر قبل الاستقلال . بل أن الإيمان بهذا الترابط والتكامل كان عاملا هاما وبعيد الأثر فى القضاء على مختلف محاولات الاستعمار فى فصل الجزء عن الكل : حين أقام السدود بين أجزاء المغرب نفسه ثم بين المغرب والمشرق ثم بين الأمة العربية والعالم الاسلامى : فان كل هذه السدود والحدود لم تحل دون الالتقاء وظلت الأرضية الإسلامية العربية الثابتة العميقة الأساس عاملا هاما فى كسر القيود وفى دعم الوحدة الفكرية .

فقد كانت الصيحات المدوية فى فلسطين تتردد فى مراكش والرباط ، وكانت صيحات الحرية فى الدار البيضاء تجد صداها فى القاهرة ودمشق . وقد سجل الشعر العربى هذه الصيحات ، وأكدت الأحداث دوما هذا اللقاء .

وكذلك استطاعت الثقافة المغربية: العربية الاسلامية دوما أن تقاوم كل محاولة لتمزيق وحدتها ، فقاومت محاولة النفوذ الاستعمارى فى الفصل بين العرب والبربر وأكدت أن الإسلام استطاع أن يصهر هذه الاجناس فى بوتقته ، كما كشفت الأبحاث عن أن البربر من جنس عربى خرج قلب الجزيرة العربية ، فضلا عن أن الأكثرية الساحقة من البربر تتكلم اللغة العربية ، وبها يتفاهم « السوسى » مع « الريفى » والشلح مع القبائلى ، يضاف إلى هذا أن البربر يحرصون على تعلم العربية لكونها لغة دينهم وثقافتهم ولكونها اللغة العلمية القومية الوحيدة التى تساعد على تطورهم الفكرى بينما لا تفى لهجاتهم البربرية بأكثر من معنى التخاطب .

كما استطاعت الثقافة المغربية (ذات الجذور العربية الإسلامية) أن تقف حائلا دون التيارات الأجنبية الغازية ، التى كادت تجرف المغرب وتسلخه من عروبته وإسلامه ، فأحيت الجانب العربى فى الشخصية المغربية وطهرت الاسلام من الخرافات التى كانت تتسرب من خلالها مطامع الاستعمار :

ولابد ان يذكر هنا أثر الحركة السلفية الباهرة التى استمدت جذورها من دعوة جمال الدين ومحمد عبده وحركة التوحيد فى قلب الجزيرة العربية ، هذه الحركة التقدمية التى كانت الحركة الوطنية وليدتها ونتاجها ، وعن طريقها قاوم المغرب الكبير ثلاث حركات كبرى : هى حركة التجنيس فى تونس وحركة الإدماج فى الجزائر وحركة الفصل بين البربر والعرب (الظهير البربرى) فى المغرب .

بل إن الطابع العربى الإسلامى الأصيل للثقافة المغربية هو الذى أمد المغاربة بالصمود فى وجه الاستعمار .

فقد كان قوام حركة الأمير عبد الكريم الخطابى ٧٥ألف مراكشى منهم ٢٠ألف مسلح فى مواجهة ٣٢٥ألف محارب فرنسى ، بينهم عشرون جنرالا فضلا عن مائة ألف محارب من الأسبان .

وقد قاوم المغرب ولم يستسلم حتى شهد أعداؤه بصموده فقال القائد الفرنسى جيوم « لم تأت إلينا أى قبيلة دون قتال مرير ، وماخضعت لنا قبيلة قبل أن استنفذت آخر وسائل المقاومة » .

ولقد أخذت الثقافة المغربية منذ الاستقلال تعمل فى همة وقوة فقدم رجالها عشرات الأبحاث فى مجال التاريخ والأدب والفقه واللغة ولمعت أسماء كثيرة فى فى هذا المجال على رأسها علال الفاسى وعبد الله كنون وعبد المجيد بن جلون وعبد الكريم غلاب ومحمد الفاسى وعبد العزيز بنعبد الله وعبد السلام الهراس ومحمد بنعبد الله ومحمد بن تاويت والمختار السوسى والحسن السائح وعبد القادر الصحراوى ومحمد الحليوى والعلامة إبراهيم الكتانى . وعشرات غيرهم أعجز عن حصرهم واعتذر .

وقد كشف هؤلاء الباحثين عن دور المغرب فى التاريخ العربى والإسلامى ورسموا صورا باهرة لماضى مؤثل ، كان من أبرز صفحاته جهاد المرابطين والموحدين والدور الذى قام به المغرب فى استعادة مجد الأندلس وتحريره مرتين من قوى الفرنجة وبروز أعلامه أمثال يوسف تاشفين ومحمد بن تومرت وأبو شعيب الدكالى ومحمد بن جنون والعربى العلوى .

وكان فى مقدمة هذه الأبحاث « موسوعة النبوغ المغربى » التى قدمها العلامة عبد الله كنون .

ولقد كان المغرب فى خلال التاريخ الوسيط حفيظا على التراث العربى الإسلامى

فى هذا الجزء الخطير من العالم الإسلامى والأمة العربية ، على أبواب أوربا والغرب ، حفاظا ظاهرا فى الفقه واللغة وميراث الأندلس فى الفكر والفن ، وكان المغرب قادرا على الحفاظ على كيانه إزاء النفوذ الأجنبى الثقافى الضاغط ، فبالرغم من الغزو الثقافى الغربى الذى استمر من (١٩١٢ إلى ١٩٥٤) فقد ظلت اللغة حية والفكر الإسلامى قائما ، وماتزال جامعة القرويين منارا خرج الأعلام والمجاهدين والأبرار الذين حملوا رايات « الجهاد » فى ميادين المقاومة ورايات « الاجتهاد » فى ميادين الفكر ومايزال دوره موضع تقدير الباحثين إلى جوار الأزهر الشريف والزيتونة .

ولقد أتيح لى أن أدرس جوانب عديدة من تاريخ المغرب وثقافته ولا ادعى القدرة على الإحاطة حين وضعت دراستى (الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا) ولكنى مازلت أرجو وقد فتحت لى مجلة الثقافة المغربية الباب أن أواصل هذه الدراسة وأقدم فيها الجديد وعذرى فى التقصير بعد المزار وهو قريب ، وعسى أن تتاح الفرصة لدراسة واسعة شاملة يقوم بها المشرق إلى المغرب ومن قبل كان المغرب قد أقام تلك السفارات العظيمة الضخمة حين قدم العشرات من الأعلام ميممين نحو الحجاز والقاهرة والشام ، واليوم يحق لنا أن نرد الزيارة .

وما تزال الثقافة المغربية (العربية الإسلامية) مسئولة عن أن توصل القيم الأساسية وأن تعمق رابطة الفكر بالإسلام ورابطة اللغة بالعربية ، وأن تحفظ ذلك الترابط الوثيق بين العروبة والإسلام وتلك الوحدة الأكيدة بين العرب والبربر .

وماتزال الثقافة العربية بعامة والفكر الإسلامى مفتوحا أمام الثقافات الغربية والأجنبية يأخذ منها ويعطى ولكنه يجب أن يظل قادرا على أن يرفض أيضا

مالا يتفق مع كيانه ومزاجه وقيمه الأساسية وأن يعلي من شأن هذه القيم حتى تكون «الأرضية» الحقيقة التي يبنى عليها» و «الخلفية» الطبيعية لكل اقتباس أو ترجمة أو نقل ، فقد كانت ثقافتنا العربية وفكرنا الإسلامي دوما ، وعلى طول التاريخ الطويل قادرا على الأخذ والعطاء ، ولكنه كان حفيا بالحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية وعلى الذاتية وعلى المزاج النفسي والطابع الخاص المستمد من القرآن والإسلام واللغة العربية ليس بحسبانها لغة أمة ولغة فكر فاللغة والفكر شيء واحد كما يقول (ماكس مولار) وهو يشبهها بقطعة النقد ويقول أن ما نسميه بالفكر ليس إلا وجها من وجهي النقد والوجه الآخر هو الصوت المسموع .

وتلك هي مهمة الثقافة أساسا وهي أيضا مهمة « الثقافة المغربية » الزاهرة -

الفصل الرابع

التراث العربي الاسلامى

أبعاده التاريخية وأثره فى فكر الانسان

لا يمكن تصور أهمية التراث العربي وعظمته إلا حين يستطيع الباحث المنصف أن يضع بين يدى القارىء العربى أبعاد هذا التراث : أبعاده الجغرافية والتاريخية والفكرية .

أما الأبعاد الجغرافية فيمكن تصور العالم الإسلامى من حدود الصين إلى حدود فرنسا وهو حافل بالمكتبات وخزائن الكتب فى كل عاصمة من هذه العواصم . فقد كان فى كل جامع كبير مكتبة حافلة حيث اعتاد العلماء إيقاف كتبهم على المساجد ، بل إن المسلمين لم يكتفوا بما ألفوا باللغة العربية بل إنهم سعوا كل السعى فى سبيل الحصول على كتب الفرس والرومان والإغريق حتى نقل المأمون إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب من بيزنطية وحتى أنه جعل ذلك عقد الصلح بينه وبين ملوك الروم الشرقيين بأن يعطيه احدى مكتبات القسطنطينية التى كان بها من الذخائر الثمينة كتاب بطليموس فى الرياضيات .

ويحفظ التاريخ هذه الأبعاد التاريخية فى خزائن كتب بغداد وبيت الحكمة فيها ، ومكتبات مكة والمدينة والقاهرة وفاس وقرطبة ومرو واستانبول .

وقد عرفت مكتبة العزيز بالله الفاطمى فى القاهرة والزهراء بقرطبة . وكان أهل الأندلس والمغرب يرسلون فى طلب كتب المشرق ، وكان الحكم صاحب الأندلس يشترى الكتب التى تظهر فى المشرق عند ظهورها ،أما فى مصر فكانت

للخليفة العزيز بالله خزانة أوصل الراصدون عدد ما بها إلى مليون وستمائة ألف ، وبلغت مكتبة قرطبة اربعمائة ألف مجلد كما أشار إلى ذلك صاحب نفح الطيب ، وقيل إنه كان فى مكتبة نوح بن منصور سلطان بخارى محل اربعمائة جمل من الكتب .

أما مكتبة الواقدى فذكروا أن بها ستمائة صندوق ، وكان فى مكتبة طرابلس الشام ثلاثة ملايين من الكتب تحت عناية قضاة آل عمار . وكان لآل عمار فى هذه الخزانة مائة ألف ناسخ تجرى عليهم الارزاق سنوياً وكان فى الأندلس ٧٠ مكتبة .

وقد أشار المؤرخون إلى أن كتاب العين للخليل بن أحمد ذكر عند الخليفة العزيز بالله وأمر بإخراج ماعنده فوجد نيفاً وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل بن احمد ، وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى فاشتراها بمائة دينار ، وروى أن مكتبة القاهرة كانت تشتمل فى القرن الخامس الاسلامى على كرتين فلكيتين ، ومن كتب الرياضة وعلم الفلك ستة آلاف كتاب .

والمعروف أن ورق الكتابة دخل العالم الاسلامى فىالقرن الثانى الهجرى من الصين عن طريق سمرقند . وفى أوائل القرن الثالث شاهدت بغداد أول معمل للورق ثم نشأت تدريجياً معامل أخرى،فى مصر ومراكش وأسبانيا ثم ظهرت ضروب مختلفة من الورق منها الأبيض والملون،ووصلت صناعة الورق عن طريق العرب إلى أوربا فى القرن السادس الهجرى عن طريق الأندلس وإيطاليا .

وقد ضاع جانب من هذا التراث بين التحريق وبين النقل إلى أوربا ، وفى مكتبة الاسكوريال ٦٠٠ ألف مجلد منها ٥٠٠ ألف مطبوعة والباقى من نوادر المخطوطات ، العربية واللاتينية واليونانية والعبرية ، وقد نقلت إليها مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش عام ١٦١٤ م وقوامها ثلاثة آلاف مجلد ثم

شبت النار فى الاسكوريال فى ٧ يونيو سنة ١٦٧٤ م حيث سقطت صاعقة على المكتبة . فأحرقت منها خمسة آلاف مجلد . وتبلغ فهارس المخطوطات العربية فى مكتبة برلين وحدها حتى عام ١٩٣٠ م عشر مجلدات ضخمة ، وأهدى أحد طلاب جامعة برنستون إليها مكتبته الخاصة فوجد بها ستة آلاف مخطوط عربى. وتوجد كتب التراث العربى الاسلامى بأعداد ضخمة فى مكتبات (الأمبروزيانا) فى ميلانو ، والناسيونال فى باريس والمتحف البريطانى لندن ، (وبالاضافة إلى الاسكوريال) هناك مكتبات فينا وبرلين ولندن وموسكو . وقد ذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أنه شاهد فى مكتبة الفاتيكان نحو خمسة آلاف مخطوط عربى نادر بالاضافة إلى المؤلفات العربية ، ويمكن تقدير هذه الثروة حين نعلم أنه وصل إلينا ثلاثون ألف كتاب فى حين أن بعض المؤلفين بلغت تصانيفهم بضعة مئات ، وقد تنبه الباحثون العرب والمسلمون إلى قيمة البقية الباقية من هذه المخطوطات المذخورة فى القصور (وبدرومات) البيوت القديمة بعد منتصف القرن التاسع عشر ، فعمل أحمد زكى ، الملقب بشيخ العروبة ، وأحمد تيمور والأب انستاس الكرملى وطاهر الجزائرى والآلوسى ، وغيرهم على جمع هذه المخطوطات وطبعها . ويذكر بالفضل الأحمدان (زكى وتيمور) فى بعثاتهم المشهورة إلى مكتبات أوربا لتصوير المخطوطات بالفوتوغرافيا ، وقد استطاع أحمد زكى أن يحصل على أكثر من ستة آلاف مخطوط ،وجمع ١٨٧٠٠ مجلد كما جمع تيمور باشا ١٢٠٠٠ مجلد ، ويقول زكى باشا إن كل من ذهب إلى باريس واطلع على فهرس دار الكتب الأهلية فيها يأخذه العجب العجاب ان لم تساوره الأشجان والأحزان فلقد أصبحنا أن احتجنا إلى شىء من المؤلفات العربية لا نرى منها شيئا فى بلادنا ولا بد من الرحلة والتغرب لنطلبها من بلاد الغرب .

هذا عن البعد الجغرافى والتاريخى للتراث ، أما البعد الفكرى فهو جد خطير ويكفى أن أشير إلى أن هذا التراث قد استوعب أكثر من ثلاثين فناً .

منها التفسير والحديث والعقائد والأصول والفقة واللغة والصرف والنحو والبلاغة والعروض والأدب والموسيقى والتاريخ والتراجم والبلدان وسياسة الدول والفروسية والفنون الحربية والصيد وتربية الخيل والبزاة والطب والصناعة والحيل وجر الأثقال وصناعة الخط والزراعة والطبيعيات والرياضيات والفلاحـــة .

هذا بالإضافة إلى موسوعات جوامع العلوم وبدائع الفوائد والمأوى للفتاوى وأقاليم التعاليم .

وإذا أردنا أن نقدر مدى أهمية التراث العربى الإسلامى فلنلق نظرة على كتابين أو ثلاثة من كتبنا الجامعة ، لننظر مثلا إلى (الفهرست لابن النديم) الذى يضم احصاء شاملا فى عصره للعلوم العربية والإسلامية على النحو الآتى :

١ — وصف لغات الأمم من العرب والعجم ، وأسماء كتب الشرائع المنزلة على مذهب المسلمين ونعت « الكتاب » الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأسماء كتب علومه .

٢ — دراسات عن النحويين واللغويين .

٣ — الأخبار والآداب والسير والأنساب .

٤ — الشعر والشعراء .

٥ — الكلام والمتكلمون .

٦ — فنون الفقة والفقهاء المحدثين .

٧ — الفلسفة والعلوم القديمة .

٨ — الأسماء والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة .

٩ — فى المذاهب والاعتقادات .

١٠ — أخبار الكيميائيين والصعوبيين الفلاسفة القدماء والمحدثين .

ويقول ابن النديم فى مقدمته : هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة .

فإذا راجعت (كشاف اصطلاحات الفنون) للشيخ المولوى محمد التهانوى وجدت موسوعة ضخمة ضمت أكثر من ألفى مادة من مواد الاصطلاحات التى تنظم الثقافة العربية وقد عرف بها تعريفاً نافعاً شاملا .

(أما مفتاح السعادة) لطاشكبرى زاده فقد جمع فيه ستة عشر وثلاثمائة علم لكل علم أبواب وفصول ، هذه العلوم التى تزيد عن الثلاثمائة هى علوم عربية إسلامية كتب فيها المسلمون والعرب وقدموا فيها إضافات هامة .

فإذا نظرت فى (كشف الظنون) لحاجى خليفة وجدت موسوعة تصنف ستة عشر ألف كتاب هى التى رآها المؤلف فى عصره ووقف عليها بنفسه ، وأستطيع أن أقدم لك هذه العلوم التى عرض لها كنموذج :

علم الأحاجى والأغلوطات فى فروع اللغة والصرف والنحو ، علم الأخلاق ، علم آداب البحث (المناظرة) علم الآداب ، علم الأدعية والأوراد ، علم الأرتماطيقى ، علم أسباب النزول فى فروع علم التفسير ، علم الإستعانة بخواص الأدوية ، علم سقيطان المعادن والمياه ، علم إسطرلاب ، وعلم أسماء الرجال ، علم الاشتقاق ،

علم أصول الفقة ، علم الأطعمة ، علم أقسام القرآن ، علم الآلات الحربية ، علم الآلات الرصيدية ، علم آلات الساعة ، علم الألغاز ، علم الأمثال ، علم إملاء الخط علم انبساط المياه . . الخ .

وانى اذكر هذا واتوسع فيه لأعطى صورة سريعة موجزة لعمق التراث وعظمته وأبعاده ، حيث يقف الكثيرون اليوم فيتحدثون عنه فى استهانة تحت اسم « الكتب الصفراء » .

فإذا أردنا أن نتحدث عن أثر هذا التراث العربى الاسلامى فى الفكر الانسانى عامة والحضارة البشرية ، فإن الأمر يحتاج إلى جهد كبير ويكتفى أن نشير إلى أن الأبحاث العلمية التى هدى إليها المنصفون قد قررت بما لا يدع مجالا للشك أن العرب والمسلمين قدموا للانسانية :

* المذهب العلمى التجريبى فى العلوم .
* والمذهب الإنسانى الجامع للمعرفة .

وأن العلامة الخوارزمى هو واضع أصول علم الجبر الحديث . وأن العلامة (التبانى) هو واضع اسماء النجوم العالمية التى تكتب اليوم بمختلف اللغات . وإلى الخوارزمى أيضاً ينسب علم الرياضيات . المعروف باسم اللوغاريتمات وأن العلامة الزرقانى هو الذى اخترع (الأسطرلاب) الذى أصبح منطلقا إلى علوم الفلك ، أما البيرونى فقد ألف (القانون) المسعودى فى الهيئة والنجوم حتى قال العلامة (سخاو) : (إن البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ) أما ابن الهيثم فهو صاحب علم الضوء ، وكتابه (المناظر) هو عماد هذا العلم .

ولم يقف دور العرب والمسلمين عند علم الفلك بل تعدوه إلى الطب والكيمياء والميكانيكا والرياضيات والجغرافيا والعلوم الطبيعية .

وإذا ذكر الوصول إلى القمر اليوم كان من الحق أن يقال أن هذا عمل بدأه العرب والمسلمون وفتحوا الطريق أمامه .

ويذكر فضل العرب على الملاحة والبحار . والبحارة العرب تراث ضخم ، فى مقدمة كتابات أحمد بن ماجد أسد البحر الهائج ولهم أثرهم فى الموسيقى .

وما تزال قواميس اللغات الاوروبية تمج بالكلمات العربية فى مختلف الميادين والاستعمالات اليومية : وفى مجال الأطعمة والألبسة والعقاقير ، ولهم أثرهم على فنون الزراعة وأساليب الري ونقل البقول والزهور إلى أوربا . ولهم دورهم فى الاستحمام والتطيب بالعطور ، وشهد لهم المؤرخون المنصفون بقدرتهم القائمة فى استحضار كثير من المركبات والغوامض التى تقوم عليها الصناعة الحديثة ، فقد استحضروا مركبات الصابون والورق والحرير والمفرقعات والأصبغة .

والعرب والمسلمون هم أول من نقل القمح الأسمر إلى أوربا وهو الان أهم محاصيل فرنسا ، وقد حملوا فسائل النخيل من أسبانيا وأفريقيا إلى شواطىء الريفييرا ، ومن أثارهم فى الصناعة استخراج القطران الذى يطلى بة قاع السفينة ويحميها من العطب ، وعرف فضل العرب فى تحسين نسل الخيل ، وأن الخيول الاصيلة فى أوربا حتى الان هى من سلالة الخيول العربية التى أحضرها الفرسان المسلمون إلى تلك الانحاء .

هذا وقد صحح تراث العرب الاسلامى كثيراً من نظريات اليونان التى كانت تعتبر فى أوربا مقدسة بفضل العلماء العرب المسلمين ، فقد أصلحوا نظام

بطليموس فى الفلك ونقض جابر بن حيان والجاحظ الكثير من مسلمات أرسطو .

والحق أن أثر العرب والمسلمين وتراثهم على الحضارة الانسانية لم يعد منكوراً بعد أن كشفت الأبحاث العلمية المنصفة فى العصر الحديث عن جوانب كثيرة ظلت خافية وقتاً طويلا .

ولكن بقى علينا نحن العرب والمسلمين أن نعرف أبعاد تراثنا وأهميته وأن ننظر إليـــه فى تقدير وأن نعنى ببعثه وتجديده .

* * *

الفصل الخامس

خطر جديد فى وجه العربية الفصحى لغة القرآن

مشروع العربية الاساسية

ماتزال اللغة العربية وستظل « هدفاً » من أخطر الأهداف التى تتوجه إليها حركة التغريب والغزو الثقافى ، بقصد الإدالة منها والتأثير فيها . فقد بدأت حملات التبشير فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى تتخفى وراء الثقافة والتعليم ، ومازالت محاولات الهجوم على الإسلام والقرآن وراء اللغة العربية الفصحى .

واللغة العربية هى من الطبيعى لغة الأمة العربية ، ولكنها إلى ذلك لغة الثقافة والفكر ، لسبعمائة مليون من المسلمين . فالمسلمون مشاركون فيها مشاركة لا تعطى العرب حق التصرف فيها ، فضلا عن أن تعطى أى قطر من الأقطار هذا الحق . لقد ارتبطت اللغة العربية بالقرآن الكريم فأصبحت لها خاصيتان :

إنها لغة أمة : هى الأمة العربية ، وإنها لغة المسلمين ثقافة وفكراً وعقيدة وعبادة . ولقد حماها ارتباطها بالقرآن من أن تتحول لهجاتها إلى لغات مستقلة . وحال بينها وبين أن يقرأ تراثها عن طريق القاموس .

وسيظل الترابط بين المسلمين ولغة الضاد قائماً مادام القرآن الكريم . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

* إن اللغات الأوربية حين انسحبت من اللغة اللاتينية إلى اللهجات القومية فأصبحت لغات خاصة ، كان من أثر ذلك أن انقطعت هذه الأمم عن تراثها القديم .

وقد أصبح من شأن اللغات الأوربية أن تتطور وتتطور ، وهي في كل فترة تنتقل من اللغة المكتوبة إلى لغة الكلام ، فتصبح اللهجة لغة . ومن ثم فإن أوربا تقرأ شكسبير الآن بواسطة قاموس ، وليس بينها وبينه أكثر من أربعمائة عام ، بينما يقرأ العرب والمسلمون (امرؤ القيس) بدون واسطة ، ويفهمونه كأنما هو قريب لهم ، بينهم وبينه أكثر من ألف وخمسمائة عام ولو أن إنساناً عربياً في أي عصر من العصور بعث الآن لتحدث إلينا ولفهم منا .

• ومن هنا فإن علم اللغات الحديث الذي يشيد به بعض دعاة التغريب يفشل فشلا ذريعاً عند تطبيقه على اللغة العربية ، لأنه يجهل تلك الخاصة العجيبة التي تقسم بها الفصحى ، وتختلف بها عن جميع لغات الأرض . فهو علم قامت عليه مستخلصاته على أساس دراسة واسعة للغات الأوروبية . وهذه اللغات لها تاريخ وتحديات وطريق ، أما تاريخها فإنها مشتقة من اللغة اللاتينية ولغات أخرى . وقد كانت في أول أمرها لهجات عامية ، ثم استقلت بنفسها تحت تأثير عوامل كثيرة . أما التحديات فإن ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات القومية الأوربية أحدث ذلك التمزق الذي ليس له شبيه في اللغة العربية التي مازالت تعتبر القرآن العربي هو أداة عبادتها وثقافتها . فإن ترجمت المعاني ظل القرآن هو القرآن .

• كذلك فإن محاولة القول بأن اللغة العربية لغتنا ونحن أصحابها ، ولنا حق التصرف فيها إلى غير ذلك مما تردده ببغاوات التغريب فهو قول قد يكون صحيحا بالنسبة لعلم اللغات ، ولكنه ليس صحيحا بالنسبة للغة العربية التي أعطاها القرآن أبعاداً تختلف ، وواقعا يتعارض .

• كذلك فإن محاولة فصل اللغة العربية الفصحى عن لغة الكلام بإعلاء اللهجات أو الدعوة إلى خلق لغة وسطى أو لغة الصحافة . كل هذا له محاذيره . ربما تراه النظرة المتعمقة الفاحصة تكشف مدى خطورته وأبرز هذه الأخطاء الانفصال عن مستوى « بيان القرآن » وهو أمر من الضروري أن تظل اللغة العربية محتفظة به ، قريبة منه ، فإذا انعزلت عن بيان القرآن كان ذلك نذير

الخطر ، وكان مقدمة لانقطاع الصلة بين الأسلوب العربي الأصيل وبين القرآن .

أقول هذا كله لأؤكد أن حلقات المؤامرة على اللغة العربية ماتزال متصلة منذ دعا الداعي إلى العامية وإلى الحروف اللاتينية ، وإلى هذه الدعوات المتعددة التي لاتتوقف .

● مشروع العربية الأساسيه ●

واليوم تواجهنا مؤامرة جديدة يجب أن يتنبه لها المسلمون والعرب لأنها من نوع أشد خطراً وتتطلب مدافعة قوية .. وعلى رؤساء مجامع اللغة العربية في مصر ودمشق أن يواجهوا الأمر في قوة وحزم : ذلك هو مشروع العربية الأساسية الذي أعلن في بيروت في حزيران سنة ١٩٧٣ م وترددت أصداؤه في عواصم عربية كثيرة ، ووقف منه مؤتمر اللغة العربية في القاهرة موقف الصمت . وقد كشف الدكتور عمر فروخ أخطار هذا المشروع ، وتحرك الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر فأعلن أنه من المخططات الخطيرة التي تتصل بالغزو الفكري ، وألقى على المفكرين المسلمين والعرب مواجهته في صراحة وقوة ، ذلك لأنه في مجموعة إنما يستهدف تغليب اللغة العامية على أسلوب التعليم والصحافة تحت عنوان تسهيل اللغة والاهتمام بالكلمات التي تدور على الألسنة . وقد أشار الدكتور عمر فروخ إلى تنبيه أفكار العاملين في اللغة العربية إلى الأخطار التي ينطوي عليها هذا المشروع في الجانب المنوى تطبيقه ، ذلك أنه — وقد اشترك في المؤتمر — قد لاحظ خلال الجلسات الرسمية ، وفي الفترات المتعددة بين الجلسات جرت بحوث واقتراحات وملاحظات — يقول : «جعلتني أتوجس خيفة شديدة من المشروع» وعنده أن الاهتمام الأول بالمشروع في جانبه العلمي منصب على اللغة العامية وحدها . لقد قال أحدهم : « نحن الآن لاتهمنا التراكيب في اللغة العربية الفصحى المهم عندنا الآن اللغة الحالية » .

ويقول الدكتور عمر فروخ «أن كل مادار في «مؤتمر برمانا» كان يولد في شعوراً

بأن الغاية الأولى والأخيرة فى المؤتمر كانت الاهتمام باللغة العامية . ولم يكن الكلام على اللغة الفصحى إلا بالمعنى القائم على أن اللغة الفصحى هى اللغة القديمة ، يتعلمها التلميذ الفرنسى والتلميذ الإنكليزى مثلا ، اللغة اللاتينية أو اللغة اليونانية .. « أما اللغة الحالية فيما كتبوا وماقالوا » اللغة الحديثة لغة الطفل فى البيت وفى حضن أمة (والتعبير لهم) فهى اللغة العامية » .

٭ يقول الدكتور فروخ «حضر المؤتمر عدد قليل من اللبنانيين ونفر من العرب غير اللبنانيين وكثير من الأجانب استرعى نظرى أن جلهم من الرهبان اليسوعيين » هذه كلها علامات ونقاط على الحروف لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وبعد: فإننا نعرف مثل هذه المخططات، ونعرف هدفها ولكننا ندعو إلى المسارعة فى شجبها وتفويت أهدافها، وتحرير العرب من أخطارها ، وليعلم المجمعيون أنهم فى موقف خطير وتحد كبير، وعليهم أن يثبتوا أنهم مع لغة القرآن لا عليها . ومع الفصحى لا مع العامية ، وسوف يكتب التاريخ لهم ويسجل عليهم ويدفعهم بصفحة يعرفها الخلف بعد السلف . نرجو أن تكون أكثر نصاعة وإيماناً بالعربية مما كتب للسابقين ، وليخرس الله ألسنة دعاة التغريب ، وليحطم أقلامهم .

الفصل السادس

الرؤيا

وتعبير الرؤيا فى الأدب الإسلامى

تقول العرب « الرؤيا » : تعبير عما يراه الإنسان فى نومه ، وما درجنا على تسميته بالحلم وقد كانت الأحلام وتفسيرها مما عنى به الإنسان على مدى الأزمان ، وكان لها قبل الإسلام مفهوم مستمد مما ورثته البشرية مما كان مختلفا باختلاف الأمم . فلما جاء الإسلام وتحت إشارة القرآن للرؤيا فى عديد من المواضع نشأ فى الفكر الإسلامى مفهوم واضح ونظرية لها أبعاد شغل بها الباحثون والأدباء والمفكرون شغلا عظيما ، وفيما عدا ما أورده الفخر الرازى والزمخشرى فى تفسيريهما عن مفهوم الرؤيا .فإننا نجد عددا كبيراً من الدراسات التى تناولت الرؤيا وعلاقة الرؤيا بالنبوة وعلاقتها بالولاية وآداب الرؤيا وتعبير الرؤيا،

وقد تقاسم الباحثون هذه القضايا فى مجالاتهم المختلفة : مشرعين وفلاسفة وصوفيه وأدباء . وأبرز هؤلاء الباحثين هم :

الفارابى فى كتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة .

الغزالى فى كتابه : « مقاصد الفلاسفة » — وفى كتابه « الإحياء » — وفى كتابه « كيمياء السعادة » .

أبو حيان التوحيدى : فى كتابه « المقابسات » .

ابن سينا : فى كتابه : « إثبات النبوات » .

الايجى : فى كتابه : « جواهر الكلام » .

النابلسى : فى كتابه : « تعطير الأنام » .

إخوان الصفا : فى رسائل إخوان الصفا .

ابن رشد : فى كتابه « الحاس والمحسوس » .

ابن عربى : فى كتابه « فصوص الحكم » .

التهانونى : فى كتابه « كشاف الاصطلاحات »

ابن خلدون : فى كتابه « مقدمة ابن خلدون » .

السالمى : فى كتابه « الإشارة إلى علم العبارة » .

طاشكبرى زاده : فى كتابه « مفتاح السعادة » .

القنوجى : فى كتابه : « أبجد العلوم » .

ابن سيرين فى كتابه « منتخب الكلام » .

وقد تناول الأدباء والفلاسفة هذه المادة الخاصة بالرؤيا والأحلام بتوسع كبير ، وربطوها بالقرآن الكريم الذى أورد مادة الرؤيا فى سبع مرات أو سبع رؤى : فى يوسف أربع منها . والخامسة وقعت لإبراهيم . واثنان للرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد فسر الفخر الرازى الآية « الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » بأنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له . وتقسم هذه الدراسات (أدبية وفقهية وصوفية وفلسفية) الأحلام إلى مصادر ثلاثة : منها ماهو من الله سبحانه وتعالى وهى الرؤيا الصالحة . ومنها ما هى من الشيطان وهى الرؤيا الباطلة . ومنها ما هو أضغاث أحلام وهى : حديث النفس

● الرؤيا الصالحة ●

هى الرؤيا التى يشرف فيها النائم على المستقبل واعتبرت جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

يقول الغزالى : الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة . وبينها وبين النبوة مرئية واضحة المعالم ، ويرى ابن خلدون والغزالى أن الرؤيا الصادقة هى البشرية جميعا ، ويقول ابن سيرين أن الرؤيا من الله أساساً . ثم يضيف الباطل من الرؤيا إلى الشيطان باعتباره الداعى إليها والموعز بها ، ويكاد الإجماع ينعقد بين علماء السنة على أن الرؤيا الصادقة هى من وحى الله ، وهى بشرى منه سبحانه كنحو ما يحذر الله الإنسان فى منامه من الشر ويرغبه فى الخير .

● الرؤيا الباطلة ●

أما الرؤيا الباطلة فهى من الشيطان أو وسوسة النفس حيث يرى فيهـا الإنسان ما يهواه أو يتمثل فيها له ما يخفيه فى يقظته على حد تعبير النابلسى أو هى من أثر الطبائع والأمزجة كما يقول ابن سيرين : والأضغاث هى المنامات التى لا أصل لها كما يقول الغزالى ، والتى ترتد إلى حركة القوة المتخيلة وشدة اضطرابها .

● مفهوم متكامل ●

وهكذا يختلف المفهوم الإسلامى للرؤيا عن المفهوم الذى عرفه الفكر البشرى القديم ، وخاصة الفكر الهلينى الذى يقصر الرؤيا على وسوسة النفس وحدها . وهو ما قال به علماء النفس المحدثون وفى مقدمتهم فرويد ، أما المسلمون فقد قدموا مفهوما جامعا شاملا للعناصر المختلفة ، وفى مقدمتها الرؤيا الصادقة التى تعد إسلامية المصدر ، كما عبر عن ذلك الدكتور توفيق الطويل فى بحوثه المتعددة فى كتابه : الأحلام — والتنبؤ بالغيب . حيث قال : أنها لم تكن معروفة فى التراث الهلينى ، وقد اعتبرها المسلمون شاهداً على وجود النفس وطريقا إلى كشف الغيب ونمطا للولاية ، ذلك أن الإسلام يقوم أساسا على الوحى الإلهى والإيمان بعالم الغيب ، وقد قرر القرآن وجود النفس واستقلالها عن البدن ، وهيمنتها على

الجسم ، إذ بغير هذا لا تستقيم أموره من بعث وحساب ونحوه ، ولذلك دعا الإسلام إلى التزام الأخلاق الحميدة، والبعد عن الشهوات ولم يغفل مطالب الجسم والدنيا معاً (١)

ويورد التهانونى فى كتابه : كشاف اصطلاحات الفنون : مفهوم الإسلام فى الأحلام فيقول : صدق الرؤيا معزو إلى الله سبحانه وتعالى القادر على كل شىء ، فهو يخلق فى قلب النائم ، أو فى حواسه الأشياء كما يخلقها فى اليقظان ، وهو سبحانه يفعل ما يشاء فلا يمنعه من ذلك نوم ولا غيره . ولذلك فإن القول بأن الأحلام فى استجابة لمؤثرات حسية أو نفسية مما قال به (أرسطو) وجدده (فرويد) على أنه حكم عام هو مفهوم ناقص لأنه ينطلق أساساً من المفهوم المادى الذى ينكر النفس فقد استبعد الهلينيون عامل ما فوق الطبيعة وقصروا أنفسهم على الرغبات والميول والغرائز والنزعات العاطفية ، وكان مرد هذا القصور هو انشطار النظرة وتوقفها عند حدود الجانب المادى وحده .

تأويل الرؤيا

عرف المسلمون علم تعبير الرؤيا وهناك ثلاثة مؤلفات هامة فى هـذا المجال هى :

تعطير الأنام فى تعبير المنام : عبد الغنى النابلسى

منتخب الكلام فى تفسير الأحلام : محمد بن سيرين .

الإشارات فى علم العبارات : ابن شاهين الطاهر .

---

(١) الأحلام : الدكتور توفيق الطويل

وتبدأ هذه البحوث من القول بأن الإنسان الحساس هو غير هذا الجسم، وأنه يخرج من البدن فى حالة النوم، فيشاهد هذا العالم، وهذا قول المسعودى.

أما ابن سيرين فيقول: إن الرؤيا تقع للمرء وهو نائم ذاهل العقل والحس معاً. إذا غاب العقل والحس بالنوم فإن النفس تكون يقظة متنبهة تقوى على التعقل والفهم ذلك أن روح النائم تسرح فى الدنيا وتمتد منبسطة خارج الجسد. وإن لبث جزء منها على اتصال به فتدرك فى النوم مكنونات الغيب المحجب.

ويقول ابن غنام إن الروح ترحل عن الجسد إلى عالم الغيب فإن تيقظ النائم فجأة قبل أن تعود من رحلتها أدركه الجنون. وقيل إن الارواح تصعد إلى السماء.

ويرى البعض أن الرؤيا باب من أبواب الولاية والكرامة فيرى صاحبها من الامور مايقع فى اليقظة بعد ذلك. وهذا هو مفهوم السنة الجامع الذى يختلف عن مفهوم الصوفية المتأثرين بمذهب وحدة الوجود، والذين يفسرون الرؤيا فى ضوء نظريتهم عن فناء الذات (السهروردى وابن عربى) ويختلف عن مفهوم الفلاسفة (الفارابى وابن سينا) القائم على متابعة اليونانيين فيما يسمى بالعقل الفعال.

ويقرر ابن خلدون فى المقدمة أن أضغاث الاحلام لاتقبل تأويلا، وأن الرؤيا الصادقة لها تعبير ولتعبيرها قوانين عامة. والتعبير يتطلب أمرين: معرفة المناسبات بين الصور ومعانيها، ومعرفة مراتب النفوس التى تظهر الصور فى خيالهم، ومن أجل هذا يختلف التأويل فى الحادثة الواحدة بين رجلين وبين زمنين. وتحوى كتب التعبير جداول تضم أسماء الاشياء التى تظهر فى الاحلام والمعانى التى يعنيها كل منها. ولكن هناك تحفظا هو أن الرمز الواحد قد يحمل معانى تختلف باختلاف الامم والافراد وتختلف فى الفرد الواحد عن الآخر باختلاف أحواله وسلوكه، وإن كان هناك قدر مشترك بين الناس جميعاً فى كل زمان ومكان.

ومن أجل أن تصدق الرؤيا يشترط أن ينام المرء على طهارة، ويستحب الوضوء قبل النوم ، لأن النفس أن لم تكن طاهرة لم تتمكن من التحليق فى الآفاق ، وعلى المسلم ألا ينام إلا على نقاء قلب وصفاء سريرة . ولا يكون ملء البطن . كذلك لا ينام على جوع أو ظمأ كما يرى المؤولون لشؤيا أنه من المستحب للمؤمن أن ينام على جنبه الأيمن . . أما النوم على البطن فإنه يؤدى إلى أضغاث أحلام ، ويشترط ألا يكذب الإنسان فى رواية الرؤيا ، وأنه إذا رأى المؤمن فى منامه مايضره يقول : أعوذ بالله من شر ما رأيت .

ويرى ابن خلدون أن يتأثر المرء بما يفكر فيه قبل نومه . يقول. إن الإنسان إذا أعد نفسه قبل النوم إعداداً نفسياً فى سبيل فكرة معينة ، فإنه سيرى تلك الفكرة فى منامه .

● تعبير الرؤيا ●

يحكى أن رجلا جاء إلى ابن سيرين يخبره عن حلم رآه حيث كان يؤذن . فقال له ابن سيرين : تقطع يدك. وجاء إليه آخر يخبره عن حلم يماثل حلم الأول، فقال له ابن سيرين . تحج إلى بيت الله الحرام ! . ودهش الحاضرون لهذا التناقض بين التفسيرين مع أن الحلم واحد وسألوا ابن سيرين عنه فأجابهم بما معناه . أن الأول رجل تبدو عليه سيماء الشر والأذان الذى قام به فى النوم يدل على أنه سارق وسوف تقطع يده . وذلك بدليل قوله تعالى :

﴿ وأذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ .

أما الرجل الثانى فتبدوا عليه سيماء الخير وآذانه يدل على أنه سوف يحج إلى بيت الله الحرام بدليل قوله : ﴿ وأذن فى الناس بالحج ﴾ .

ومن هذا وغيره من تعبيرات الرؤيا تبين أن هناك ثلاث نظرات :

(١) أحلام ترتبط فيها البشرية كلها باختلاف الأمم والملل والثقافات .

(٢) اختلاف بالنسبة للفرد الواحد باختلاف ظروفه وأحواله .

(٣) اختلاف الفصول والأزمان . ويرجع ذلك إلى القدرة الخاصة على استنتاج المعبر نفسه . كذلك ماوصل إليه ابن خلدون : أن الرؤيا تقع فى مبادىء منوم ، أو عند نهايته . والعلم الحديث يقرر أن النوم العميق لا وعى فيه ولا شعور ، وأن الأحلام تقع فى مرحلة الانتقال التدريجى إلى حالة اليقظة .

● النوم يقظة ●

ويرى رجال التصوف أن النوم يقظة ، وأن النفس البشرية مشغولة أثناء اليقظة بصور المحسوسات وهموم البدن ، وهى عندئذ نائمة لاتفهم سوى مايأتى به الحس من أوهام وأباطيل ، أما فى النوم فينجلى عن بصرها الغشاء وتحلق فى سماء المعرفة طليقة لايشغلها شاغل .

ويعتقد الغزالى أن مايبصره الانسان أثناء نومه أولى بالمعرفة عما يدرك عن طريق الحواس . ويقد أخطأ الناس حين ظنوا أن المعرفة تقع أبان اليقظة . إذ هم ينسون أن العقل مشغول عن ذلك بهموم حياته الدنيوية ، فلايستطيع أن يفهم من أمور الحق شيئاً (١) .

---

(١) التنبؤ بالغيب : دكتور : توفيق الطويل .

الفصل السابع

احذروا بعض المراجع

ان أخطر مايواجه الباحث العربى فى مجال الأدب والتاريخ تعدد المراجع ذات المصادر المختلفة من عربية أصيلة أو عربية مستقاة من الأجنبية أو أجنبية أساسا، وهو فى لهفته إلى إعداد بحثه يسأل عن المراجع فيجد أقربها ، تلك المراجع الغامضة الهوية فلا يعرف ماإذا كانت سليمة وموثوقة وصالحة لأن تكون مرجعا للبحث أم لا ، وإذا صلحت للبحث فهل توصل إلى الحقيقة . وهل تمثل جوهر المفاهيم الإسلامية العربية .

ذلك أن هناك ملاحظة أساسية فى هذا المجال ، هو أن قوى غريبة ومتعددة قد حاولت منذ وقت بعيد مراجعة التراث الإسلامى وعملت بابراز جوانب منه والاغضاء عن جوانب وقد كتبت الموسوعات الأدبية عن الشرق والغرب والإسلام أجانب فأدخلوا أشياء كثيرة من الشهادات الباطلة والروايات الضعيفة وحرفوا جانبا آخر من النصوص وذلك من أجل إقرار أشياء خطيرة ، من أهمها :

١ ــ القول بأن فلسطين كانت فيها لليهود آثار وتاريخ وحضارة وذلك لتأييد الدعوى الباطلة التى قام بالدعوة إليها (هرتزل) ومن جاء بعده من دعاة الصهيونية ، وهو خطأ محض .

٢ ــ القول بأن العرب كانوا يعيشون فى مرحلة الانحطاط ، حتى جاءت الحملة الفرنسية وجاء الفرنسيون فكانوا هم وكانت مؤسساتهم التبشيرية وارسالياتهم مصدر اليقظة وهو افتراء محض .

٣ — قالوا ان العرب عاشوا محتلين باليونان والرومان سنوات طويلة وقالوا المصريين انهم احتلوا بالعرب ، كما اججوا الخلاف بين الفرس والترك والعرب وبين البربر والعرب ، وأثاروا النزعات القديمة وبعثوا الفرعونيـــة والفينيقية والآشورية والبابلية لتفريق وحدة العرب وجماعية المسلمين .

٤ — الدعوى بأن الفكر الإسلامى يستمد بعض مقوماته من الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى حتى الذر الفنى والنحو والبلاغة حاولوا نسبتها إلى الفرس أو اليونان .

٥ — آثارة الشبهات حول البطولات العربية والإسلامية ، وإذاعة اتهامات الشعوبية والباطنية وخصوم الإسلام حول هذه البطولات وحول المواقع التاريخية .
هذه هى المادة التى أوردها الغربيون فى دائرة معارفهم وفى أبحاثهم كمقدمة لحملة الغزو العسكرى والسياسى للعالم الإســـلامى ، ثم كان توجيه المدارس والجامعات والمعاهد ذات الولاء للاستعمار والارساليات إلى هذه الجوانب فضمنتها مناهجها فى الأدب والتاريخ والفلسفة واللغة .

وعرضت الدراسات الحديثة خالية من أثر العرب والإسلام فيها ، هـذا الأثر الواضح فى دراسات القانون والعلوم التجريبية ، والنفس والأخلاق والتربية والإقتصاد والسياسة ، فأصبحت هذه العلوم تدرس على أنها نتاج أوربى خالص ، بينما تكشف الحقيقة العلمية عن دور ضخم للفكر الإسلامى فى هـذه المجالات كلها .

وقد عجز المتصدرون للثقافة العربية عن أن يجعلوا لهذه المناهج مقدمات تعطى الحقائق الدامغة لدور العرب والمسلمين فى بناء هذا الفكر البشرى فى مختلف مجالاته واهداء الاسلام للإنسانية :(مذهب المعرفة الإنسانى) فى الفكر ، ومذهب : (المنهج العلمى التجريبى) فى العلوم .

ثم جاءت مناهج المدارس الوطنية فى ظل النفوذ الاستعمارى فأخذت مناهج

المدارس الأجنبية فلم تجر تعديلا كبيرا ، ثم كانت الجامعات وقد تولاها أساتذة يؤمنون بوطنهم حقيقة ولكن دراستهم في مدارس الغرب قد أعجزتهم في مطاولة أبعاد الفكر الإسلامي وأثره في الحضارة الحديثة والفكر البشري المعاصر .

بل إن بعضهم قد تشكل فكره أساسا على احتقار الفكر الإسلامي وازدراء الأدب العربي واللغة العربية جميعا واعلاء الآداب والبطولات الغربية وذلك نتيجة ما قرأوا في مراجع الأجانب وتحت تأثير الأساتذة الأجانب .

غير أن هذه الغفلة قد انكشف أمرها وبدأ ضوء الحق ينفذ إلى الفكر من جـديد ومن أسف أنه جاء هذا ومن بعض المثقفين في الغرب من أمثال : جوستاف لوبون ، وكارليل ، وتوماس أرنولد وغيرهم ثم بدأ ظاهرا في الفترة الأخيرة في كتابات الدكتورة هونكة ــ شمس الله تشرق على الغرب) وما كشف عنه برنارد شو وليوبولد فايس وغيرهم عن عظمة الفكر الإسلامي ودوره الواضح في الفكر الغربي نفسه ومدى حاجة الإنسانية إليه .

ومع ذلك فإن العرب والمسلمين لم يتمكنوا بعد من إعداد المصادر والمراجع التي تمكنهم من وضع هذه الحقائق بين شبابهم وطلابهم وأساتذتهم ، فما زال الأساتذة يرجعون إلى دوائر المعارف الأجنبية والتي ترجم بعضها باللغة العربية مع الأسف ، دون أن يحاط ذلك بتصحيح واضح أو مراجعة شاملة ، وهذا شأن من يقرأ دائرة المعارف الإسلامية والمنجد والموسوعة العربية وغيرها .

***

وفي مجال « الأدب » نجد هناك من لايزال يعتبر كتاب (الأغاني) مرجعا ، وكتاب (ألف ليلة) مصدرا على الرغم من أخطار الاعتماد على مثل هذين الكتابين أو غيرهما من كتب المحاضرات ، ونحن في حاجة دائمة إلى التذكير بمصادر هذه الكتب ومراجعة أمر الذين قاموا على كتابتها وإعدادها فمؤلف الأغاني رجل

وصفة المصادر المتعددة بالاسفاف والاضطراب ووصفت خلقه بما يرده عن أن يكون مصدرا فقد كانت صلاته بالناس قائمة على البذاءة وكان وسخا قذرا وكان على غير مفهوم الإسلام الصحيح ، وله جوانب خبيثة تبعده عن استواء الطبيعة فضلا عن أن مصادره أيضا قد اتهمت .

وإلى ذلك فإن (كتاب الأغانى) على حد ما أورده صاحبه فى مقدمته لا يعنى تاريخ المجتمع الإسلامى ولكنه يعنى رسم صورة لأهل الغناء والشعر والفن ، وحدهم وهذا يمثل فى المجتمع جانبا واحدا من عدة جوانب أخرى لم يتحدث عنها صاحب الأغانى منها أهل العلم ومجالس الفقة ، وجماعات الصوفية ، ومدارس الأدب ومجامع العلوم ، ومن هنا فقد كان من الظلم أن يعتمد عليه فى رسم صورة المجتمع الإسلامى فى عصره فيقال أنه كان عصر شك ومجون اعتمادا على حياة جماعة من الماجنين من أمثال أبى نواس وبشار وغيرهم بينما ينسى عشرات من أعلام الفكر والفقهاء والأئمة من أمثال الحسن البصرى والفقهاء والشافعى ، ومالك والبخارى وغيرهم .

ويأتى كتاب (ألف ليلة) وكتاب (كليلة ودمنة) وهما كتابان فارسيان هنديان فى الأصل ، أضيف إلى الأول إضافات كثيرة مما يرويه الرواه من أساطير وأقاصيص وخرافات فهى ليست عملا محققا ولا علما موثقا ، فكيف يمكن أن تكون مرجعا ، الحق أن المستشرقين ودعاة التغريب هم الذين ألحوا على هذه الكتب وأولوها الاهتمام وأعادوا طبعها وأذاعوا بها وحرضوا أولياءهم من المتغربين أن يتحدثوا عنها وأن يحرضوا الباحثين على اعتمادها مراجع وذلك لأنها تفسد الحقائق وترسم صورة غير صحيحة ولا صادقة للمجتمع الإسلامى .

○●○

ومن المصادر التى تحتاج إلى انتباه وتيقظ : الأمامة والسياسة :

وقد وصفه السيد محب الدين الخطيب بأن كتاب لقيط مجهول النسب وأن

مؤلفه (ابن قتيبة) برىء منه ولم يذكر له مترجموه كتابا بهذا الاسم فضلا عن أن أسلوب القول فيه يخالف أسلوب ابن قتيبة فى كتاب المعارف وفى سائر كتبه والكتاب يشعر بأن مؤلفه كان بدمشق وابن قتيبة لم يخرج من - بغداد - إلا إلى - الدينور والمؤلف يروى ابو ليلى وأبو ليلى كان قاضيا بالكوفة قبل مولد (ابن قتيبة) بنحو مائة وعشرين سنة ويذكر فتح موسى بن نصير لمراكش وهذه المدينة شيدها يوسف بن تاشفين بعد ابن قتيبة بمائة سنة . فكتاب (الإمامة والسياسة) لا يجوز لمؤلف أن يجعله من مصادره .

٭٭٭

وكذلك كتاب (المضنون به على غير أهله) المنسوب إلى الإمام الغزالى فهو مكذوب عليه ، وقد صحح ذلك السيد المرتضى الزبيدى فى شرح الأحياء (الجزء الأول ص ٤٤) حيث قال :

أعلم أنه عزى إلى الشيخ كتب : منها — المضنون به على غير أهله — قال ابن السبكى : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه ، وقال معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه مختلقا عليه والأمر كما قال وقد اشتمل الكتاب المكذوب على التصريح بقدم العلم، ونفى علم القديم بالجزئيات . وفى (المسامرة) لمحى الدين ابن عربى ان هذا الكتاب من تأليف على بن خليل البستى وكذا صرح صاحب تحفة الإرشاد بأنه موضوع عليه .

٭٭٭

أما كتاب (رسائل اخوان الصفا) فهو جدير بوقفة مستأنية ذلك أن هذا الكتاب قد خدع الكثيرين وحاول دعاة التغريب اسباغ صورة من البطولة والكرامة على موضوعه وكتابه . وهم مازالوا يرددون القول عن أهمية هذه الرسائل هادفين من ذلك إلى تصوير الفكر الإسلامى وهو مكبل بقيود الإغريق وسلاسل اليونان وأن هذه الرسائل عصارة هذا التأثير البالغ .

ومن الحق أن يقال أن الفكر اليونانى بعد أن ترجم إلى العربية قد إحدث أثرا وهز بعض القيم ولكن هل استمر ذلك طويلا ، وهل انهزم الفكر الإسلامى أمام الفلسفة الإغريقية كما انهزم الفكر المسيحى ومن قبله الفكر اليهودى ، الحقيقة أن الفكر الإسلامى قد حطم هذه الدخائل وأعاد سيطرة أصالته مرة أخرى .

هذا فضلا عما ارتبطت به مثل هذه النظريات الفلسفية بالخصومية التى حمل لواءها أعداء الإسلام من الباطنية وبقايا المجوس لهدم الإسلام من الداخل .

ولذلك فإن عرض رسائل اخوان الصفا لابد أن يكون واضحا منه ان جماعة اخوان الصفا الذين ظهروا فى القرن الهجرى فى البصرة إنما هم جمعية سرية من الباطنية والمجوس والزنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية ولهم صلتهم المريبة بالحركات المريبة التى كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامى ، ولم يكن اخوان الصفا وهم فى سبيل منهجهم مخلصين للإسلام أو الدولة الإسلامية بل كانوا على العكس يعدون العداء عليها ولذلك فقد عمدوا إلى الفلسفة اليونانية وأخذوا يجمعون بين الهيئات اليونانية ونظريات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم وبين العبادات الشرعية الإسلامية فى دعوة باطلة تقول أن الشريعة قد دنست بالجهالات ولاسبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ويصفهم — أبو حيان التوحيدى — فى كتابه الامتاع والمؤانسة — فيقول : زعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال وقال انهم كتموا أسماءهم وبثوا رسائلهم فى الوراقين ووهبوها للناس وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة . والرقاق الموهمة . وقال إنها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات .

ويقول أبو حيان : إن هذه الرسائل مبثوثة فى كل فن بلا إشباع ولا كفاية ينكرون فيها البعث بالأجساد ويفسرون الآخرة والجنة والنار خلافا لما تواتر

عند المسلمين وفهم من النصوص الدينية القطعية ، وينكرون الشياطين على الصورة التى يفهمها معظم المسلمين ويقولون : هى النفوس الشريرة الهائمة فيما دون فلك القمر مع اخوانها من النفوس التى جهلت ذواتها فى الحياة الدنيا ويفسرون الكفر والعذاب تفسيرا باطنيا فلسفيا ، وتشتمل (أى الرسائل) على كثير من الآراء الخيالية بعضها متلقف من اليونان وبعضها وليد الأذهان .

وبعضها تراث الكهان كأسرار الأعداد والتنجيم والفال والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها وموسيقى الأفلاك ونغماتها ، وتشتمل كذلك على عقيدة الوحى والإمام المستور والتقية وفيها إعداد النفوس والعقول لدول جديدة ، واخطار بانتهاء الدولة العباسية وزوالها . وبالاختصار فهى مجموعة غريبة من الحكمة والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية ونظرياتها وأوهامها وتنهار بانهيارها وليست لها أهمية كبيرة . ولولا الاضطراب الفكرى الذى يسود العالم فى القرنين الرابع والخامس لما نالت هذا الاهتمام .

وقد أكد الباحثون أن هذه الرسائل كانت محاولة لوضع نظام جديد يحل محل الشريعة الإسلامية وقد أخفقت هذه المحاولة اخفاقا تاما فلم تنتج نظاما علميا ولم تنشىء مجتمعا يقوم على أساسها مدة قرن من الآثار التاريخية العتيقة التى لا تأثير لها فى الحياة ولا محل لها إلا فى المتاحف والمكتبات .

ويشير كثير من الباحثين إلى الفرق بين عمل اخوان الصفا وبين عمل الفلاسفة من أمثال ابن سينا والفارابى فإن هؤلاء الفلاسفة قد حرصوا على التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإسلام فى ضوء القرآن وفى ظل مفهوم التوحيد أما اخوان الصفا فلم يأخذوا الإسلام أساسا بل خلطوا الفلسفة اليونانيـــة بالأديان المختلفة ، ولم يلتزموا بمفاهيم الإسلام ولذلك جاء مفهومهم فى (ذات الله) سبحانه وتعالى .

مفهوما فاسدا وقد وصفهم بطرس البستانى بأن آراءهم مفككة، خلطت الفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية بخرافات السحر والتنجيم وأسمار الغالين وحكايات كليلة ودمنة .

وقد أشار التوحيدى إلى أنه حملها إلى أبو سليمان المنطقى السجستانى وعرضها عليه فنظر أياما وتبحرها طويلا ثم رد على وقال :

« تعبوا وما أغنوا ونصبوا وما أجروا وحاموا وما وردوا وغنوا وما طربوا ونسجوا فهلهلوا ومشطوا ففلفلوا » .

وقد أكد الباحثين بأن فلسفة « اخوان الصفا ليست مستمدة من المصادر الإسلامية الأصيلة ولكنها مستمدة من فلسفات اليونان من ناحية وفلسفات المجوس وعبدة النيران والكواكب وجماع الزرادشتية والمانوية والمزدكية وهم ينظرون إلى الأنبياء نظرة محددة ويرونهم كحكماء وقد ادعوا أنهم إنما يريدون إعادة الوحدة إلى المسلم والنصرانى والمجوسى واليهودى والأفلاطونى والمشائى والفيثاغورى وهم فى الأغلب يمجدون المجوسية ويجعلونها أفضل الأديان ومن هنا يبدو خطرهم وافسادهم من حيث ينظرون إلى الإسلام نظرة الدين الخالص المحرر من الوثنيات القائمة على النص الموثق .

بقى أن نشير إلى مصدر هام خطير غاية الخطر هو — كتاب أنساب الإشراف للبلاذرى فهذا الكتاب طبع منه جزء فى ألمانيا ١٨٨٣ ثم تولى أحد اليهود الصهيونيين طبع جزء آخر منه عام ١٩٣٦ ثم طبع جزء اخر عام ١٩٣٨ فى أورشليم وقدم له بالعبرية . ومن هنا جاءت شبهة هذا الكتاب المضطرب الذى اعتمد عليه بعض الباحثين فى القول بأن شخصية (عبد الله بن سبأ — شخصية وهمية ، وهذا القول يتفق مع مخططات اليهود فى انكارة أو التهوين من شأنه وهو ماجرى عليه مؤلف الفتنة الكبرى .

وكذلك ينطبق مثل هذا القول على كتاب (طبقات ابن سعد) الذى فى أيدى الباحثين فهو كتاب ناقص وملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها مختصر والدليل على ذلك أنه ترجم لعمر فى ٨٤ صفحة ولأبى بكر فى ٢٣ صفحة فما جاء إلى عثمان والأحداث فى خلافته كثيرة لم يكتب سوى ٢٢ صفحة فلما ذكر على ابن أبى طالب والأمر فى زمنه أفدح لم يكتب سوى ١٦ صفحة .

***

الفصل الثامن

تجربة العمل الأدبى

تكشف تجربة العمل الأدبى عن كثير من المشقة والمعاناة فليست هى من اليسر بحيث يمكن أن يقال أنها قدرة على الصياغة أو بناء الدراسة ذلك أن هذا وحده ليس هو العمل فى الحقيقة ، وإنما هو الصورة النهائية له .

إن الحقل الأدبى ليس مفتوحا على النحو الذى يحقق العمل ببساطة ، وبالرغم من كل ماقدم من دراسات فإن هناك جوانب ماتزال غامضة ، ومعقدة ، وفى حاجة إلى مجهود ضخم للكشف عنها ، ذلك أن الأعمال الأدبية والفكرية قد بدأت على أيدى أصحابها دراسات أو كلمات نشرت فى الصحف ثم استطاع عدد قليل من الكتاب جمع آثارهم ، وابرازها على هيئة مؤلفات أو كتب أو دراسات ، حتى أنه يمكن القول بأن آثار أغلب الكتاب أمثال : طه حسين والعقاد والمازنى والزيات وجبران وميخائيل نعيمه وهيكل وسلامه موسى إنما بدأت فى هيئة مقالات نشرت فى الصحف والمجلات ثم جمعت فى كتب ، ولذلك أمكن لبعض الباحثين أن يقول أن أدب الثلاثينات ومابعدها كان أدب مقالات مجمعة ، وربما امتدت هذه الظاهرة إلى اليوم ، وانه فيما عدا الدراسات الجامعية والرسائل الأكاديمية فإن كل آثارنا الأدبية مقالات مجمعة ، وان كان بعض الكتاب قد استطاع فى ذكاء أن يربط هذه المقالات المنوعة وأن يبرزها فى وحدة وانسجام وان بعضهم الآخر عجز عن هذه المحاولة .

وهذا رأى قريب من الحق فيما أعتقد عن تجربة ، وهو موصل إلى الحقيقة التى أردنا أن نكشف عنها ، بأنه فيما سوى عشرة أو عشرين أو ثلاثين من

الكتاب على الأكثر جمعوا آثارهم ، فإن هذه الآثار ماتزال مدفونة فى بطون الصحف والمجلات ، وأن فى هذه المرحلة التى انتعشت فيها المقالة الأدبية والسياسية والإجتماعية يمكن أن يقال أنه فى خلال ستين عاما (تقريبا) ١٧٧١ — ١٩٣٩ باستثناء فترة الحرب العالمية الأولى عندما توقفت الصحف أو تقاصت ، فإنه قد كتب مالايحصى من كاتب ممن لم تجمع أحد منهم إثارة ، وان كل كاتب من من هؤلاء قد كتب فى عشرة موضوعات متنوعة على الأقل ، وإننا إذ ذاك أمام حصيلة لاحد لها تضم أكثر من ألفى كتاب أو ألفى بحث .

هذا بالإضافة إلى عشرات الكتب الملخصة والمترجمة وذلك باستثناء المقالات الصحفية أو السياسية ذات الموضوع المحدود أو مقال الساعة أو الفكرة العارضة .

وإذا ظن بعض المراجعين أن فى ذلك شيء من المبالغة فإنى أذكر أن هناك أكثر من خمسين كاتبا قد كتبوا خلال سنوات بلغت الثلاثين ، كل يوم ، أمثال داود بركات وعبد القادر حمزة ، وهيكل ، والعقاد ، وطه حسين ، وخليل ثابت ، وحافظ عوض ، وعباس حافظ ، وأحمد وفيق ، ومحمد مسعود وسيد على ، ومحمود عزمى ، وأحمد نجيب ، وإذا أردنا أن نجتزى بمثال واحد أو اثنين قلنا مثلا ان داود بركات رأس تحرير الاهرام ٤٠ عاما ، ونفترض أنه كتب افتتاحية الأهرام ٣٠ عاما فقط فاذا نجد ، نجد أنه كتب ١٠٩٨٠ مقالا . وهناك مثال العقاد أو طه حسين أو المازنى أو هيكل فقد كتب هؤلاء منذ ١٩٢١ إلى ١٩٣٦ لهيكل ، ١٩٤٩ المازنى و ١٩٥٤ للعقاد (كتابة يومية) فإذا أخذنا بالأقل وجدنا أن هناك ٩٨٠٠ مقال لكل منهم ، ضاعت فى بطون الصحف وهى غير المقالات الأدبية التى جمعت .

وبعد هذا الاستطراد نقول أن صحفا كالمقطم واللواء والمؤيد والأهرام والسياسة والمنبر وكوكب الشرق والوادى والبلاغ والجريدة ، ومجلات كالمنار

والضياء والهلال والمقتطف والجوائب والزهور والبيان والجامعة والمصور والزهراء والسياسة الأسبوعية وأبولو والفجر والنهضة الفكرية والمجلة الجديدة والرسالة والثقافة قد أعطت محصولا ضخما لاحد لضخامته من الأبحاث والدراسات المنشورة المضيعة ، ولذلك فإن مجال العمل الأدبى الحقيقى هو فيما أعتقد فى هذا التراث القريب للكشف عن حقائق التطور الأدبى والفكرى والثقافى والاجتماعى فى العالم العربى ، وان جلاء هذه الحقائق مرتبط إلى حد كبير باستخراج هذه الآثار التى حاولت أن أصور مدى أهميتها وخطورتها .

ومن هنا فإن تجربة العمل الأدبى ، كما قلت — تكشف عن كثير من المشقة والمعاناة ، لمن يريد أن يرسم صورة كاملة أو قريبة من الكمال للفكر العربى المعاصر فى جوانبه المختلفة (الأدب ، التاريخ ، الاجتماع ، الدين ، السياسة ، الاقتصاد) فليس هناك فهارس كاملة لهذه الصحف والمجلات وليس من اليسير أن يراجع الباحث فى موضوع واحد كل هذه الصحف والمجلات .

هذا جانب من تجربة « العمل الأدبى » أما التجربة الأخرى فهى فى مجال دراسة أعلام الفكر العربى المعاصر ، فإن كتابة التراجم فن يحتاج إلى حصيلة ضخمة من الخامات التى تمكن من فهم نفسية الشخصية التى تستأثر بكتابات الكتاب وقد صدر عن كل واحـــد منها كتاب أو خمسة أو عشرة ، مثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين وشوقى وجبران ورفاعة ولطفى السيد وطه حسين والعقاد والمنفلوطى .

أما باقى شخصيات فكرنا المعاصر ، وفيهم من هو أعمق أثرا ، فإن الكتاب يتحامونها مع تقديرهم لفضلها وأثرها ، أما السبب فهو أن المادة ليست موجودة فى الكتب المؤلفة ، أما فى مجال الدوريات وفى بطون الصحف والمجلات فإن المادة ضخمة وكثيرة ولكنها فى حاجة إلى عنى وجهد فى البحث عنها ، وأن لدينا — كما قلنا — أكثر من مائتى شخصية على الأقل ، كتبت وتركت آثارها ، مدفونة فى بطون الصحف ، وتركت آثارها فى مجال الرحلة والترجمة أو الرسالة أو

البحث ، غير أن عجزنا عن العمل المجهد فى الحصول على هذه الآثار هو الذى يقف بنا دون العمل .

ولقد نظرت فرأيت واحدا مثل أحمد زكى باشا الملقب بشيخ العروبة له فى الصحف أكثر من ألف مقال ، خلال أربعين عاما أو أكثر ، منشورة فى الأهرام والمؤيد والمقطم والهلال والمقتطف ، وهو بدون ترجمة شاملة وكذلك عبدالعزيز جاويش ، وأحمد وفيق ، وأحمد تيمور ، وحافظ عوض ، والصحفى العجوز صاحب هامش الأهرام (توفيق حبيب) الذى كتب هامشا يوميا لمدة لاتقل عن سبعة أعوام كاملة ، تضم أكثر من ألفى خاطرة وذكرى وحادث وموقف ، يمكن أن ترسم من خلالها صورالمجتمع فى عصره ، وهناك كذلك عشرات آخرون جديرون بدراسة والترجمة وآثارهم ماتزال فى بطون الصحف .

وإذا كان الكشف عن هذه الآثار قد يصبح يسيرا بالمعاناة والعمل الشاق بين أضابير دور الكتب وبين صحف قد علاها التراب ، الذى يدخل فى الخياشيم ويقذى العيون . وبين صحف قد تآكلت أطرافها فإن المشقة الكبرى والمعاناة الضخمة هى فى البحث عن « أسرة المترجم له » فإن هذا أمر بالغ الخطر وأستطيع أن أقول أن كثيرا من كتابنا الذين عاشوا ! هذه الفترة من مطالع القرن والذين ماتوا فى السنوات الأخيرة . قد خلفوا مكتبات ضخمة عامرة . تضم ألوف المجلدات . ومئات الجذاذات . والموضوعات التى لم تستكمل . وعشرات الرسائل . وصفحات لاحد لها من الذكريات والكلمات الموحية . فأين هذه المكتبات . أغلب هذه الآثار قد ضيعت بطرق تدل على عدم تقدير لأصحابها وتجاهل لخطرها فهى فى الأغلب قد ضاعت عن طريق الخدم أو بيعت ودفنت بطريقة مؤلمة للنفس . أو حفظت فى بدرومات . تنتظر حل الخلاف بين أهل الكاتب عن طريق المحاكم . هذه القضايا التى استمرت سنوات وانتهت بنهاية هذه الأوراق وقديما كان المرحومان أحمد تيمور باشا وأحمد باشا زكى يقرأن كل يوم عامود الوفيات

بالصحف اليومية ، فإذا قرأ نعيا لعالم أو اديب اسرعا فاشتريا مكتبته واثارة ودفعوا فيها مبلغا مجزيا ، أما الآن فقد قلت هذه الرغبة فى جمع الكتب النادرة أو الاثار المتروكة ، وأصبح جل الناس فى الإعتماد على المكتبات العامة ومن هنا ضاعت مكتبات كثيرة بالتسرب إلى باعة الفول والترمس والبطاطا مع الاسف بثمن بخس .

وإذا كان بعض ادبائنا قد تنبهوا اليوم لفضل التوصية بمكتباتهم لدور الكتب العامة أو الجامعات فإن الأمر الشاق هو فى « الأوراق الخاصة » فإن هذه الأوراق قلما يعثر عليها الباحث ، وإنى لاذكر كيف لقيت من جهد فى سبيل البحث عن بصيص من الضوء على شخصية رجل وصف بانه التلميذ الثانى لجمال الدين الأفغانى بعد محمد عبده ذلك هو « ابراهيم اللقانى » فقد حاولت أن اصل إلى بعض اثارة أو صوره أو مذكراته أو شىء يكشف عن تفاصيل حياته فلم أجد سوى بعض كتاباته فى جريدة مرآة الشرق (١٨٧٨ — ١٨٧١) وقبل هذا وبعد هذا لاشىء الا مقال رثاه فيه صاحب المنار، فلما اتصلت بأهله وجدت تحفظا شديد ثم علمت أن مكتبته ماتزال منذ أكثر من خمسين عاما مدفونة فى (بدروم) احد البيوت القديمة وأن هذا البدروم يغرق كل عام بارتفاع النيل ، وما تزال أوراقه هناك .

أما فريد وجدى فقد حاولت أن احصل على بعض كتاباته أو رسائله أو مذكراته أو اصول مقالاته فلم أعثر عند أهله على شىء مطلقا فقد بيع ذلك كله وصفى ، أما كامل كيلانى فقد تفضل واوصى لى رحمة الله بقصاصاته ورسائله

التى انتفعت بها فى كتابة دراسة عنه كشفت عن كثير من الجوانب الغامضة فى عصره وادب رصفائه .

ولقد اسعدنى أن أعلم أن السيد المعتصم رشيد رضا قد أعطى أوراق والده إلى الاستاذ أحمد الشرباصى الذى يعد دراسة عن صاحب المنار ، وانه قد يجد فى هذه الآوراق من الرسائل النادرة والمذكرات الهامة ما سيكون بعيد الأثر عند ما يذاع .

وهذا نوع اخر من هـذه المشقة ، واجهنى فى دراسة أحمد زكى باشافقد كنت اعرف أن لهأضابير وملفات وقصاصات وغرفة كاملة تحوى آثاره عند احد معارفه فلما قصدته فى ذلك ابدى قبولا وراوغ وظللت اتردد عليه ثلاثة اعوام أملا فى ان استكمـل صورة الرجل مـن خـلال بعض كـتاباته أو خطاباته أو مذكراته ، والرجل يراوغنى على نحو عجيب ، حتى صدر كتابى عنه ، فاتصل بى معتذرا باعذار واهية .

وهناك جانب اخر على الباحثين موالاة الاهتمام به ، وهو الالتقاء بالاعلام الاحياء الذين عمروا ومازالوا يعيشون فان لديهم الـكثير مما ينفع فى هذه الدراسات وما تزال فى شرقنا العربى اسماء لامعة حية اطال الله بقاءها ، شهدت السنوات الأولى لهذا القرن وعرفت الـكثير ومن هؤلاء السيد احسان الجابرى ، ومحب الدين الخطيب ومصطفى الشهابى وحسن حسنى عبد الوهاب وعشرات كثيرون .

وانى لاذكر كيف التقيت بخليل ثابت وهو على قمة التسعين والشيخ فخر

الدين استاذ العقاد فى مدارس أسوان وقد فاتنى لقاء الاب سوجيوس وفريد وجدى وغيرهم ولاريب أن فات لدى هؤلاء الاعلام علامات الطريق على كثير من الابحاث التى تمكن من مسح الحياة الفكرية فى العالم العربى خلال هذه المقابلات مع هؤلاء الاعلام وحبذا لو امكن الانتفاع بمذكراتهم ورسائلهم أو رسائل الادباء اليهم .

وبعد فان تجربة العمل الادبى بالغة الاهمية كثيرة المشقة ولكنها تحقق اخيرا تقديم عمل نافع هو إطار لمعالم الادب العربى فى العصر الحديث

الفصل التاسع

ندوات الأدب

يستطيع من يريد أن يؤرخ « الندوات الأدبية » أن يجد دائما مادة جديدة فما تزال تظهر ندوات جديدة فى قلب القاهرة يتجدد فيها اللقاء بين الأدباء والكتاب والشعراء .

وفى القاهرة ندوة جمعية الأدباء بشارع القصر العينى . وندوة رابطة الأدب الحديث بجوار بنك مصر ، وندوات : الرابطة الإسلامية ، والشبان المسلمين ، وصالون الفن بالشبان المسيحيين ، وكلها ندوات مفتوحة للأدب والشعر والفن ، يجرى فيها حديث الفكر إلى جانب حديث الشعر ، وهى تعيش يقظة الأحداث والقضايا الوطنية والقومية والعربية والإسلامية متجاوبة معها على الصعيد الوطنى والروحى معا ، غير أن ندوة من هذه الندوات لم يؤرخ لها بعد . وكانت إلى قريب ندوة « العقاد » وندوة طه حسين وندوة الباقورى وندوة نجيب محفوظ ، وقد تقلصت هذه الندوات ، وشغل أصحابها عنها ، غير أن ندوة حافلة برزت فى أفق الأدب والشعر ، منذ عهد قليل ، واستحقت أن يصدر عنها كتاب ، تلك هى « الندوة البدرانية » نسبة إلى صاحبها الدكتور محمد فتح الله بدران ، ومن عجب أن يكون هذا الكتاب منسجما مع شأن الندوة فهو يؤرخها بالشعر والنثر ، ويتولى هذا شاعر من أبرز شعراء العالم العربى اليوم هو : « محمود جبر » .

وأبرز مثل للندوة والبدرانية أنها جددت الشعر العربى الرصين فى طريق الأصالة ، وردت إليه اعتباره بعد أن كاد يندثر ذلك اللون الحى من الشعر المقفى وقد

كانت له دولة ماأظن أنها تزول فمازال الشعر العربى فى مصر والشام والعراق والمغرب العربى حيا دافقا قريبا إلى النفوس ، ومازالت فنونه من الغزل والوصف والرثاء والاخوانيات والمطارحة والرسائل تفعل فعلها فى القلوب ، وتهز الأعماق .

وقد أعطت الندوة البدرانية للشعر مجاله ، وروحه ، فى تلك القاعة الواسعة الفسيحة التى أعدها الدكتور بدران للندوة تجد صورة الخيلة: زهور وورود وأشجار وعصافير وأضواء ملونة وجو عربى شعرى رقيق يوحى بأروع صور الفن والأدب فى عصوره الزاهرة مجددا أيام أبى تمام والبحترى والفرزدق .

ويؤم هذه الندوة أبرز شعراء القاهرة : محمود جبر ، الربيع الغزالى ، قاسم مظهر ، محمد التهامى ، أحمد على ، محمود الجرف ، محمد بدر الدين ، محمد العزب ، محمد الماحى ، ابراهيم عيسى .

ومن رواد الندوة المثقفين : الدكتور عيسى عبده ، أحمد فراج ، حسنى الزمزمى ، محى الدين الالوائى ، عبد السلام شهاب ، الدكتور عدلى أباظة .

أما الدكتور بدران فانك إذا زرت ندوته لقيك فى ثيابه العربية وعباءته الحمراء ، على باب مكتبته الحافلة ، بين المجلدات والاضابير ، فإذا توارد أعضاء الندوة انتقلوا جميعا إلى غرفة الشعر والفن وليس معنى هذا أن الندوة قاصرة على الشعر وحده ولكنه أبرز فنونها ، فالدكتور بدران عالم ومؤرخ وفيلسوف وله أبحاث ضخمة ، ودراسات لطلابه فى الدراسات العالية ولكنه شاعر وصاحب أسلوب بليغ وقد كان التقاؤه بالشاعر الصوفى الرقيق : محمود جبر مصدر انطلاقة هذه الندوة ، التى قلما تنتهى دورتها ، أو تنفض جلستها إلا فى مطالع الفجر والحديث فيها يجرى على اطلاقه بين الأدب والشعر والتصوف وقد يتصل بالعلم أو الفقه والفلسفة ولكنه يجرى كله فى مجال الثقافة

ولكنه لايصل إلى حد « المحاضرات المطولة » فما تلبث أن يقطعه بين حين وحين أبيات من الشعر ، تروح عن النفس وتفتح العقول إطلالة جديدة .

ومن عجب أن شعـــراء الندوة قادرون على ملاحقة كل شيء فما أن يصل زائر جديد ، حتى ترى أبيات الشعر فى تحية القادم قد نسجت سريعا ، والقيت فى نبرات قوامها الحب والوفاء ، هو طابع أهل هذه الندوة وميسمهم الواضح .

أما محمود جبر صاحب كتاب « الندوة البدرانية » فهو منذ عشرين عاما يشدو فى كل ندوة بشعره الصوفى الرقيق ، يهز به القلوب ، ويحرك الأشجان ، يسمو به ويرتفع إلى سماء الروح وتطلعات الوجدان وآفاق الحب الخالص للذات الإلهية :

مازال بى الحب يروينى ويظمئنى	أطوف بالحب من شوقى وأستلم
ما أرانى تبطوا فى أخا سأم	وكيف يقرب من ذاق الهوى سأم
ياجيرة الحب والجنات حولكم	لاتبخلوا بحديث الخلد عندكم
إنى رأيت دموعى فى تهجدها	تطيل فيكم صلاة كلها لكم

ومنذ سنوات طويلة وأنا أرى محمود جبر فى كل ندوة وناد ، وفى كل مجال ، يقف ليلقى شعره فيهز النفوس ، ويلهب الأرواح ، ويبعث أرق عواطف التصوف والتحليق فى أجواء الروح والفكر والفن ، كنت أراه من بعيد وأستمع إليه ، فلما قرب بيننا التقاؤنا فى عضوية المجلس الإسلامى الأعلى . اكتشفته شخصية غاية فى السماحة والرقة ، شخصية شاعر صادق الإيمان بوطنه ودينه وأمته ، وكل القيم الإنسانية العالية الخالدة ولقد كنت أراه قد كسب كل يوم صاحبا ، إنه رجل يرسل نفسه على سجيتها ويقول كلمته صادقا ويوحد بالإخاء

الإنسانى بين مجموعة من النفوس المحبة الصافية ، وهو فى كل مكان يذكرنى به .

كنا فى عزاء للزميل الأستاذ محمـــد صبيح وكان رفيقى إلى هنا لك ، وفجأة وجدت الصمت يعلو الجميع ، وشعر محمود جبر ينفذ فى نفوس الناس وعقولهم إلى حد النخاع كما يقولون ، وذكرت كيف كنت لا التفت فى الماضى إلى هذه الظاهرة العجيبة ، هذه الديباجة الشرقية الرائعة ، التى تحول كل شىء إلى صلب شطراتها ، وفى مجلسنا ذاك كان المخرج الأشهر محمد كريم الذى هزه شعر محمود جبر ، والتمس أن يعقد له ندوة كاملة فى بيته ، وذهبنا . وكانت ليلة حلوة رائعه ، فى صالون المخرج السينمائى الكبير ، كنا أشبة بمن يرد «البلاتوه» نظام كامل لتسجيل حلقة من حلقات شعر محمود جبر على شريط ، نفس حركات السينمائى واشاراته ، فإذا القى محمود جبر قصيدة ، واوقف الجهاز ، وجرى الحديث منطلقا عاد «كريم» يطلب تسجيل كل كلمة ، حتى كلمات «الدردشة» أصر أن يسجلها . وأصبحت هذه القصائد زادا لكل من يزور محمد كريم من المخرجين والكتاب والشعراء ، زادا روحيا تلقاه النفس المشرقة فيرد عنها غرور الدنيا وفتنة المظاهر ، ويمنحها الصفاء والإنطلاق إلى افاق السمو والاستعلاء على طوابع المادية وما من قصيدة وجهها محمود جبر إلى «انسان» إلا كان هذا الإنسان مثلا رائعا للخلق ، وأمس كنت فى عيادة الدكتور محمود دياب فوجدت قصيدة لجبر معلقة فى بهو العيادة ، ولم ألبث أن اكتشفت المعنى حقا لقد اطلقنا على الدكتور دياب «طبيب الانسانية» فهو مثل من الامثلة العالية للاطباء الذين سبقوا أمثال أحمد فؤاد ومحجوب ثابت ، وناجى . هؤلاء الذين كانوا يدفعون للمريض اجر الدواء أو يذهبون فيحضرونه له ، لقد شاهدت عن قرب ذلك الطابع الانسانى فى الدكتور محمود دياب ، واكتشفت ايمانه

الخالص بالمعنى الذى يعلو فوق ماديات الحياة . فهو على مظهره الجاد وعبارته الدقيقة سمح فى أعماقه إلى أبعد حدود السماحة . يرى أن مهنة الطب ليست مهنة مال ، ولا غنى ، وانما خدمة لذوى الحاجة والفقراء قائلا : لا تكن انت والمرض على الرجل .

ولا شك أن ندوة الدكتور بدران فى « حدائق شبرا » تعطى عصارة خطلعات مجموعة من الشعراء والأدباء . ارتفعت انفسهم عن موات الحياة المادية . وانطلقوا يحلقون فى اجواء « الانسانية » والحب والاخوة وعاطفة التصوف الرقيقة المتسامية ولم ينسهم ذلك العلم والفكر فلا عجب أن يستطيع أصحاب الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة أن يجمعوا بين طوابع الايجابية والروحية فى أن واحد . وأن ينسلخ الدكتور بدران مثلا من مدرج كليات البنات فى المعادى حيث يجد فيه بناتنا المسلمات استاذاً عالما . ومحدثا بارعا . وابا رقيقا . يعرف امورهن . ويشكين اليه ازماتهن . ويجدن عندة دائما الاساة والعلاج والكلمة المثقفه فيها نفحة الايمان وطابع الروح فإذا به فى اعماق ندوته الحافلة فى غرفتها المزهرة المغردة بالعصافير الكنارى والورود الفواحة . والفوانيس الحمراء والزرقاء . ومن حوله محمود جبر . والربيع الغزالى وقاسم مظهر وهم خير من عرفت اندية القاهرة نبالة خلق وسماحة نفس وصفاء خاطر .

فالربيع الغزالى مايكاد يغادر مقعدة فى جريدة الاهرام حتى يندمج فى ندوة من هذه الندوات . محلقا ومحدثا وشاعرا . وحسنى الزرمزى هذا العلامة اللغوى الذى ما فاتته ندوة فى القاهرة منذ عشرين عاما . يقطع اليها الطريق سواء فى مصر الجديده أو شبرا أو غيرها . حتى أصبح علما على الندوات محدثا

ولغويا ، ومؤرخا يحفظ شطرا كبيرا من تاريخ الأدب العربي وهو في مظهرة اشبه بالعقاد طولا وملامحا ، وفي مخبرة مثل من امثلة التواضع والبساطة فإذا انتقلت إلى ندوة الشبان المسلمين وجدت على الجبلاطي شاعرا وخطيبا ، لا تفوته مناسبة في التاريخ ولا الوطنية ولا قضايا الوطن العربي يقدم في كل يوم اثنين وباقة من المتكلمين والشعراء ، في موضوع طريف ، يبدأه بكلماته ويختتمه بشعره ، فهو اقدر من يقدمون الندوات في القاهرة معرفة لمن يجيد الكلام في موضوع ما ، فإذا تساوى المتكلمون فيه عرف اقدرهم وادقهم . المتكلمون والكتاب والشعراء في ذاكرته حاضرون ، من مختلف انحاء العالم العربي والإسلامي يستطيع أن يمدهم في المناسبة واللحظة وهو بعد ذلك يكمل مسافات ويضيف ما نقص ، ويجدد الذكرى لكل حدث .

وفي رابطة الأدب الحديث ترى الأقطاب الثلاثة : مصطفى السحرتي ، عبد المنعم خفاجي ، كامل السوافيري ، هم ابرز محدثي الندوة . ومن حولهم مجموعة من الشباب الشعراء والأدباء والكتاب .

ولطالما نستمع عندهم إلى الأساتذة محمد عبد الغني حسن ووديع فلسطين أما الخفاجي فقد شغلته ايامه في ليبيا ، أما السحرتي فانه مازال في هدوئه يعالج المسائل في رفق وينقد في اناة ويتحدث في اتئاد ورزانة ، شأنه منذ مطالع الصبا يوم كان يحرر باب الانتاج الأدبي في المقتطف مع رفيق صباه حسن كامل الصيرفي أما السوافيري فتشغله اليوم دراساته عن ادب فلسطين وشعر فلسطين في رسالة الدكتوراه .

وفي رابطة الأدب الحديث تشم روح جماعة ابولو القديمة وتجد ريحها

بعد أن تفرق أعضاؤها ، وظهرت رسالات متعددة فى تقويم عملها ، إحداها لعبد العزيز الدسوقى ، والأخرى لـكمال نشأت .

أما أحمد الشرباصى فهو علم على ندوات كثيرة ، ومحاضرات متعددة تنتظم أحفال الفـكر والدين معا وهو اليوم يعد رسالة الدكتوراه عن رشيد رضا فهو بها جد مشغول ، وإن كان لا يقصر عن إعداد ندوة ولواء الإسلام التى تضم مجموعة من أعلام الدراسات الإسلامية فى مقدمتهم الدكتور أحمد شلوش والعلامة أبو زهرة ، وكثيرون .

أما الأستاذ الباقورى فقد أوقف ندوته بعد أن شغلته أعباء « جامعة الأزهر » وندواتها وأحفالها ومحاضراتها ومشاغلها ، وكانت ندوته تحفل بأعلام الفـكر العربى الإسلامى فى القاهرة ، وكان من أبرز روادها المهندس أحمد عبده الشرباصى والفيلسوف مالك من بنى والشيخ عبد الجليل عيسى ، وعشرات أمثال خالد محمد خالد ومحمود الشرقاوى والشيخ محمود أبو ريه .

ولقد أتيحت لنا منذ سنوات ساعات لقاء فى ندوة الأستاذ أحمد حسين المحامى ، تبادلنا معه الحديث فى كثير من دراسات القصة والأدب من خلال نظريته الشهيرة : « الطاقة الإنسانية » التى أحدث كتابها أبعد الأثر فى الفـكر العربى العربى المعاصر وفى لقاءاتة جرى الحديث حول الفن والتاريخ والأدب من خلال قصة « أزهار » و « الدكتور خالد » ومن خلال قصته الجديدة « الحريق » التى لازالت فى الطريق وهو مشغول هذه الأيام بكتابه الضخم « الأمة الإنسانية » كعلامة على طريق السلام والحب والإخوة الإنسانية مدعما بالبحث العلمى من خلال تاريخ العالم كله ، وكان قد أصدر شطرا من دراسته هذه فى العام الماضى باسم « تاريخ الإنسانية » فأحدث ذلك أثرا هاما فى أواسط الـكتاب حيث تناوله محمد زكى عبد القادر وموسى صبرى وعباس الأسوانى وعبد العزيز الدسوقى وغيرهم بالبحث والتعليق .

ومن خلال ندوة شعراء العروبة فى جمعية الشبان المسيحيين يبرز : عبد الله شمس الدين شاعر الوطنية والدين والكفاح ، ومعه باقة من الشعراء المبرزين وهم يمثلون الجانب الوطنى ، حيث صالون الثقافة الذى يديره الشاعر خليل جرجس خليل يمثل الجانب الفنى ، وهناك تسمع الشعر العمودى ، والشعر الحر وترى أمثال أستاذنا على الجندى ، والربيع الغزالى وخلفاء المرحوم خالد الجرنوسى .

وما تزال ندوة كامل كيلانى ، حية فى نفوس الذين شهدوها ، فقد كانت ندوة البلاغة والطرافة فى آن ، كانت النكتة المستحدثة تجرى فيها مع فكاهات الجاحظ والمعرى وأبو نواس والمتنبى ، كان كامل كيلانى رحمه الله وقد احتفلنا بذكراه الرابعة أمس ، ديوانا من دواوين العرب يضم أكثر من مائة ألف بيت من الشعر ولا يضاهيه اليوم فى هذا إلا الأستاذ على الجندى الذى يكاد يحفظ « الأغانى » .

ولقد ضمنا مجلس كان قوامه محقق التراث العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم وجرى الحديث على شعراء الفخر والرثاء والمدح : واستفاض القول حول أبو تمام والبحترى والفرزدق .

وحول موائد الأحفال الكبرى تتجمع طوائف من الاعلام ، ففى ندوة سميراميس ضمتنى مائدة واحدة مع الاعلام : محمد خلف الله ، أحمد الحوفى ، مهدى علام ، أبو الفضل إبراهيم ، فى حديث حلو عذب واستعادة لذكريات قديمة ، وكان الشعر عماد الندوة ، هؤلاء أبناء دار العلوم لهم طابع سماحة واضح ، كانت الدعابات مشرقة وكان الحديث عن الماضى جميل ، لحات الدكتور مهدى علام لتلاميذه ، احتفاؤه بمحمود حسن اسماعيل وهو طالب فى دار العلوم ، وتكراياه حيث يقيم الأساتذة لأول مرة ، كتقليد جامعى جديد ، حفلا لطالب ، كانت قصيدته « الكوخ » هى التى هزت الدكتور مهدى علام ، أنه

لم يقدمها له بيده ، بل تركها فى غلاف مع كلمات رقيقة ، ان كانت هذه القصيدة تعجبك فافسح لها مجالا فى ندوة اليوم ، فلما قرأها الدكتور علام ، أفرد لها ندوة كاملة احتفاء بالشعر ، وتقديرا للشاعر ، أما الدكتور الحوفى والاستاذ خلف الله فقد استعادا ذكريات الشعر ، ولم أكن أعلم من قبل أن مدير معهد الدراسات العربية كان شـــاعرا فيما مضى ، غير أن حديثا دار كشف عن أنهما — الحوفى وخلف الله — عادا إلى الشعر بعد ثلاثين سنة ، أما المناسبة فكانت زيارتهما للعراق ، فلما عادا تطارحا الشعر فى الطائرة ، حتى اكتملت قصيدة من أرق فنون الشعر وأعذبه .

ولقد استطعت أن أعرف بواعث العودة إلى الشعر ، أنه جو العراق ، إنها البيئة العربية التى مازال الشعر العربى البليغ فيها يجرى على أصوله ، ما من شك أن هذه البيئة تهز نفس الشاعر القديم وذو الشوق القديم وأن تعزى مشوق حين يلتقى العاشقين ، هكذا عادا — الحوفى وخلف الله إلى الشعر ، فى الطائرة ،

ورجل آخر علامة عاد إلى الشعر ، وكان قد هجره منذ أوائل الصبا ، ذلك هو أستاذنا عمر الدسوقى فقد فأجأنى صيف هذا العام بظروف كبير يحوى ديوانا كاملا من نظمه خلال عامين فى « برقة » وهو يعمل بجامعتها ، هنالك فى البيئة العربية الأصلية عادت له عاطفة الشعر التى اختفت تحت ضغط الأبحـــاث والدراسات فى القاهرة .

وفى قبة الغورى ، وفى جامعـــة الثقافة الحرة وفى نادى خريجى الجامعات تقام على التوالى ندوات للشعر والأدب يعلو فيها صوت القصيدة العمودية فتهز النفوس والأفئدة .

ومازال نادى القصة وجماعة الأدباء يحفل بالرواد أمسية الأربعاء . حيث

يبدو وجه القصاص العربى الكبير عبد الحليم عبد الله والشاعر الناقد عبد العزيز الدسوقى، وكاتب القصة القصيرة سعد حامد، باقة من المحاضرين والشعراء والنقاد المتمكنين: عباس خضر، صالح جودت، الدكتور عبد القادر القط، هنالك ترى كاتبات القصة: هدى جاد وصوفى عبد الله، وجاذبية صدقى، وحنفية فتحى. ويطل على الجميع يوسف السباعى ونجيب محفوظ. وكم كانت لطه حسين وتوفيق الحكيم هناك من جلسات حافلات.

ومنذ عهد ليس بالبعيد كان للسيدة جاذبية صدقى صالونا أدبيا طالما حظى بشعر جليلة رضا، وأحاديث عبد الحليم عبد الله، وعبد الله شمس الدين، واستمعنا فيه إلى غناء منيرة المهدية، وحديث الدكتور هيكل وطرائف شوقى أمين.

ومنذ سنوات كانت تعقد ندوة جميلة العلايلى فى عين شمس ويحضرها كثير من الشعراء والأدباء باسم «مجمع الأدب العربى».

وهكذا جرت الذكريات بأحاديث الندوات القديمة حين ظهر كتاب «الندوة البدرانية» الذى نظمه محمود جبر وسلك فيه صورا شعرية لرواد هذه الندوة، التى مازالت حفية بالشعر العمودى، وفى مجال الإنسانيات والتصوف والعاطفة الدينية المشرقة السمحة.

ولاشك أن هذه الأسماء التى حوتها الندوة البدرانية تكاد تكون قاسما مشتركا أعظم على كل ندوات الأدب والشعر فى القاهرة اليوم، وقد أحببت أن أرسم من خلالها صورة سريعة لعلها تعين الدارسين والباحثين من بعد على دراسة أوسع.

والحق أن هذا الجانب من الصور الإجتماعية مازال محتاجا إلى جهد كبير وإلى تجميع وتنسيق، فذلك تراث حى يوشك أن يضيع، ومنذ كانت ندوات،

آل عبد الرازق ، والأهرام ، وسبلندد بار ، وصولت الحلوانى ، وقهوة المحافظة ، وقهوة الحلبية ، وقهوة باب الخلق ، وقهوة الفشياوى . ومن قبلها قهوة متاتيا. ذلك تاريخ طويل جدير بالعناية والدراسة ، ولعل أن يتاح لنا إعداد حلقة جديدة عن صورة العصر من ١٩٣٩ إلى اليوم استكمالا للحلقة الأولى التى نشرناها فى كتابنا «الشرق فى فجر اليقظة» عن الفترة من ١٨٧١ إلى ١٩٣٩ وذلك جهد لا يضيع .

***

الفصل العاشر

ندوة أحمد حسين

عفا الله عن الأستاذ أحمد حسين ، وكتب له الشفاء والعافية وكشف عنه الضر ، وأعاد إليه موفور الصحة لتتجدد ندوته الطريفة العامرة بالشخصيات اللامعة والتى سعدنا فيها بلقاء عدد من الاعلام :

الأستاذ الشيخ أبو زهرة وموسى صبرى وأحمد الشرباصى ومحمود جبر والدكتور بدران وعبد العزيز الدسوقى وغيرهم كثيرون قدموا من مختلف أنحاء العالم والجامعات الغربية يدرسون مصر بين الحربين وقدموا إلى مجلسه يستمعون منه التاريخ الحى ، ويراجعون معه صفحات من حياة مصر فى الثلاثينيات عندما لمع فى سمائها مشروع القرش ومصر الفتاة وجريدة الصرخة .

ومن الأستاذ أحمد حسين استمعنا إلى ذكريات عن أصدقائه الثلاثة الكبار عزيز المصرى وصالح حرب والدكتور أحمد علوش الذى كان يغشى الندوة كثيرا فى أيام السبت منذ عام ١٩٦٥ حتى توفى إلى رحمة الله فى العام الأسبق .

ويحمل أحمد حسين على أكتافه تاريخ طويل ممتد منذ شارك فى ثورة ١٩١٩ يافعا صغيرا ثم برز بروزا واضحا فى عام ١٩٣٠ وهو مازال طالبا فى الجامعة ومعه فتحى رضوان ومحمد صبيح وحافظ محمود ، ومعه جيل كامل شارك فى تلك اليقظة التى عرفتها مصر فى هذه الفترة مجددة حياتها الفكرية والسياسية بعد أن ضعف نفوذ الأحزاب السياسية وتكشف عن تخلف عن مستوى المسئولية الوطنية ، فكانت مصر الفتاة إحدى الصيحات العالية المصرية والعربية والإسلامية .

وما زال أحمد حسين منذ الثلاثينيات يتدفق خطابه وندوة وكتابة من مرحلة إلى مرحلة ومن حلقة إلى حلقة من حلقات الفكر السياسى والإجتماعى والثقافة الروحية والعقلية .

وهو منذ الثلاثينيات لم يتوقف ولم ينقطع عن العمل ، وفى مجالات مختلفة، وفى كل مجال من هذه المجالات قدم خلاصة فكره وعصارة روحه ، ونبض عقله ووجدانه معا ، وإذا كان لنا أن نرصد هذه المراحل فإننا نسميها على التوالى .

« المرحلة الوطنية — المرحلة الروحية — المرحلة الإنسانية — المرحلة الإسلامية » .

فقد بدأ حياته مجاهدا وطنيا يحاول أن يبنى لقومه وأمته نهجا جديدا من الحياة السياسية والاجتماعية بعد أن اضطربت هذه الحياة حين تخلف عنصر الإيمان فيها وبرز الساسة فى الثلاثينات وقد تخففوا من قيم الأخلاق والإسلام. حتى ليمكن القول بأن الدعوة إلى « المصرية » التى قادها أحمد حسين — إذ ذاك — كانت تصحيحا أصيلا لمفهوم (المصرية الإسلامية) وتحريرا لها من دعوات تريد أن تربطها بالفرعونية والوثنية، فقد وضعها فى مكانها الطبيعى، باعتبار مصر جزءا من الأمة العربية فى إطار العالم الإسلامى .

فالدعوة إلى المصرية قبله كانت دعوة اقليمية فرعونية مغرقة فى الانحراف وتجافى الأرضية الإسلامية العربية ، أما هو فقد أعادها إلى مكانها الأصيل . مصر التى لا تنفصل عن جذورها العربية الإسلامية، وتلك رسالة جوهرية ونهج هام فى طريق حركة بناء الفكر العربى خلال تلك المرحلة ، هذا مع دعوته إلى الجلاء والحرية وبناء الوطنية على قاعدة الإيمان والأخلاق والدين .

ثم لم يلبث أحمد حسين أن طور فكره مع الأحداث وحاجات الأمم فأهدى

لها مفهوم « العدل الاجتماعى » والبناء الاقتصادى القائم على العلم والعمل والمتصل بمفهوم الاسلام ، ثم خطا خطوة أخرى فى مواجهة حملات المادية والالحاد فقدم كتابه الضخم « الطاقة الانسانية » وفيه يكشف أسرار العلم وأدق دقائق « التكنولوجيا » ويردها إلى مصادرها الطبيعية فى مفهوم المؤمنين بالله ، ثم لا يلبث أحمد حسين أن يتجه إلى مفهوم « الانسان » نفسه كعامل جامع للأمم والشعوب تصل اليه الانسانية حتما بعد أن تخلص من صراعاتها وأوهامها ، فأرسل صيحته العميقة فى كتابه الضخم الثانى « الأمة الانسانية » .

ثم وصل سريعا إلى الغاية التى كان لابد أن يصل إليها منتهيا من حيث بدحين كتب كتابه « الاسلام ورسوله بلغة العصر » ذروة لفكره وعصارة لايمانه بالله وبالاسلام .

وكان فى أيامه القريبة وقبيل مرضه الذى يتقدم اليوم بعون الله منه إلى العافية ، غارقا فى كتابه زبدة مشاعره وعقله « محمد بنى الانسانية » .

* * *

فى ظلال هذا الجو الذى عاشه الأستاذ أحمد حسين سنواته الأخيرة التقينا فى ندوته أمسيات السبت منذ عام ١٩٦٥ حين كان مشغولا بكتابة : أزهار ، الدكتور خالد ، واحترقت القاهرة . التى صور فيها تجربته السياسية منذ عام ١٩٣٢ إلى عام ١٩٥٢ تقريبا .

وأنى لأذكر كيف لقيت الأستاذ أحمد حسين فى دار الكتب فى أواخر عام ١٩٦٣ يراجع الصحف اليومية فترة الحرب وجرى بيننا حديث عن السر فى إختياره هذا المنهج فى كتابه تاريخ مصر خلال هذه الفترة ، التى لم يؤرخ لها بعد ، وقد توقف العقاد عند سعد زغلول حتى وفاته سنة ١٩٢٧ وتوقف الدكتور هيكل فى مذكراته حتى عام ١٩٣١ وكتب عبد الرحمن الرافعى تاريخ هذه الفتـــرة فى كتابه (فى أعقاب ثورة ١٩١٩)

وبقى أن تكتب هذه الفترة على نحو يكشف عن جوانب الصورة من وجهة نظر

الذين شاركوا فيها فعلا ، وكان لهم فى أحداثها دور ، فلا شك أن دراسة هذه الفترة ضرورى لفهم العوامل الأساسية التى من أجلها برزت أحداث عام ١٩٥٢ وقد إستطاع أحمد حسين أن يقنعنى بأن كتابة تاريخ مصر على هذا النحو الفنى الذى إختاره فى ثلاثيته هو المنهج الأصلح وقد إرتضاه لأمرين :

الأول : أن القصة هى الفن الذى إختاره كبار الكتاب العالميين فى إعطاء الأحداث التاريخية قوة الحياة فى إطار صور إنسانية كاملة .

الثانى : أن المذكرات السياسية لاتلقى من القراء من يعنى بها إلا صفوة قليلة من الباحثين ، أما القصة فانها تجد مجالا واسعا بين الشباب ومن الحق أن يقال أن تجربته الواسعة وعمق فهمه للأحداث ، من تحويل عصارة هذه المرحلة التاريخية إلى عمل فنى ، أن المؤلف كان أحد الأشخاص المتحركين على مسرح الأحداث نفسها ، وأنه لم يكن مشاهداً يجلس فى صفوف النظارة ، وأن الأحداث قد أطبقت أخيراً عليه من خلال أزمة من أضخم الأزمات هى حادث « حرق القاهرة » .

ومن خلال ندوة الأستاذ أحمد حسين كانت المناقشات تجرى رخاء حول مفاهيم الأدب والتاريخ والقصة والفن والمؤلفات العالمية والعربية الحديثة ، وكان صاحب الندوة كثيراً ما يقرأ لنا مقالاته أو فصولا من ثلاثيته ، ويطالبنا بأن ننقد ونبدى الرأى وشهد الله لقد كان سمحا إذا كان كثيراً ما يتقبل ملاحظاتنا وملاحظات تلاميذه ويعدل ويحور ..

ومن حق أن هذه اللقاءات قد أتاحت الفرصة للتعرف عن قرب إلى شخصية عريضة ، فيها قدرة عجيبة على التطور والحركة ، مصممة على أن تحيا الحياة كاملة خصبة ، فهو عقل مفكر لا يكف ، وإحساس نابه لايتوقف ، لاينعزل أبداً عن موكب البشرية أو تطورها ، وهو متطلع دوما إلى الفكر الانسانى ، سائر

معه ، يحاول أن ينقل منه لأمته ، منذ عرف الطريق إلى العمل من أجل الوطن .

أما جذوره فهى واضحة قائمة لم تتغير ، أنها مصدر هذه الحركة وهذه الحيوية فهو مؤمن بمصر والاسلام ، مؤمن بأن هذه الأمة التى قادت الانسانية فى فجر الحضارة أعظم مكانة من أكبر الدول العالمية اليوم شهرة ، ومن هنا فهى لا تزول ويجب أن تأخذ مكانها الحق ، وهذا الايمان عنده مرتبط بمفهوم « الانسانية » المستمد من خلفية الفكر الاسلامى أساسا ، إخاءا وحرية وإيمانا بالله ، ومن خلال العلم والعقل دون أن يجعل للتهويمات أو الظلال مكانا .

فوضوح الرؤيا عنده يجعل قلبه دائما مساويا لعقله ، إن عاطفته الكبيرة الجياشة تدفعه فى قوة ، ولقد كانت تدفعه قديما فى عنف ، ولكن الأيام راضته فوضع مشاعره وعواطفه ، فى ضوء العقل ، واقتنع بها ومن ثم فليس لديه صراع بين العقل والقلب، ولكنه يعيش بهما معا أما أعماقه فهى أعماق المصرى العربى المسلم الأصيل ، ومشاعره وتصرفاته مهما غلفت بمفاهيم تولستوى الذى يحبه ، ذات جذور عميقة بالاسلام ، ومفاهيم هذه الأمة فى أعماق ضميرها ، فهو أصيل أصالة الفكر العربى الاسلامى ، وقد بلغ هذا العمق بالتجربة والرحلة والقراءة والبحث ، فقد أتاحت له الحيا تجربة عريضة على مستويات أربع :

الرحلة والسجن والناس والقراءة :

فهو من خلال ثلاثين عاما وتزيد قد جرى فى هذه الأفاق فبلغ منها أقصى ما يمكن أن يبلغه ، فيه طابع الزعامة الفكرية التى غلفها أول الأمر طابع الزعامة الوطنية — ولا أقول السياسية — فكانت صيحته تعبيراً عن ضمير الأمة فى الثلاثينات ، حينما تطوح أمر الحركة الوطنية بعد ثورة ١٩١٩ ، وبلغ الأمر فى السياسة مبلغ الاحتراف ، فلما أعلن صيحته كان يمثل روح هذه الأمة وضميرها ومن خلال الواقع السياسى لمصر كان يفتح الطريق لرؤيا جديدة فقد حمل معه دائما فكراً مجدداً ، كان ينظر إلى الأفق العالمى ، ويدعو هذه الأمة لتأخذ بالوسائل والأساليب المجددة فى سبيل إقامة نفسها فى المكان الحق لها ، فكانت دعوته منوعة فى مجال الاقتصاد والسياسة وبناء المصانع

بقروش الشعب و بناء الشباب في مجال القوة ، وتوالت دعوته وتطورت في مضمونها وأساسها وكان قوامها إعطاء هذه الأمة مكانها الحق وإبلاغها موضع الكفاءة والجدارة .

وإذا به يتطور مع النهضة فكلما بلغت مرحلة سبقها إلى مرحلة أخرى ، حاملا لواء كل دعوة ، يرى أنها ترفع من شأن هذه الأمة وتعلى قدرها ، وتحقق لها النهضة والقوة والحياة . صحيح أن وفرة الحماسة قد خف مظهرها بارتفاع السن ، ولكنها تحولت الى قوة فكرية ، كما تطور مجاله فلم تعد الجماهير الهادرة ، ولكنه متلبث في دائرة المثقفين والممتازين والصفوة من القارئين والباحثين .

ومايزال مجاله الفكرى مفتوحا إلى باحة كبيرة يتطلب العمل فيها عمراً مديداً فقد توسعت آفاق تجاربه ومطالعاته ولقاءاته ومشاهداته فى خلال رحلة العمر الطويلة العريضة التي إمتدت إلى آسيا و أمريكا و امتدت إلى ألوف الناس ومئات المثقفين والقادة في العالم كله ، وإلى قراءات لاحد لها فى الفكر والسياسة والاجتماع فى المجال العالمى كله . فاذا هو حى حياة المفكر القادر على العطاء وصاحب الرسالة التى لاتنتهى .

* * *

ولم يكن أحمد حسين مؤلفا وكاتبا وسياسيا فحسب ، ولكنه كان من أساطين المحاماه والخطابة ، من ذلك الجيل الرائد الذى عرف ببلاغة البيان وعبقرية القانون والقدرة الأخاذة على إجتلاء ناحية التعبير و الاقناع .

وهو كذلك فى ندوته بارع : مقنع ، يأخذ طرف الحديث فيصغى الجميع ، ويتسلل إلى القلوب والعقول بمنطق بارع فيقنع ، وربما يكون الرأى الذى أثاره فى أول الأمر موضع المعارضة ، لظلام حوله ، أو لخفاء فى بعض جوانبه ، فاذا هو يجليه فى براعة فائقة ..

يتحدث فى ندوته وجميع من فيها من تلاميذه ومحبيه ، ولكنه لايفرض الرأى ، ولا بتسلط ، بل يدع الكلمة تاخذ منطلقها والرأى يجرى كالماء النمير ، وفيما بين ذلك يعد الشاي الجميل الذى يغلى فى إنائه المنطى بالطاقية الصوف ، ثم تدور إكوابه الجميلة

مرة ومرة ، من خلال حجرة مكتبه العامرة بالمجلدات ودوائر المعارف ، و بين حديث ينقطع مرة ومرة ، لتلبية لنداء الهاتف ، والداعى متسم بالبشاشة ، والشباب ، وما زال وهومقيم فى بيته يعمل ويقرأ ، فلا ينقطع عن محبيه إلا يومى الخميس والاثنين حيث يلجأ إلى عزلته معتكفا صامتا ، صائما عن الطعام والكلام سحابة يومه ، وهو إلى ذلك حفى بالأصدقاء و الأحباب ، يذكر فضل الله أن كتب له الحياة بعد أن مر بأزماته التى تخطاها وأشدها هولا محاكمته بتهمة حرق القاهرة ، وموت القاضى فجأة قبل الحكم ، ثم تحرك العهد الجديد الذى قضى على العهد السابق كله ، ومن هنا يرى أن عمراً جديداً له قد كتب ، هنالك تحولت نفسيته تحولا كاملا إلا السلام أو التصوف الرفيع المستعلى على مطامع الحياة ومظاهرها ، وغرورها ، المنقطع إلى العلم والقراءة فى تسامح وإخاء وحب يغمر كل شىء حوله ويضفى على أجوائه كلها روحا من الوداد .

وكانت أمنيته الكبيرة التى عاش لها عامى ١٩٥٨ /١٩٥٩ هى كتابه لتاريخ مصر منذ مطالع التاريخ إلى اليوم ، وقد أشرك الدكتور أحمد عبد الكريم وأشركنى معه ، ثم سابقنا كالريح ، فكتب أكثر من خمسة آلاف صفحة من موسوعة جديدة

وفى ضوء الندوات أيام السبوت كان تاريخ مصر ،موضع العبرة ، وكانت الصور المتوالية التى يراجعها موضع الحديث ، فكنا نزداد أسبوعا بعد أسبوع علما ، وفهما وعمقا بتاريخ مصر ، الذى يحبه ويشغف به إلى جوار شغفه بالانسانية كلها و بالاسلام وهو لا يرى فى ذلك تناقضا فهى كلها جداول تلتقى فى نهــر هذه النفس الطموح المؤمنة بالله و الانسانية والاسلام ومصر كنانة الله و الانسانية والاسلام .

واليوم والأستاذ أحمد حسين فى أزمة مرضه الذى تتصل رحمة الله به فترفع الضر عنه يوما بعد يوم ، تتطلع القــلوب إلى عود ليس على الله بعيد إلى هذه الاسمار والامسيات العاطرة على ضفاف النيل الخالد قبيل كوبرى عباس من الروضة يتجدد فيه النفوس والأرواح بزاد العقل والقلب . وماذلك على فضل الله بعزيز .

الباب الثانى

فى تاريخ الأدب

(١) المعارك الأدبية بين شوقى ونقاده .
(٢) المعارك الأدبية بين طه حسين وكتاب العصر .
(٣) أطروحات الدكتوراه فى الغرب .
(٤) الفلسفة المكتوبة باللغة العربية .
(٥) حوار آراء طه حسين .
(٦) إرهاصات صهيونية فى الأدب المعاصر .

الفصل الأول

المعارك الأدبية بين شوقى ونقاده

كانت شخصية شوقى عاملا هاما فى معارك النقد التى أثيرت حول شعره، وحول شخصيته فقد كان يخشى النقد خشية شديدة، وكان يترضى نقاده بكل وسائل الارضاء وكانت لشوقى صحف ومجلات تدافع عنه، وتعيد نشر شعره القديم، وفى مقدمتها «عكاظ» و «الصاعقة». وكان شوقى بعد عودته من المنفى عام ١٩٢١، وقد تخلص قيود القصر التى سبقت النفى، يحاول أن يصادق مختلف الأحزاب، وكانت هذه الأحزاب تتصارع وتتعارك على إسترضائه وتقريبه. وكان كتاب الشباب فى هذه الفترة يلتمسون من نقده وسيلة إلى الشهرة، كما يجد بعض الصحفيين من نقده وسيلة إلى الكسب، وهكذا ظل شعر شوقى موضع نقد الكتاب وتقريظهم طوال حياته وقد شارك أغلب كتاب مصر فى هذه الفترة فى «نقد» شعر شوقى ومهاجمته، وفى مقدمتهم طه حسين والعقاد والمازنى. وكتب الدكتور هيكل مقدمة (الشوقيات) ثم إختلف مع شوقى من بعد، غير أن هؤلاء الكتاب جميعا لم يلبثوا بعد وفاة شوقى أن غيروا رأيهم فى شوقى وعادوا الى إنصافه، وخففوا من غلواء آرائهم القديمة ...

معركة الديوان :

ويمكن القول بأن أولى المعارك وكبراها هى معركة الديوان، فقد أصدر العقاد والمازنى كتابا تحت عنوان «الديوان» عام ١٩٢١ (صدر فى جزئين ثم توقف) وقد ضم دراسة مطولة لشعر شوقى، ودراسات أخرى من المنفلوطى، وعبد الرحمن شكرى وقد هاجم العقاد شوقى فى هذه الدراسة هجوما شديداً حيث قال: «كنا نسمع الضجة التى يلقيها شوقى حول إسمه فى كل حين، فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات فى البلد لا استضخاما لشهرته ولا لمنعة لأدبه عن النقد، فان أدب شوقى ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه فى إعتقادنا أهون الهينات، ولكن تعففنا عن شهرة يزحف اليها

زحف الكسيح ، ويضن عليها من قوله الحق ضن الشحيح ، وتطوى دقائق أسرارها على الصريح ، ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا أرادوا شيئاً بسبب يقنعهم لم يبالوا أن يطبق الملأ الأعلى والملأ الأسفل على تبجيله والتنويه به . فلا يعنينا من شوقى وضجته أن يكون لهما فى كل يوم زفة وعلى كل باب وقفة ، فاذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول والزمور فى مناسبة وبغير مناسبة وبحق أو بغير حق فقد تبوأ مقعد المجد ، وتبتسم مقعد الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر وسحقا للمقدرة والانصاف وبعداً للحقائق والظنون ، وتبا للخجل والحياة . فان المجد سلعة تفنى ولديه الثمن فى الخزانة ، وهل للناس عقول .

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقى ، ممن لايمدح الناس إلا مأجوراً ، فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق المنتنة تعنى بها بعض الصحف الأسبوعية ، وعرف من لم يعرف أنها ما خلقت إلا لسلب الأغراض والتسول بالمدح والذم ، وأن ليس للحشرات الآدمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء وذوى المآدب خبز مسموم تستمرئه تلك الجيف التى تحركها الحياة لحكة كما تحرك الهوام وخشاش الأرض ، هذه الصحف الأسبوعية وهذا شأنها ، وتلك أرزاق أصحابها تكيل المدح جزافا لشوقى فى كل عدد من أعدادها ، وهى لاتنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو أثراً يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل الأسباب وإقتناص الفرص ، فان ظهرت له قصيدة جديدة ، وإلا فالقصائد القديمة المنسية فى بطون الصحف . .

لقد استخف شوقى بجمهوره ، واستخف واستخف حتى لامزيد عليه ما كفاه أن تسخر الصحف سراً يسوقه إليه ، وإختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده أجرة سوقه وإختلاسه .

إن امرءاً تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ ، لايدرى مما يستنكف فى سبيل بغيته ، وأى باب لايطرقه تقربا إلى طلبته ، والحق أن تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد به كل مورد ، وأذهله عما ليس يذهل عنه ، بصير أديب ، . . الخ » .

هذا نموذج من نقد العقاد لشوقى . وقد بلغ هذا النقد (٩١ صفحة) فى جزئى الديوان وتناول عشرات المواقف من شعر شوقى من خلال ميزان حدده العقاد فى أمرين :

الأول : أمر وحدة القصيدة وعنده أن أى قصيدة لشوقى يمكن تغيير مواقع أبياتها ، فلا يؤثر ذلك فى وحدة نظمها . والثانى : قدرة الشعر على مضمونه إذا ترجم إلى أى أخرى ، وعنده أن شعر شوقى لا يثبت لهذا العمل .

هل كان شوقى يرد على نقاده :

والمعروف أن « شوقى » لم يكن يواجه مثل هذه الحملات بالرد الصريح . بل كانت له صحف وكتاب ينفق عليهم . ومن أهم هذه الصحف مجلتان هما « عكاظ » لصاحبها الشيخ فهيم قنديل . و « الصاعقة » لمحررها أحمد فؤاد .

وقد واجهت مجلة « عكاظ » ظهور « الديــوان » بحملة متصلة تحت عنوان : « القافلة تسير » فى عشر مقالات تحت أسماء (النزلة الأولى ، الثانية ، الثالثة الخ . وقد وسمت فيها « العقاد والمازنى » باسمى البربرى والقزم . وقالت عكاظ أن من أكبر أخطائها أنها هى التى أخرجت للناس العقاد والمازنى من حشرات الأرض « أردنا أن نمهد لهما طريق الرزق ، وأن نخرجهما من حياة البطالة والكسل ونعودهما العيش فى طرقه الشريفة ، فألحقناهما بتحرير عكاظ فى أول نشأتهما ، واحتملنا فى سبيلهما وفى سبيل ما كانا ينشرانه من المطاعن والمثالب ، فلما امتلأت البطون ظهر اللؤم والانحطاط ، ما نسى الناس من شىء فلن ينسوا طيش المازنى وخفته ، ولا رعونة العقاد وحماقته » .

ثم أشار إلى أن المازنى والعقاد كانا يمدحان شوقى أولا ، ثم استخدمهما حافظ إبراهيم « للنيل على النبوغ . والعبقرية ، ومن فخر النــاطقين بالضاد فى ذات أمير الشعراء شوقى » وقال : « لم يغتبط أمير الشعراء قبلا بمدح العقاد له . بل غضب وتألم ولم يشعر بذمة الآن بل ضحك وتبسم » .

وقال : « إن العقاد والمازنى يطمعان فى الشهرة ويدعوان إلى مذهب لا

لايعرف ويقولان شعراً لا يفهم و نثراً لايهضم» وقال إنهما يهاجمان شوقى . «وشوقى لا شاعر اليوم مثله ، أخمل الأقدمين بمتانة لفظه وناصاعة أسلوبه » وأن « شوقى ليس فى حاجة إلى التنويه بمجده ، والدفاع عن شعره » وهتف يقول : « ياشوقى ياشمسا مشرقة وقمراً منيراً ، ياكمالا مطلقا ، وكتابا قيما » .

وفى مجال نقد العقاد لشوقى أورد الشيخ فهيم قنديل قولا لشوقى : « أنا لا أدفع أجر المن يمدحنى ويطعن فى غيرى » وقال ان هذا هو ذنب أمير الشعراء فى نظر عباس العقاد وإبراهيم المازنى .

وفى مقال آخر قال : أليس من الجنون والحماقة أن يحاول ما نعان كالعقاد والمازنى — وهما من نعرف — إنزال شوقى من العرش الذى يتبوءه فى قلوب الناس ، وقال: إذا قرأت أوراق الشتائم[1] حسبت أن صاحبيها ينقدان شوقى أمير الشعراء. فاذا بحثت عن قياسهما وحجتهما وجدتهما يتهمان الشعر العربى كله بالقصور والضعف، فاذا شئت أن تصل إلى غاية الناقدين. فانظر إلى القياس الذى جعلاه حداً بينهما وبين الشاعر تراهما لايقيسانه بمقياس عربى ، ولا بأصول معروفة يقاس بها شعراء العرب عامة ولو أتبعنا طريقتهما فى النقد ، وأتينا بكثير من شعر المتنبى ومعـــانيه وأخيلته . وكلفنا من ينقلها إلى الأوربى بلغته ، وجعلنا حسن إستقباله إياها ،وقوفا على أنه لا ينكرها لقلب القياس وأتهم العرف وأنكر أكثر الشعر العـــربى » ويدور رد الشيخ فهيم قنديل حول عبارات قاسية وكلمات مكشوفة ولا يتصل كثيراً بالنقد العربى الأصيل أو العبارة العفيفة .

معركة تكريم شوقى :

أما المعركة الكبرى الثانية فقد وقعت عام ١٩٢٧ عندما أعلن عن حفل تكريم شوقى ، دعى إليه أعلام الفكر فى العالم العربى وأقيم فى الأوبرا تحت رياسة سعد زغلول رئيس الوفد المصرى ، وكان العقاد وهو كاتب الوفد الأول قد طلع فى يوم التكريم بمقال فى إفتتاحية البلاغ تحت عنوان (تكريم النوابغ) هاجم فيه شوقى

---

(١) إشارة إلى كتاب الديوان الذى أصدره العقاد والمازنى .

هجوما عنيفا . وكان مما قاله : إذا كان الاكرام حقا لكل نابغ من نوابغ العلوم والفنون . فقد يكون الشعراء والأدباء ورجال الفنون الجميلة أحق به من سائر النوابغ لهذا نستبشر بالتفات الشرقيين إلى تكريم الشعراء والعلماء ، ونود أن نرى تكريما كريما لا (إعلانا) يشترى بالمال أو بالمصانعة والمجاراة .

وإن لنا فى شعر شوقى وفى صاحب الشعر رأيا معروفا لا يحولنا عنه ما يحول الناقدين والكاتبين فى هذه البلاد .

أما الشعر فمجمل رأينا فيه أنه لم يرتفع بنفس قارىء واحد إلى أفق فوق أفقه ، ولم يفتح لقارىء واحد نهجا من الاحساس أوسع من نهجه ، ولم يعلم أحداً كنه الحياة ولا زين لأحد شيئا من صور الحياة .

أما صاحب الشعر فمجمل رأينا فيه أننا لم نرى ولن نرى ولم نسمع ولن نسمع برجل مثله نصب للتكريم فى أمة تفهم معنى الكرامة والرجولة ، ولا نظنه — على الرغم من كل شىء — يستوجب من أحد عرفانا بحق أو تنويها بفضل ، فانه هو لا يعرف حقا لانسان ولا يطيق أن ينوه بفضل انسان . ثم قال : إن ضجة التكريم من بدايتها إلى نهايتها إن هى إلا دعاية شوقية يقوم بها الرجل لنفسه ويستخدم فيها ماله ووسائله التى ما فتىء يستخدمها فى بلد الدعاية وشراء الثناء .

وبهذا نفسر كيف أن جميع البادئين بالدعوة إلى « التكريم » هم أصحاب شوقى وزملاؤه فى « المعية الخديوية » وممن لا علم لهم بالشعر ، ولا إشتغال لهم بالأدب . فشفيق باشا ومحمد على دولار وأمين واصف وحافظ عوض وغيرهم قوم لا جامعة بينهم إلا أنهم زملاء شوقى فى المعية الخديوية . ويبقى بعد ذلك دليل الاجماع من الصحف المأجورة على الترويج والتجنيد ونفخ المزامير ودق الطبول ، فلو أن هذه الصحف المأجورة أكرمت أحداً قط لفضل مأثور أو لسجية محمودة أو لو أنها ذكرت غير شوقى مره كلما ذكرت شوقى عشراً لقلنا صحف تعرف الحق وتهتم بالشعر ، وتجل من يستحقها من الاجلال ولكن السر واضح من ذاك ، وشأن هذ الصحف أظهر من أن يخفى على إنسان .

بل مالنا لا نقول أن شوقى ما برح يحتال على الصحف اليومية منذ سنة ليسكتها أو ليسير بها فى زفة التكريم والتهليل ، بل مالنا لا نقول : إن هذ الرجل لا يعرف الوفاء ولا يبذل من عاطفته شيئا إلا فى غرض من أغراض الأنانية والاعلان ، ولسنا نذكر التقلب فى السياسة ، ولا التذبذب بين الزعماء ، ولا الرياء الذى تكشف حتى صار ضربا من الصدق الصراح ، فهذا كله من صفات شوقى التى بطل فيها القول ، وأتفق عليها الخصوم والأنصار .. الخ .

عدد السياسة الأسبوعية :

وفى هذه المناسبة أصدرت السياسة الأسبوعية عدداً خاصا عن شوقى ، حوى ما ألقى فى حفل التكريم وإلى جانبه خمسة وعشرون مقالا ودراسة ، وقد تنوعت هذه البحوث من أقلام متعددة فى دراسة جوانب شوقى ، وكلها التقدير والتقريظ ماعدا مقالين : أحدهما للعقاد والآخر للمازنى ، وقد عرفنا رأى العقاد فى شوقى وشعره . أما المازنى فقد كتب يقول : لا ياسيدى هيكل : تقيمون كل هذه الضجات والفوضاء حول شوقى وتحفونه بالزمر والطبل من أرجاء المعمورة كلها ، ثم تعمدون إلى رجل خفيض الصوت مثلى ، وتدعونه أن ينهض وسط هذه الزفات المجلجلة ليفضى لكم برأيه الصريح ، لقد خطر لى فى هذه الورطة أن أنقل صفحات مما كتب العقاد فى نقد شوقى وأذيلها بكلمة أقول فيها : «ليس بعد هذا كلام لناقد وناقل الكفر ليس بكافر » وأخرج أنا ولا لى وعلى ، وأدع العقاد مورطا مكانى ... إنى سيء الظن بهذه الحفلات ، وأنها لاتدل على شيء ، ليس الخلود هو الشهرة ، أودهان الاخوان إنما الخلود هو أن تبقى روح الرجل فى خواطر الناس و نفوسهم . وما أحق من تصفح أذنه هذه المعانى الجليلة أن يشيح بوجهه عن ضجات الثناء المجلوب . وأن تتجافى بنفسه عن الزهو بها . وليس شوقى عندى بالشاعر ولا شبيهه ، وإنه لقطعة قديمة متلكئه من زمن غابر لا خير فيه ، يغنى عنه كل قديم ، ولا يضيف هو إلى قديم أو حديث ، وما أعرفنى قرأت له شيئا إلا أحسست أنى أقلب جثة ملئت صديدا وشاع فيها الفناء علوا وسفلا .

لهذا نقول أن مقياسنا كان ومازال « إن الجيد فى لغة جيد فى سواها »

والأدب شيء لايختص بلغة ولا زمان ولا مكان ، فمن كان يكابر بالخلاف فى أن شعر شوقى كما نصف ، فما عليه إلا أن يتناول خير ما يذكره ، وأبرع ما فى رأى أنصاره ، ثم فلينقله إلى لغة أخرى ، ولينظر بعد ذلك مبلغه فى الفساد والاضطراب والاعتساف والشطط والغلو من الصدق والعجز عن صحة النظر ، وليت كل عيب شوقى أنه من لا يسمو من المطروق ولا المألوف والمبتذل ، إذن لكانت له على الأقل مزية القطنة إلى ما كانت له فى زمنه طلاوة الجدة . فان المطروق اليوم كان مبتكر الأمس ، والمرء إما أن يكون شاعراً أولا يكون ، ولا وسط هناك .. الخ

موقف أنصار شوقى :

ما كاد عدد السياسة الأسبوعية يصدر حتى واجه حملة ضخمة من النقد من أنصار شوقى ، فأصدرت مجلة « عكاظ » عدداً خاصا بتكريم شوقى وكتبت مقالا تحت عنوان « حساد شوقى » ثم نشرت مقالا مطولا آخر فى العدد التالى .

وكان مما قاله الشيخ فهيم قنديل : « نجحت مصر فى تكريم شوقى بك » وما يرجع الفضل فى هذا إلى شفيق باشا ولا إلى حافظ عوض ولا إلى نعمان الأعصر ولا إلى أضرابهم وأشباههم . وإنما يرجع إلى نبوغ شوقى وعظمة شوقى .

أما أهل الثقافة والقائمون بأمر « السياسة » أما أعداء النبوغ وخصوم العبقرية أما السفهاء والأدنياء ، أما السفلة الطغام والفجرة اللئام ، أما هؤلاء الحاقدون جميعا فقد طلعوا ينبحون وخرجوا يعربدون . كيف تتهيأ الفرصة ولا ينتهزها فلان وفلان للطعن فى شوقى والنيل من شوقى ولهما عند شوقى أجور لم تسدد وحقوق لم ترد كيف تريدون من رجلين كانا وما يزالان يطمعان فى مال شوقى ولهما ثأر قديم عند شوقى ولم يعرفا الا عن طريق الطعن فى شوقى ، كيف تريدون من هذين الرجلين وقد دعتهما « السياسة » إلى ذم شوقى أن يتورعا عن ذم شوقى . وكيف يكون شوقى أمير الشعراء وسيد الأدباء ، وهو يأبى أن يعطى بعض الشعراء والأدباء ، وهو

لا يجعل ماله نهبا يتقاسمه الشعراء الخلعاء، ما يقصد هؤلاء « الفجرة » إنتقاداً أدبيا ولا إصلاحا لغويا ، وإنما يقصدون الازدراء والعيب وشفاء حرارة الحقد :

إنكم طلاب نكاية لا هداية ، أتنالون من شوقى ، أتحجبون شمسه أم تطفئون نوره ، أتهدمون الجبل .. الخ

هيكل يدخل المعركة :

ولم يلبث الدكتور هيكل أن دخل المعركة فكتب مقالا تحت عنوان «أخلاق شاعر الأخلاق : نحن وشوقى بك» .

ومما قاله : على أثر ظهور عدد السياسة الأسبوعية الخاص بتكريم شوقى بك رأيته مغتبطا به ، راضيا عنه ، مؤثراً إياه على ما يذهب فى الهواء من ضجيج الطاعمين والكاسين ، ثم رأيت بعد أيام من ذلك جرائد تأخذ على السياسة الأسبوعية إباحتها نقد شوقى بك فى العدد الذى خصصته لتكريمه وسمعت من أقرب الناس إلى شوقى ترديداً لنغمات هذه الصحف ، وأسر إلى بعضهم فى مجلس كان شوقى بعض حضوره ما يعبر عن ذعر أمير الشعراء من أن يظهر عدد السياسة الذى يلى يوم التكريم ، وفيه شيء من مثل النقد الذى ظهر فى عدد التكريم ، فعجبت كيف إنقلب إغتباط شوقى ذعراً ، وكيف بلغ به خوف النقد هذا المبلغ ، وهو الذى طالما أخبرنى أن النقد لا يهز مجداً مكونا ، وبعد أيام علمت أن شوقى لفق بعض أخبار عن السياسة ومحرريها . وإنطلق جماعة من صبيانه يذيعونها فى القهاوى وفى الطرقات فاصغرت ذلك منه وأعرضت عنه وأبيت أن أحدثه فيه كيلا أحرجه بهذا التدلى إلى حضيض الخلق ، وبقيت بمعزل عنه راجيا أن يثوب إلى رشاده يوما . ولكنه لم يقف عن رواية أخباره الملفقة وإرسالها على ألسن صبيانه ، بل جرت السفاهة على صفحات أثيرة ينفق عليها لتصفق له ، ويدير تحريرها باسم مستعار لتنال من أعراض من يحسبهم خصومه . . (وذكر نصا لما ذكرته عكاظ) بإزاء ذلك لم يكن بد من أن أبين للرأى العام ماحدا بشوقى إلى نزول هذه المنزلة ، وإنه ليحز نى والله أن أقف من شوقى هذا الموقف :

ولو اضطررت إليه إضطراراً ، فلست بالرجل يهدم الماضى ويهدم الصداقة ، ويحنث فى حق ما أكرم يوما من الأيام ، ولشوقى يد عندى يحزننى أن تشوبها شائبة ، وكنت أود أن تظل مقدسة قداسة الذكرى التى تثيرها فى نفسى . وبعد فما الذى أثار حفيظة شوقى وأغضبه حتى جعله يتدلى إلى ما تدلى إليه ! .

وذكر هيكل كيف عرضوا على شوقى إصدار عدد خاص من السياسة . وقال : « واغتبط شوقى لذلك اغتباطا وبعث إلينا كى يزداد هذا العمل كمالا ببعض صور له لم تكن نشرت وتردد علينا أثناء إعداد العدد للطبع وطلب إلينا فأجبناه إلى عدم نشر مقال معين ، ثم ظهر العدد مقدما بكلمة السياسة الأسبوعية «شوقى بك علم البيان فى الشعر العربى فى هذا العصر الحاضر » .

وقف شوقى من هذا العدد الموقف الذى أشرنا إليه ، ففيم كان الاغتباط ثم الفزع ثم الاضطراب والتلفيق ، أنا لا أستطيع أن أجد لهذا التطور العجيب مبرراً من رواية أو تفكير ، وإنما هو استسلام النفس للبطانة من الصبية ، وسوس إليه الصبية المتملقون أنهم لا يرضون عن أن ينقد ، ويعتبرون أى نقد له جناية على مجده تكاد تثله ففزع ثم اضطرب ثم لفق ثم لجأ إلى الاسم المستعار . كنت أود ألا يطلع الناس من شوقى إلا على شعره ، وأن يقفوا من شخصه عند سماعهم به ، ولكن حركته الدائمة وحركة صبيانه لا يصح أن يترك بغير حساب ، وليطمئن شاعر الأخلاق أنا لا ننازله فى الميادين التى يعرفها . فهو يعلم أننا نعلو عن ذلك علواً كبيراً ، ومازلت أرجو أن يرتد جانب من الحكمة التى استظهرها فى الشعر إلى قلبه ، فيرد إليه صوابه ، وأن تبرد الأيام غلته فيرى عبث من اصطفى من بطانته فيعاوده شىء من حسن التقدير وسلامة الحكم ».

وعادت عكاظ إلى مهاجمة « السياسة الأسبوعية » والدكتور هيكل بالذات وقالت : « إن الدكتور هيكل من المعروفين بالتقرب إلى شوقى والسير فى ركبه والاشادة بذكره فماذا جرى حتى ينقلب الاعجاب إستخفافا ، إن رجلا غير الدكتور هيكل كان فى مكانه فى تحرير السياسة وهبط عليه الوحى كعادته فى كل يوم بأن يحول الدفة من مدح شوقى إلى ذمه ، قبل أن يجف مداد مدحه لتريث كثيراً ، ولكنه رجل مثله مثل

البوق فى فم النافخ لأنه لا إرادة له فى شىء ، ونحن نعلم أنه طالما دلف إلى « كرمة بن هانىء » وانحشر فى زمرتها وذاق طعامها وشرابها .

هل يستطيع رئيس تحرير السياسة أن يذكرنا أين كانت تلك المثالب التى يحاول أن يحيط بها سمعة أمير الشعراء يوم أن كتب مقدمة ديوانه ، ويوم تطوع للإشتراك فى تكريمه واستنفار الأقطار العربية لارسال وفودها ، وأين كان يوم جمعت السياسة ورئيس تحريرها على شوقى فضائل الدنيا وأنزلته منزلة الملائكة والقديسين .

يادكتور هيكل : كان أجدر بك أن تكون آخر من يذكر الأسماء المستعارة والصحف المأجوره ، وآخر من يقف أمام شوقى بك موقف المخاصم أو البذىء .

وقالت جريدة عكاظ : إن حزب الأحرار الدستوريين كان يطمع فى أن يتولى رجاله قيادة حفل تكريم شوقى ليكون هذا كسبا سياسيا لهم ، فلما حيل بينهم وبين ذلك عادوا فهاجموه ، والمعروف أن سعد زغلول زعيم الوفد كان رئيسا لحفل تكريم شوقى .

معارك طه حسين

ولطه حسين مواقف متعددة فى نقد شوقى ، نشرها فى مناسبات مختلفة . وهذا نموذج منها : «لغيرى أن يمدح شوقى بلاحساب ، أما أنا فلا أريد أن أمدح ولا أريد أن أذم ، وإنما أريد أن أنقد وأن أوثر القصد فى النقد ، وأظن أنى أجل شوقى وأكبره بالنقد أكثر من إجلالى إياه بالتقريظ والثناء . وقد شبع شوقى ثناءاً وتقريظا . وأحسبه لم يشبع نقداً بعد ، وليس شوقى فيما أعلم منه شرها إلى حسن الحديث وطيب المقالة .

قرأت مقدمة هيكل (لديوان شوقى) وكنت أظن أننى سأظفر بشىء صريح فى العقيدة الشعرية لشوقى فيما كتب هيكل ، أترى أن مصدر ذلك أن ليس لشوقى عقيدة شعرية يستطيع هيكل أن يعرضها . أم ترى أن مصدر ذلك أن هيكلا لم يعن بشعر

شوقى عنايته بشعر أناتول فرانس . الواقع أننى لا أعرف لأمير الشعراء عقيدة صريحة فى الشعر ، وما أرى أنه قد حاول أن يكون لنفسه هذه العقيدة ، وما أرى أنه فكر فى الشعر إلا حين يقوله ، وإنما هو كما يقول هيكل فى شىء من الدهاء :

« مجدد حينا ومقلد حينا آخر » وهو فى تجديده وتقليده لا يصدر عن عقيدة فنية واضحة ، وإنما يتأثر بالساعة التى يتهيأ فيها لقول الشعر ، وبالظرف الذى يقرض فيه الشعر ليس غير . والحرج ظاهر فى مقدمة هيكل كلها وإن شئت فقل إن المجاملة ظاهرة .

ويقول : كان شوقى مجدداً ملتوى التجديد « ويمضى الزمن » فإذا تجديد شوقى يستحيل شيئا فشيئا إلى تقليد حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء لا يتستر فيه ولا يحتاط ، ينشىء القصيدة فلا تحتاج إلى تعب أو مشقة لتجد القصيدة القديمة التى يحاكيها »

مفهوم النقد عند شوقى :

وتحدث شوقى عن رأيه فى الشعر على أثر معركة « القديم والجديد » فأرجع الخلاف بين الشعراء إلى اختلاف بين مشاربهم وأهوائهم ، قال : ليس بين الشعراء قديم ولا جديد ما دام الشاعر يروى فى كل عصر فهو ابن الماضى والحاضر والمستقبل : والشعر وحى يهبط على نفوس الشعراء ، وليس اختلاف هؤلاء إلا اختلاف نفوسهم فى الحس والأهواء والنزعات ، وأولئك الذين يطلبون أدبا مصريا غير شائع فى العالم العربى ، ولا يستوحى الأدب العربى القديم . إما أن يخلقوا لمصر لغة أخرى بسخروتها ويعبثون بها كما يشاءون ، وإما أن يستوحوا للأدب المصرى المزعوم لغة من لغات الغرب ، ولن يكون هذا الأدب يومئذ إلا علماً مزيفاً على مسمى لا فضل لهم فيه إلا فضل الترجمة عن قوم يتكلمون بغير لساننا ».

* * *

ويرى مؤرخو شوقى ونقاده فيما يشبه الاجماع بأن شوقى كان يخاف النقد ويخشاه وكان من أجل ذلك يسارع إلى ترضية كل من يتناوله . وكانت هناك مجموعة من أصحاب الصحف تعمل على الارتزاق بهذه الوسيلة .

يقول : أحمد محفوظ مؤلف كتاب حياة شوقى « كان شوقى على عظيم مكانته وعلى قدمه الراسخة فى الفن لا يستقر من الدأب بين دوور الصحف ، كذلك مائدته لا ترفع أطباقها ، ولا يطوى غطاؤها ، فهى دائما محفوفة بالصحفيين وغيرهم ممن تخشى أقلامهم ويخاف نقدهم ، وفى الحق أنه هو الذى صب على نفسه هذا البلاء . فقد أغرى به جزعه الشديد من النقد كل هؤلاء السادة فقد عرفوا ضعفه فى هذا السبيل فاستغلوه .

يقول : وقد غضب على مرة غضبا شديداً لأنى كنت قرأت فى إحدى الصحف نقداً لشعره فقال لى : يا أخى هل من اللازم أن تبلغنى شتيمتى ، أنا لا أقرأ هذه الصحف ، ولم يكن صادقاً فقد كان حريصا على قراءة هذه الصحف ، ودليلى أنه أرسل إلى صاحب هذه الصحيفة فى اليوم التالى لنشره النقد وأعطاه وخلع عليه ولم أره جازعا يوماً كيوم ظهور كتاب الديوان للعقاد والمازنى . وفى الحق أن العقاد لم يكن يعنى إرضاء الفن فى هذا النقد بقدر ما كان يعنى شيئا آخر . كان يعنى الشهرة على حساب هذا النقد . وقد أطلق شوقى أصحاب الصحف الصفراء الذين كانوا عبيدمالة على هذه الجماعة فاعملوا فى إعراضهم تمزيقاً وفى أدبهم هدما وكان هذا ما يبغونه لأنه كان سبيلهم إلى الشهرة .

هل غير النقاد رأيهم فى شوقى

ويقتضينا الانصاف أن نذكر أن معظم نقاد شوقى وفى مقدمتهم : المازنى والعقاد وطه حسين قد غيروا رأيهم بعد أن توفى شوقى عام ١٩٣٢ .

يقول المازنى . « أصدرنا — العقاد وأنا — كتابا فى النقد أسميناه (الديوان) وكان الغرض من هـذا الكتاب أن نشرح للناس مذهبنا الجديد فى الأدب بنقد

المعاصرين وقد تولى العقاد نقد شوقي والرافعي ، وتوليت أنا نقد المنفلوطي . وطارت إشاعة مضحكة خلاصتها أني أنا ناقد شوقي والرافعي — والعقاد ناقد المنفلوطي

وطارت إشاعة مضحكة خلاصتها أني أنا ناقد شوقي والرافعي والعقاد ناقد المنفلوطي
واننا تبادلنا التوقع وصدق شوقي هذه الاشاعة » وأشار المازني إلى أنه دعي إلى تناول الغذاء مع أمين الرافعي وعبد العزيز جاويش ، ولم يعرف إلا عندما بلغت السيارات بهم كرمة بن هانيء أنهم في ضيافة شوقي ، يقول : واحتفى بي شوقي ، وقال لي الشيخ جاويش في الطريق : أظنك الآن غيرت رأيك في شوقي . فقلت ببساطة : بأكلة ! فقال معاذ الله ، ولكنك رأيت كيف يكرمك الرجل وأنا أرى أن من الخير أن تكف عن نقده فدهشت فما كنت نقدت شوقي قبل ذلك ، فلما أفضى إلي بالاشاعة ضحكت وقلت : هي إذاً أكلة على حساب العقاد ! ! ولم يذكر المازني أنه هاجم شوقي في عدد السياسة الخاص بتكريمه » ثم تحدث المازني عن رأيه الجديد في شوقي فقال : إن شوقي كان من أنضج شعراء طبقته ، وكان أدقهم تعبيراً وأبلغهم ، ومازال رأيي في شعره كما كان ، وهو أنه كان في صدر حياته أشعر منه في أخرياتها ، ولكنه في العهد الأخير كان أبلغ عبارة وأعلى بيانا ، وأنه كان ذا حيوية عجيبة ، ومن ذلك أنه إقتنع في شيخوخته بأن نظم القصائد على الطريقة القديمة التقليدية عبث وباطل فتحول إلى وضع الروايات الشعرية التمثيلية ، وطمع في أن يكون في الأدب العربي كشكسبير في الأدب الانجليزي . .

. . رحم الله شوقي فقد كان عنوانا ورمزاً لمصر في الشرق العربي كله ، وأكبر ظني أن إسمه سيظل مذكوراً في تاريخ عصره مهما بلغ اختلاف الناس في أمره » .

أما الدكتور طه حسين فقد عاد فأنصف شوقي حين قال : إنه — أي شوقي — بعد أن عاد إلى مصر من المنفى تحول تحولا خطيراً حقا لا نكاد نعرف له نظيراً عند غيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أدبنا العربي ، وتحول من ناحيتين خطيرتين : فأما إحداهما فهي أن شعره التقليدي تحرر من التقليد بظروف السياسة فانطلق وكاد شعره يصبح صورة لأهواء الشعب من حوله وليوله . هذا الشعب بكل قوة وبكل حرية . كان الشعب إنما كان ينطق بلسانه . والناحية الثانية هي أنه فجأة استكشف نفسه . وإذا هو شاعر قد خلق ليكون مجدداً . فأقبل على التجديد في السنين الأخيرة من حياته . فأدخل في اللغة العربية وفي الشعر العربي خاصة فنا جديداً لم يسبقه أحد إليه . وهو فن التمثيل الشعري . . ومهما يكن من شيء فحسب شوقي أنه قد رد إلى الشعر العربي قوته ورصانته ومتانته .

وحسبه أنه بعد البارودى . الشاعر الذى رد الشعر العربى إلى حياته الأولى .

وعدل العقاد رأيه فى شوقى فقال : هو إمام مدرسة يستطيع أن يسميها بمدرسة التقليد المبتكر أو التقليد المستقل . لم يكن شوقى من المقلدين الآليين الذين يلتزمون حدود المحاكاة الشكلية . ولا يزيدون . ولم يكن مع المجددين الذين يعطون من عندهم كل ما أعطوه من معنى وتعبير . ولكنه كان يقلد ويتصرف . وكان تصرفه يخرجه من زمرة الناقلين الناسخين . ولكنه لا يسلكه فى عداد المبدعين الخالقين . الذين تطبع لهم « ملامح نفس مميزة » على كل ماصاغوه من منظوم أو منثور . فهو قد نشط بالشعر من جمود الصيغ المطروقة والمعانى المكررة . ولكنه لم يستطع أن ينتقل به من شعر القوالب العامة إلى شعر الشخصية الخاصة التى لا تخفى معالمها ولا تلبس بغيرها . وخلاصة القول فيه أنه مقلد مبتكر . أو أنه مبتكر مقلد . فلا هو يقتفى آثار الأقدمين . ولا هو ينفرد بملامحه الشخصية فى التعبير عن نفسه أو التعبير عن سواه .

وكتب الدكتور هيكل ذكرياته مع شـــوقى فقال : إن شوقى كان يضيق بالنقد ولا يطيقه . ولعله كان يحسبه عيبا فى ذات أمير الشعراء كالعيب فى الذات الملكية وكان شوقى يقول لهيكل كلما نقده طه حسين فى السياسة وهو رئيس تحريرها : ماالذى يقصد صديقك طه حسين من توجيه النقد إلى فى كل مناسبة . أيظن أنه قدير على أن يهدمنى . قل له إننى : « مجد تكون » ومن المستحيل هدم مجد تكون . وأنه ينطح صخرة ولا تستجيب له ولم أعجب لهذا الكلام . وإنما كان عجبى لأن شوقى كان يسرع فى مقاطعة من ينقدونه . ثم كان يسرع إلى استرضائهم بكل وسيلة مستطاعة » .

الفصل الثانى

المعارك الادبية بين طه حسين وكتاب العصر

فى خلال خمسين عاما كاملة بين عام ١٩١٧ وعام ١٩٦٧ دارت مساجلات ومعارك أدبيه عديدة منوعه بين الدكتور طه حسين وبين كتاب العصر ، بعض هذه المعارك دار من جانب واحد هو جانب هؤلاء الكتاب ووقف منها طه حسين موقف الصمت وبعضها الآخر اشترك فيهـا وخاض معركتها .. وهناك معارك أخرى كان الدكتور طه هو الذى أثار غبارها . وإذا أحصينا المعـارك وجدناها لاتقل عن عدد سنوات هذه الحياة الفكرية وإذا راجعنا مادتهـا وجدناها تتصل بكل مولد الفكر والثقافة والأدب والتراجم والتاريخ .

دارت المعارك مع العقاد والرافعى والمازنى وزكى مبـارك وساطع الحصرى وهيكل وأحمد أمين ، كما دارت مع الغمراوى وشكيب أرسلان ومنصور فهمى ورفيق العظم . كما دارت مع إسماعيل مظهر وسـلامة موسى ومحمود محمد شاكر والدكتور غلاب وتوفيق الحكيم ودارت على صفحات جريدة السياسة والبلاغ والأهرام والجمهورية ومجلات الرسالة والثقافة والعصور والفتح .

***

دارت بعض هذه المعارك حول كتب وأبرز الكتب التى دارت حولها المعارك : فى الشـعر الجاهلى — مستقبل الثقافة — مـع المتنبى — على هامش السيرة — الفتنة الكبرى .

كما دارت موضوعات . وأبرزها فى نقد الأدب . ومنها مادار حول مهمة المجمع

اللغوى أو مهمة كلية الآداب أو التعليم أو العلاقة بين العلم والدين ومن أبرزها معركة القومية العربية .

أما معارك السياسة فتلك لها مجالها ودراستها الخاصة عندما نتعرض لطه حسين الصحفى . ومع ذلك فقد اتصلت معارك الأدب بالسياسة وتأثرت بها طرداً وعكسا وأخذت من روحها وأسلوبها وشماسها وهجائها .

. . .

وهناك لون من الألوان هذه المساجلات يمكن أن يفصل فى البحث عن المعارك :

تلك هى الرسائل التى كان يتبادلها طه حسين وهيكل حين يصدر كتاب لأحدهما . ومنها الرسائل التى تبادلها طه حسين مع توفيق الحكيم حول بعض مفاهيم الأدب . والوطنية والفن وهذه مساجلات لا يبرز فيها طابع النقد اللاذع أو الصراع أو الهجاء . .

ومن الملاحظات الهامة أن هناك معارك دارت بين طه حسين وبين أصفى أصدقائه إذ وقع الخلاف فى أمر أو آخر . منها معاركه مع صديق عمره (هيكل) ومع أحمد أمين ومع توفيق الحكيم .

وهناك معارك للدكتور طه حسين مع أساتذته الذين تلقى عليهم العلم فى الجامعة : من هؤلاء الشيخ المهدى — وأحمد زكى باشا — ومحمد الخضرى .

وأقصى المعارك مادار بين طه حسين والرافعى من جهة وبين طه حسين وزكى مبارك من جهة أخرى .

أما العقاد فقد كان بين طه حسين وبينه شىء من الحذر والحيطة والتخوف . ولذلك فقد كانت مناقشاتهما تدور فى جو من الهدوء ، ولكنها كانت تكشف عن اختلاف المدرستين : الفرنسية والانجليزية . ومن أبرز أمثلة ذلك معركة لا تينيون وسكسونيون .

وتقسم معارك الدكتور زكى مبارك بشىء كثير من العنف ، وزكى مبارك واحد من تلاميذ طه حسين . وقد عمل فترة ما سكرتيراً له . وكان من نصرائه فى معركة الشعر الجاهلى .

وتعد معركة الشعر الجاهلى أضخم المعارك الأدبية فى التاريخ الأدبى الحديث كله لأنها استمرت على أعمدة الصحف أكثر من ثلاثة شهور متوالية ، ثم تجددت بعد ذلك مرات ومرات . وكان موقف طه حسين فيها الصمت الكامل فقد نصح بأن يتوقف عن الكتابة حتى تمر الأزمة ولم يصدر فى خلالها إلا بيانا واحداً ذكر فيه أنه يؤمن بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر .

أما المازنى فقد كانت معاركه مع طه حسين ساخرة ، ولكنها تحرق وتلذع .

ولم تكن معارك طه حسين مع خصومه من رجال اليقظة الاسلامية وحدهم أمثال الغمراوى وشكيب أرسلان والرافعى ومحمود محمد شاكر وتوفيق العظم وأحمد زكى باشا .

وإنما كانت هناك معارك مع المدرسة الحديثة نفسها ومن نفس الداعين إلى الفكرة الغربية أمثال : سلامة موسى وإسماعيل مظهر وغلاب .

كان ساطع الحصرى يساجل طه حسين حول العروبة والفرعونية أو يعارض رأى طه حسين فى المصرية الاقليمية وكان هيكل يعارض طه حسين فى محاولته كتابة السيرة وإحياء الأساطير وإضافتها إلى سيرة النبى بعد أن تحررت منها زمنا طويلا .

وكان أحمد زكى باشا يعارض وجهة نظر طه حسين فى إلقاء الشبهة على العرب فى حرق مكتبة الاسكندريه .

وكان محمود محمد شاكر يعارض طه حسين فى القول بأن المتنبى لقيط وشاكر واحد من تلاميذ طه حسين فى كلية الآداب . وقد سبق طه حسين بعامين فى إصدار دراسة عن المتنبى . وكان له مع طه حسين سجال حول نسب المتنبى . ثم كانت رسالة طه حسين عن المتنبى وكان الخلاف .

أما المساجلة مع منصور فهمى فقد كانت حول مهمة مجمع اللغة ، وكان طه حسين يعارض أن تكون مهمة مجمع اللغة وضع المصطلحات ، ويرى أن هذه المصطلحات يضعها أصحاب الاختصاص فى كل علم وفن ، ومهمة المجامع هى إقرارها ، وكان منصور فهمى يدافع عن عمل المجمع من واقعه الفعلى ، وذلك قبل أن يلتحق طه حسين بالمجمع عضواً ثم رئيساً ويقرما ذهب إليه منصور فهمى .

والواقع أن طه حسين قد شارك فى مختلف أوجه النشاط الأدبى مع مختلف أدباء عصره ، ولم يتخلف عن معركة واحدة سواء أكان مصدرها أم مشتركا فيها.

نماذج من المعارك

مع المازنى

عندما أصدر « عزيز أباظة » ديوانه (أنات حائرة) كتب الدكتور طه حسين مقدمة للديوان . فنشر المازنى مقالا فى البلاغ هاجم فيه هذه المقدمة ، وقال إن الدكتور طه قد خسره الأدب ولم تربحه الحكومة . . . وقد أثارت هذه العبارة ثائرة الدكتور طه الذى وجه إلى رئيس تحرير البلاغ خطابا ضمنه نوعا من النقد على أسلوب الرمز والإيماء ، واعتذر عن ذلك بأنه لا يتحدث إلى القارىء بقدر ما يتحدث إلى المازنى نفسه قال : « أراد الأستاذ المازنى أن يثنى على ديوان شاعرنا المدير ، أو مديرنا الشاعر الأستاذ عزيز أباظة ، فلم يستطع أن يصل إلى غرضه دون أن يقدم بين يدى مقاله برثاء لى وإشفاق على . لأن الأدب قد خسرنى وأن الحكومة لم تكسبنى ، ولأنى كتبت فى تصوير هذا الديوان كلاما لا محصول وراءه ، ولا يعرف له رأس من ذنب .

أنا أستاذك فى أن أشكر للأستاذ رثاءه لى وإشفاقه على ، ذلك أقل ما ينتظر من أديب مثلى لا يكتب إلا ما وراءه محصول . وما يبين رأسه من ذنبه وأريد أن أؤكد أنى آسف أشد الأسف . لأن الأستاذ عزيز أباظه لم يطلب إليه هو كتابة هذا التصدير . إذن لكان له المحصول كل المحصول ... ولكان له رأس كقمة الجبل وذنب كالذى خوف به المنجمون المعتصم حين هم بفتح عمورية .

وآسف أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملى فى وزارة المعارف وفى جامعة فاروق . إذن لكسبته الحكومة والأدب جميعا .

والأستاذ المازنى يعرف أن لأبى العلاء قصة مع الشريف المرتضى ، وأظنه يأذن لى فى أن «أسرق» من هذه القصة شيئا ، فالسرقة فى الأدب مباحة ، ولاسيما حين تكون فى العلن لا فى السر ، وهى حينئذ أشبه بالسطو . ولست أسرق من قصة أبى العلاء . أو لست أسطو منها إلا بمقدار . فأنا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق وأن يقرأ مطولة لبيد . ومطولة طرفة . وعينية سويد بن أبى كاهل التى مطلعها :

بسطت رابعة الحبل لنـــا … فبسطنا الحبــل منها ما اتسع

ورائية الأخطل التى مطلعها

ألا ياسلمى يا هنــد بنى بدر … وإن كان حيان عدى آخر الدهر

ولأمية المتنبى التى مطلعها :

بقائى شــاء ليس هم ارتحالا … وحتى الصبر زموا لا الجمالا

سيقول القراء أن الغز بهذا الكلام . ولكنى أعتذر إليهم فإنى لا أكتب لهم . وإنما أكتب للاستاذ المازنى . وأنا أسلك فى ذلك طريقة الأستاذ نفسه . فمن الحق أنهم لم يفهموا عنه ما قال أمس . لأنهم لم يقرأوا التصدير الذى لا محصول وراءه . والذى لا رأس له ولا ذنب . ولأن أكثرهم لم يقرأه . لأن الكتاب ليس معروضا للناس وأحب إلى بأن أستقيل وأفرغ للادب . ولكنى أود أن أستيقن قبل ذلك بأن الحكومة ستضع الأستاذ المازنى مكانى لنرى أيكتب كلاما كالذى أكتبه . أم يكتب كلاما خيراً منه …

❋ ❋ ❋

وجاء الدكتور زكى مبارك فألقى بدلوه فى المعركة . ولكن من ناحية تفسير الغوامض وكشف الأسرار . فقال : مناوشة عنيفة ثارت بين الدكتور طه حسين والأستاذ المازنى على صفحات جريدة البلاغ . وهى مناوشة تمثل التجنى والتظالم على أعنف ما يكون . بغى الرجال على الرجال . وسنقف من هذه المناوشة موقف القاضى العادل … فقد ساءنا أن يتقارض هذان الرجلان الظلم والعدوان بلا ترفق ولا استبقاء بعد أن ظلا صديقين حينا من الزمان . وأصل القصة أن عزيز أباظة مدير

البحيرة أصدر مجموعة شعرية سماها (أنات حائرة) مع تصدير بقلم الدكتور طه حسين . فلما بدأ للاستاذ إبراهيم المازنى أن يتحدث عن هذه المجموعة بدأ بالهجوم على صاحب التصدير . فغضب الدكتور طه . وكتب رداً أراد به دفع العدوان بما هو أقسى من العدوان .

ثم قال زكى مبارك أنه سيفسر للقارىء هذه الرموز . ولخص زكى مبارك كلمة المازنى فى أربعة عناصر :

إن الدكتور طه خسره الأدب ولم تكسبه الحكومة . ومعنى هذا أنه يتولى عملا لم يخلق له وأن الدكتور طه يضيع نفسه فى مناصب تشغله وتستنفد جهده ووقته. فاذا كتب جاء بكلام لا محصول من ورائه ولا يعرف له رأس من ذنب .

وأن الأفضل أن الدكتور طـه يستقيل ويريح نفسه من العناء الباطل وهو عمله فى الحكومة ويتفرغ للادب .

وأنه لا يمكن للدكتور طه أن يزود نفسه بالتحصيل أو يتفرغ للتجويد حين يكتب وهو مشغول ليله ونهاره بأعمال كلا واحد منها كاف للارهاق .

ونسارع فنذكر أن الإشارة إلى سورة الفلق منصب على آية (ومن شر حاسد إذا حسد) وأن الإشارة إلى معلقة لبيد تتجه إلى هذين البيتين :

فاقنع بما قسم المليك فإنمـــا قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر أوفى بأعظم حظها قسامها

وأنه يريد من مطولة (طرفة) هذين البيتين :

فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى عداوة ذى الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عنى الأعادى جرأتى عليهم وإقدامى وصدقى ومحتدى

أما عينية سويد فقد أشار الدكتور طه حسين إلى هذين البيتين :

رب من أنضجت غيظا قلبــه قد تمنى لى موتا لم يطع
وترانى كالشجى فى حلقــه عسراً مخرجه ما ينتزع

وأراد من رائية الأخطل هذين البيتين :

تنق بلا شيء شيوخ محارب وماخلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

ومن لامية المتنبى أراد هذين البيتين :

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وما أردت تبليغ هذه التعاريض إلى الأستاذ المازنى . وإنما أردت منفعة القراء . والشر يتسم بالخير فى بعض الأحايين .

ومن غمزات الدكتور طه أنه كان يستطيع أن يقول أن (يستعير) قصة أبى العلاء مع الشريف و (يستعير) هو للفظة المطلوبة فى هذا الموقع . ولكنه قال إنه (يسرق) لنيدد بالأستاذ المازنى . ولم يكتف بذلك ، بل جعل سرقته علنية وهى « حينئذ أشبه بالسطو كما قال » .(١)

كما صور الأستاذ المازنى بصورة (الحاسد) لمن كتب تصدير الديوان ، كذلك صورة بصورة من يعجز عن عمل المستشار الفنى لوزارة المعارف . ويعجز عن إدارة جامعة فاروق .

مع العقاد

اتصل حبل المساجلة والنقد والعراك الأدبى بين العقاد وطه حسين أمداً طويلا . ولكنه كان فى كل الأحوال هينا لينا لم يصل إلى ماعرف من عنف طه حسين أو عنف العقاد فى الخصومه مع من ساجلا من أدباء . ولعل ظروف السياسة هى التى حالت دون ذلك .

---

(١) وكان الأستاذ المازنى قد وجهت إليه بعض الاتهامات بالسرقة من كتاب القصة الأجانب .

ولما تحول طه حسين إلى الوفد وكان العقاد كاتبه الأول. أعلن فى أول مناسبة مبايعة العقاد أميراً للشعر . وجرت بينهما مجاملات كثيرة أهدى فيها طه كتاب (دعاء الكروان) إلى العقاد صاحب ديوان (هدية الكروان) .

يقول طه حسين: لقد هاجمت العقادفى غير موطن من مواطن الخصومة : خاصمته فى السياسه . وخاصمته فى الأدب . وخاصمته فى السياسة والأدب أيضا . ولكن هذه الخصومة لم تغض من مقدار العقاد فى نفسى .

« وما أظن أن بين لدات العقاد وأترابه من يقدره مثل ما أقدره أنا وأكبره . ولا أعرف أن الخصومة بين العقاد وبينى قد انقطعت . فمادام كلانا يكتب فالخصومة بيننا ممكنة . ولكننا قوم نعرف كيف نختصم دون أن تفسد الخصومة رأى واحد منا فى صاحبه » .

وعندما أصدر العقاد كتابه مطالعات . كتب طه حسين يقول : إن الأستاذ عباس العقاد من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة. وأى لون سياسى . وأى ظهور . وهو سعدى مغرق فى السعدية . وهو كاتب من كتاب البلاغ .

فليطمئن خصومنا السياسيون . وليطمئن أصدقاؤنا السياسيون أيضا . ليطمئن أصدقاؤنا . وأولئك فأنا أمقت المذهب السياسى للأستاذ العقاد مقتا شديداً . وازدريه ازدراء لاحد له (وقد تحول طه حسين بعد قليل إلى هذا المذهب السياسى) وعندما أصدر العقاد كتابه عن المعرى . كتب طه حسين يقول : إن الأستاذ العقاد أراد أن يرتحل بأبى العلاء بعد أن بعثه بعثا جديداً . وأن يطوف به فى أقطار الأرض . فلم يصنع شيئا . وإنما ارتحل به فى طائفة من الكتب التى قرأها . ذلك لأن الأستاذ العقاد نفسه لم يرتحل ولم يطوف فى أقطار الأرض ، وإنما ارتحل وهو مقيم وطوف وهو مستقر ، فقد ملأ يديك أدبا وعلما وفلسفة ، ولكنه لم يرحل إلى أوربا ولا أمريكا .

ويقول العقاد فى رده على طه حسين : ما باله لا يرضى أن أجعل أبا العلاء يرى فى باريس ما يراه السائحون . ويقول فيها ما يقول أولئك السائحون ، أنا ذهبت

إلى باريس بالخيال فأخذت إليها صاحبى بالخيال ... والدكتور طه حسين ذهب إلى باريس حسا وخيالا فأبى على صاحبه المزاملة وهتف به : إلى اللقاء .

وفى سنوات الحرب العالمية الثانية وكان قد تغير الوضع . فقد دخل طه حسين إلى حزب الوفد . وكان العقاد قد خرج من حزب الوفد . دعى العقاد إلى كتابة مقال تحت عنوان (أدباؤنا على المشرحة) فلما تعرض للدكتور طه حسين قال :

« يأتى طه حسين الناقد بعد طه حسين المؤرخ ، وبعد طه حسين صاحب القصة . لأن المدار فى النقد كله على مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية . وليس نصيب الدكتور طه فى هذه المقاييس بأوفى نصيب »

وقد تصدى زكى مبارك للعقاد فقال : « هل يجوز لك أن تتهم الرجل فى مفهومة الشعر وهو الذى أسبغ عليك أمارة الشعر .. » ...

مع اسماعيل مظهر

أما الأستاذ إسماعيل مظهر فقد كان له فى معارك طه حسين جانب ظاهر وجانب خفى ، أما الخفى فهو تشجيع الرافعى على النقد . أما الظاهر فهو اصطياد الملاحظات السريعة دون الدخول فى المعارك الوسعة ، ومن ذلك تعليقه على مانشرته جريدة السياسة ملخصا لمحاضرة ألقاها عن الحياة العربية ، وأثرها فى الشعر أيام بنى أمية وردت فيها العبارة الآتية : (أنه دارت بين اليمانيين والقيسيين معركة (مرجرات) .

وقال إسماعيل مظهر فى تعليقه أن « مرجرات » هذه هى « مرج راهط » ولكن يبدو أن الدكتور طه نقلها من كتاب أجنبى ، وظن أنها كلمة فارسية .

وقال زكى مبارك معلقا : « مرجرات » كلمة لا يعرفها العرب وإنما هى « مرج راهط » وعذر الدكتور طه حسين أنه قد ذهب إلى حديقة المستشرقين بالليل ينهب تفاحة أو تفاحتين فرآهم يقولون « مرجرات » فحسب أنها كلمة فارسية .

مع الدكتور هيكل

أما مع الدكتور هيكل صديق الصبا ورفيق الشباب فقد بدأ الخلاف حول حياة محمد لهيكل وعلى هامش السيرة لطه حسين .

قال هيكل : أستميح طه العذر أن خالفته فى اتخاذ النبى وعصره مادة لأدب الأسطورة ، وأشار إلى ما اتصل بسيرة النبى ساعة مولده ، وما روى عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبى ، ثم قال : لهذا وما إليه يجب فى رأيى ألا يتخذ مادة الأدب الأسطورة ، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب ما اندثر أو ما هو فى حكم المندثر ، وما لا يترك صدقه أو كذبه فى حياة النفوس والعقائد أثراً ما والنبى وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعا ، بل هى فلذة من هذه الحياة ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً فى توجيهها . وطه يعلم أكثر مما أعلم أن هذه الإسرائيليات إنما أريد بها إقامة أساطير ميثولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه ، وقد كانت غاية الأساطير التى وضعت عن الأديان الأخرى ، من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى مختلف العصور لتطهر العقائد من هذه الأوهام .

ثم قال هيكل : من أجل ذلك أود أنه يفصل طه فيما قد يكتب من بعد من فصول تجرى مجرى « على هامش السيرة » بين ما يتصل بالعقائد وما لا يتصل بها .

وكان طه حسين قد هاجم هيكل من قبل حين كتب فى مقدمة حياة محمد عن دور المستشرقين فى تزييف سيرة الرسول وما كتبه هاملتون جب فى كتابه (وجهة الإسلام » فكتب طه حسين يقول : أن اشتغال هيكل المتصل بالسياسة قد أثر فى تصوره للأشياء وفى حكمه عليها ، ومن ذلك حملته على ما يكتبه جب وزملاؤه . ثم أزجى الدكتور طه لهؤلاء المستشرقين تحية . وقال إنهم لا يخلطون بحوثهم بالسياسة أو الهوى ...

وقال هيكل : إن كان اشتغالى المتصل بالسياسة قد أثر فى تصورى للأشياء

وفى حكمى عليها فانما كان أثره أن زادنى تقليبا للأشياء وامتحانا إياها ، وتعمقا فى بحثها تنطوى عليه وما ترمى إليه ، وأنا معك أن (جب) وأمثاله لا يتخذون السياسة وأهواءها مقياساً لدراساتهم الأدبية . ولكن دراساتهم هذه ودراسات الكثيرين منهم على الأقل يقصد بها أكثر الأمر إلى تنوير الساسة من أهل بلادهم وإطلاعهم على عنصر من عناصر حيوية الشرق هو فى رأيهم وهو فى الواقع أجل هذه العناصر خطراً . فاذا كانت الأهواء السياسية ليست هى التى توجه دراساتهم . فدراساتهم يقصد بها فى أكثر الأحيان إلى خدمة هذه السياسة وأن تصد بها كذلك أغراض علمية بحتة .

مع أحمد أمين

أما الأستاذ أحمد أمين صديق طه حسين ومريده والقاضى الذى وجه طه حسين إلى دراسات الأدب . فانه قد وقع مع أستاذه وصديقه فى حلبة الصراع . وذلك حين جنح ذات يوم إلى القول بأن جماعة من الكتاب تسلحوا بالشجاعة، ثم شعروا بأنهم أصيبوا فى سمعتهم وكان الرأى العام قويا مسلحا فتغلب وانتقم . وأصبحت له السلطة التامة ، وانهزم أمامه فريق المفكرين الصرحاء هزيمة منكرة ، فاضطروا إلى التسليم وتعودوا المجاراة بدل المقاومة والمداراة مكان الصراحة ...

وظن طه حسين أن أحمد أمين إنما يعنيه فكتب يقول : أخالفك أشد الخلاف وأنكر عليك أعظم الإنكار : أن ذلك الرأى يبعد كل البعد عن أن يصون الحق. والثانى أن رأيك يمسنى ، وأؤكد لك أنه يحفظنى كل الإحفاظ ، ويؤذينى كل الإيذاء ، فهل من الحق أن هؤلاء الكتاب الذين تشير إليهم قد أدركهم الضعف والوهن فالأوا الجمهور وصانعوا السلطان ، وآثروا العافية فى أنفسهم وأموالهم ومناصبهم ، ومتى كان هذا !

لست فى حاجة إلى أن أسميهم فأنت تعرفهم كما يعرفهم الناس جميعا . لقد مضينا جميعا إلى حيث كان يجب أن نمضى فكنا ألسنة السياسة وسيوف القادة ، وكنتم تعجبون منا وتحمدونه لنا ، وكنتم تقومون على الشاطىء وترونا ونحن نغالب الأمواج .. أترى أن مواقفنا تلك كانت مواقف المنهزمين .

وقال أحمد أمين : لعل من أسباب ضعف النقد « السياسة » قاتلها الله . فقد تدخلت فنصرت الجمهور على القادة وعاونت الرأى العام على المفكرين. ثم أن السياسة دخلت فى الأدب ولونته بلون السياسة ولم يستطع الناس التفرقة بين موازين الأدب وموازين السياسة فأفسد ذلك الأدب والنقد معا ...

مع توفيق الحكيم

كان طه حسين من بين من عرفوا بأهل الكهف من الكتاب . ولكنه كان أقوى من كتب عنها معجبا بها فقال : « إن أهل الكهف حادث ذو خطر — لا أقول فى الأدب المصرى وحده — بل أقول فى الأدب العربى كله . وأقول هذا من غير تحفظ ولا احتياط » ثم وقع الخلاف بين الرجلين تحت تأثير بعض عوامل السياسة والكبرياء الشخصى .

وكتب طه حسين نقده فى عنف تحت عنوان (الأديب الحائر) . وقد كشف عن خطاب من توفيق الحكيم إليه يقول فيه :

أما نصيب قصصى من البقاء فلست أعتقد أن لناقد معاصر حق الجزم به وما بلغت من البساطة حق تصديق ناقد يتكلم فى هذا . فإن الزمن وحده هو الكفيل بالحكم للأعمال بالبقاء ، فأنا كما ترى لا أسمح لنفسى بقبول مثل هذا الثناء . كذلك لست أسمح لأحد أن يخاطبنى بلسان التشجيع ، فما أنا فى حاجة إلى ذلك . فإنى منذ أمد بعيد أعرف ماذا أصنع ولقد انفقت الأعوام أراجع ما أكتب قبل أن أنشر وأذيع . كما أنى لست فى حاجة إلى أن يملى على ناقد قراءة بعينها . فإنى من زمن طويل أعرف ماذا أقرأ وما أخالك تجهل أنى قرأت فى الفلسفة القديمة والحديثة وحدها مالا يقل عما قرأت أنت .

وما أحسبك كذلك تجهل أنى أعرف الناس بما عندى من نقص وأعلم الناس بما أحتاج إليه من أدوات . فأرجو منك أن تصحح موقفى أمام الناس وإلا اضطرانى إلى أن أتولى ذلك بنفسى .

وأجاب طه حسين يقول : « أما أنه لايسمح لأحد أن يدله على مايقرأ وأنه قرأ فى الفلسفة القديمة والحديثة مثل ماقرأت على الأقل — فإنى أحب أن يعلم أن ماقرأته لايرضينى لنفسى ولا لغيرى وأسأل الله أن يقينى وإياه شر الغرور . فهو مهلك للنفوس حقا . وأما أنه أعرف الناس بما ينقصه وأعلم الناس بما يحتاج إليه من أدوات وأنه لايحتاج مع ذلك إلى نقد ناقد — فهذا رأيه فى نفسه منذ الآن وهو لايشرفه ولايرفع منزلته عند أحد وأحب أن يعلم توفيق أنى لن أرد عليه بعد الآن . ولن أحفل به إلايوم يخرج لنا كتابانقرؤه . ويومئذ سأعلن رأيى فىالكتاب سواء رضى توفيق أم سخط !

مع سلامه موسى

ودارت المعركة بين سلامه موسى وطه حسين . فقد كتب طه حسين يقول : إن الأستاذ سلامة موسى ليس من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة . فقد يكون سعديا وقد يكون حراً دستوريا . وقد يكون وطنيا وقد يكون اتحاديا ولكنه على كل حال لايعلن رأيه السياسى أولا يتكلف إعلانه ولايتخذ لنفسه لونا .... وهو من أنصار الجديد وهو يعلم أنى أرى رأيه وأشاركه فيه دون تحفظ ولا أحتياط ولكن نصره الجديد قد اضطره إلى شىء من الإسراف كنت ولازلت أحب ألا يتورط فيه الباحثون فهو مسرف فى ازدراء الأدب القديم — كما هو ملائما كله لذوقنا الحديث ولكن القدماء لم يضعوا. أدبهم لنا وإنما وضعوه لأنفسهم...

وهو مسرف أيضا حين يقول : أن الأدباء المصريين لم يكن لهم شأن فى حركة الاستقلال ولم يقودوا الأمة فى هذه الحركة وإنما قادتهم الأمة . بل قادهم الرعاع إلى الاستقلال» وقد ردسلامة موسى فقال : لقد اتهمنى الدكتور طه حسين بالشعوبية أو كاد . وكأنه نسى كفاحى لأجل الشعب ضد فاروق الفاسد . هذا الفاروق الذى وقف الدكتور طه حسين نفسه فى حرم الجامعة وفى منبرها يخاطبه بالصوت العالى بقوله : ياصاحب مصر — أن أدب الملوك والأمراء والباشوات هو الذى يدعو إليه طه حسين .

مع الرافعى

إن معركة طه حسين مع الرافعى طويلة ومديدة وقد اتصلت بكتاب الشعر الجاهلى ثم تنقلت الى مسائل متعددة وقضايا مختلفة ومن أطرف وقائعها مسألة «إنعام» الدكتور طه حسين بإمارة الشعر على العقاد .

قال طه حسين : ضعوا لواء الشعر فى يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه .

وقال الرافعى : ليس لدى الآن نص كلام الدكتور طه حسين ولا أنا أذكر ألفاظه بحروفها ولكن الذى أذكره أنى حين قرأته لم أبحث بين ألفاظه عن يقين المتكلم وإقتناعه وحججه وأدلته بل بحثت فيه عن سخرية طه بالعقاد و بالشعراء جميعا فى أسلوب كأسلوب تلك المرأة العربية فى قصتها المشهورة حين قالت لرجال قومها فى أبيات مشهورة .

وإن انتموا لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لاتغيب عن الكحل

غير أن طه فى سخريته كالذى يقول : فإن لم تثبتوا أن فيكم من استطاع أن يخلف شوقى فاصغروا واصغروا حتى يكون العقاد هو أميركم .

بقى لنا أن نتساءل لماذا لم تأت الشهادة يوم كان الدكتور طه عميداً لكلية الآداب ، وكان يومئذ حراً لا يستنزله الاكراه ولماذا جاءت الشهادة وهو يحترف الصحافة وترى لو كان العقاد من الحزب الوطنى ، أو من الأحرار الدستوريين أو اتحاديا أو شعبيا — أتكون قولة طه يومئذ وهو فى انسلاخه الثانى وانقلابه وفديا — أفتكون إلا رداً سياسيا على العقاد وشعره فى نفرة سياسية من هذا الشعر وعقاده ! ! .

مع زكي مبارك

أما المعركة مع زكى مبارك فهى طويلة ومديدة أيضا ، ولقد بدأت بعد أن رفض الدكتور طه حسين رئيس قسم اللغة العربية فى كلية الآداب عام ١٩٣٥ تجديد عقد الدكتور زكى مبارك الأستاذ بالقسم ، والذى عين فى فترة غياب الدكتور طه فلما استشير الدكتور طه فى تجديد عقده قال: «لم أستشر فى تعيينه ، فلا استشار فى تجديد عقده» ومن هنا بدأت معركة من جانب الدكتور زكى مبارك الذى أخرجه أستاذه من الجامعة بعد أن عمل سنوات طويلة ، وكان الرجل الوحيد الذى وقف إلى جواره ودافع عنه إبان أزمة الشعر الجاهلى ، وذاد عنه بالرد على خصومه حيث أمر الدكتور طه أن يصمت حتى تمر العاصفة .

ويرد زكى مبارك الأزمة إلى وقت أن صدر كتابه (النثر الفنى) فى ثمانمائة صفحة من القطع الكبير ، وفيه معارضة لآراء الدكتور طه فلما سئل طه عنه قال : هو كتاب من الكتب ألفه كاتب من الكتاب ! » .

وقد بدأت المعركة وامتدت ووصل فيها زكى مبارك إلى حد بعيد من العنف فلقد كتب ذات مرة يقول : « لقد ظن طه حسين أنه قد انتزع اللقمة من يد أطفالى ، فليعلم حضرته أن أطفالى لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمة ، ولكنهم لن يجوعوا مادامت أرزاقهم بيد الله » .

ولكن العنصر الجديد الذى دخل إلى المعركة هو كلمة نشرها المازنى فى جريدة البلاغ بهذه المناسبة فقال : « إنى أرى الدكتور قد خرج من زمرتنا معشر الأدباء الأحرار ، ودخل فى زمرة الملقبين وذوى الجاه والسطوة والسلطان ولست أعنى أنه اكتسب لقبا جديداً ، فما حدث له شىء من ذلك ، ولكنى أعنى أنه محشور فى هذه الزمرة .

يعز على ياصاحبى أن أقول أنك ما كدت ترجع إلى الجامعة حتى صببت نقمتك على الدكتور زكى مبارك تلميذك القديم ، أنت إذن من أصحاب السلطان الذين

يملكون أن يقطعوا أرزاق العباد أو يصلوها . إنما أنت رجل يدنى ويقصى ويضرب اليد التى ترتفع باللقمة إلى الفم فيطيرها ويوقعها فى التراب .

وإنى لأحدث نفسى أحيانا بأنى لو كنت أقول الشعر فى هذه الأيام لرثيت طه حسين ، فإنه يخيل إلى أنه قد مات طه حسين الذى عرفته وأحببته وأكبرته ، وجاء غيره الذى أنكره » .

• • •

ويدور الحديث حول معارك طه حسين مع أدباء عصره ، مما هو مفصل فى مواضعه فى الصحف وفى كتاب المعارك الأدبية وكتاب المساجلات الأدبية فليرجع إليه من شاء

الفصل الثالث

اطروحات الدكتوراه « فى الغرب »
وأثرا الصهيونية فيها

(١)

عندما يستهل الدكتور زكى مبارك اطروحته الضخمة عن « النثر الفنى فى القرن الرابع » التى قدمها إلى جامعة باريس ونوقش فيها فى ٢٥ أبريل ١٩٣١ وطبعها بالعربية فى القاهرة ١٩٣٤ يشير إلى ذلك الصراع العنيف الذى وقع بينه وبين المسيو مرسيه أستاذه فى جامعة باريس والمشرف على الأطروحة فيقول : (أما المسيو مرسيه فعالم واسع الاطلاع وهو رأس المستشرقين الفرنسيين لهذا المعهد وكانت له آراء مدونة عن نشأة النثر الفنى عند العرب ، وما كدت أصل إلى باريس حتى هممت بمهاجمته ، فنصحنى المسيو ماسينيون وأفهمنى أنه رجل صعب المراس ، وأن منزلته فى المعهد العلمى عظيمة . وأن المستشرقين جميعا يجلونه أعظم الإجلال. ولكن كتب الله ألا أنتصح برأى المسيو ماسنيون فابتدأت رسالتى التى قدمتها للسوربون بفصلين فى نفض آرائه من الأساس فغضب الرجل وثار . وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث وصممت على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذى تنهض عليه نظريتى فى نشأة النثر الفنى . وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه فى عقر داره فمضى يعادينى عداءا خفيا كانت له آثار بشعة لا أتذكرها إلا انتقضت رعبا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف . وقد قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف . ورأيت الحرص على آدائى أفضل من الحرص على رضاه فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه وأضفت إلى البحث الذى قدمته إلى مدرسة اللغات الشرقية فصلا كان أشار بحذفه لأننى هاجمته فيه وانتهينا إلى عاقبة أفصح عنها المسيوماسينون كل الإفصاح إذ قال حين لقيته أخيرا فى باريس » أن المسيو مرسيه لا يحبك ولكنه لا يستطيع أن ينساك » .

وهذا الكلام يعنى أن زكى مبارك لم يستلم لرأى المستشرق مرسيه ولكن هل تحرر حقا من نفوذ الاستشراق . أنه يقول فى أكثر من موضع أنه عارض نظرية أخرى كان يعتنقها الدكتور طه حسين . ولكن الأمر لم يلبث أن انكشف بعد ذلك عن تبعية خطيرة لرأى لا يقول به غير الاستشراق : ذلك هو أن القرآن من كلام محمد . هذه هى القضية التى كشف عنها الدكتور محمد أحمد الغمراوى عام ١٩٤٤ أى بعد طبع كتاب النثر الفنى بعقد من الزمان . وهى أشد قسوة من ذلك الخلاف الذى قام به بين زكى مبارك وطه حسين . أو بين زكى مبارك ومسيو مرسيه من أن النثر الفنى عربى الأصل أو فارسى التبعية . فإن مانجح فيه زكى مبارك لايساوى شيئا أمام ما انزلق إليه . ولكن زكى مبارك لا يدع الفرصة تفوت حين يكشف لنا عن ظاهرة هامة فى اطروحات الدكتوراه فى الغرب وأثر المستشرقين فيها حين يقول فى المقارنة بينة و بين طه حسين :ذهبت أنت (أى إلى باريس) على نفقة الجامعة ومضيت أنا متوكلا على الله فأنفقت ما ادخرت من عرق الجبين . واتصلت أنت بالمسيو كازنوفا ففرض عليك آراءه فرضا ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ . واتصلت أنا بالمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائى فرضاً . واتصلت بنى وبينه الخصومة . فآذانى إيذاءا شديدا . ولكن قناتى ظلت صلبة واستطعت أن أقوض كبرياءه فى عقر بيته وفوق كرسى السربون . ولم تمر المعركة بلا غنيمة . وقد وقف المسيو ماسينيون يوم أديت الامتحان وقال : إننى حين أقرأ أبحاث طه حسين أقول هذه بضاعتنا ردت إلينا . وحين أقرأ أبحاث زكى مبارك أشعر بأنى أواجه شخصية جديدة .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى مناقشته لزكى مبارك : أنه يرى قدم النثر الفنى عند العرب ناقضا رأى المستشرقين الذى يرون بلاحق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية ، وإنما أخذوا طرائق النثر الفنى من الفرس واليونان فهل رأيت حقا كهذا الحق ، الذى يريد أن ينفى عن العرب تهمة أخذ النثر الفنى عن الفرس واليونان ، فلايرى سبيلا لذلك إلا أن يسلبهم القرآن كتابا من عند الله ليرده أثرا جاهليا يثبت لهم به ذاتية أدبية ،افترى هذا الرجل يرى القرآن من عند الله أم من عند العرب ، وإذا كان من عند الله فكيف يمكن أن يثبت به للعرب ذاتية أدبية كالتى أراد . وليس فيه امرىء منهم حرف . وإن كان أثرا جاهليا يثبت قدم النثر الفنى

أى نثر الرسائل والكتب عند العرب . فكيف يمكن أن يقول إنه من عند الله .
إن هذا لرجل بين أن ينكر القرآن أو ينكر نظريته فى نشأة النثر الفنى كما يسمى فرضه الذى افترض،ليس له عن أحدهما محيص،ويخطىء الدكتور زكى مبارك ويتابع المستشرقين فى نظريته التى تقول : إن العرب كانوا ناهضين وكانوا ينتظرون من ينهض بهم فلما جاء الرسول ونهض بهم نهضوا وتلك نظرية استشراقية خطيرة تريد أن تلغى عظمة النبوة والوحى وأثر الإسلام فى تغيير المجتمع العربى القديم وهى تنكر ماواجه المشركون به الرسول من معارضة ومقاطعة وحرب خلال ثلاثة عشر عاما ، وبعد ذلك فى المدينة (بدر — أحد — الخندق) .

— ٢ —

كان الدكتور منصور فهمى من أوائل المبعوثين إلى الجامعات الأوربية . فقد سافر إلى باريس عام ١٩٠٨ حيث أعد الطروحة الدكتوراه التى أشرف عليها المستشرق اليهودى : « ليفى بريل» حيث فرض عليه موضوع(حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطوراتها) .

وقد طبعت هذه الرسالة فى باريس عام ١٩١٣ ولم تنشر باللغة العربية حتى اليوم لأنها واجهت منذ مناقشتها معركة خطيرة . وأثارت سجالا عنيفا . وقد اضطر الدكتور منصور فهمى بعد عودته إلى الاحتجاب حتى عام ١٩٣٠ وكان مقيما فى قريته يكتب فصولا فى الأهرام تحت عنوان (خطرات نفس) .

وقد تناولت جريدة المؤيد أمر هذه الرسالة بالمناقشة . وكتب محمد لطفى جمعه فصولا مطولة فى الرد على ما أثاره منصور فهمى من نقد لصاحب الرسالة الإسلامية صلوات الله عليه ولكن الدكتور منصور فهمى سرعان ما صحح موقفه وكشف عن مدى التغرير الذى أوقعه فيه المستشرق اليهودى : ليفى بريل .

— ٣ —

أشار الدكتور محمد مندور فى حديث له أشبه بالاعترافات إلى أثر الاستشراق العربى فى توجيهه وفرض منهج خاص عليه يخالف أصول العلم ومناهج

البحث الصحيح[1] يقول فى أول عهدى بباريس كنت أتناول الغذاء على مائدة سيدة عجوز مع نفر من الشباب والشيوخ الفرنسيين و بعض الأجانب ، وكان بين الفرنسيين رجل جاوز الخمسين يعمل وكيلا للمحافظة . وأكبر ظنى أنه ينحدر من أسرة كبيرة من الأسر المحافظة ولقد علمت أنه ابتلى الحياة وابتلته بهمومها الثقال فتحملها ببطولة . ولقد خرج من نشأته وملابسات حياته بفلسفة قوية تقوم على مبادىء الأخلاق الصارمة . كما تقوم على الاعتداد بكرامة الإنسان وقدرته على توجيه الحياة وإخضاعها لإرادته .

وفى أحد الأيام أخذ يبسط مبادىء فلسفته التى ذكرتها فى حرارة المؤمن فدهشت وأخبرته بأن مبادىء الأخلاق التى يتحدث عنها ما هى إلا (ظواهر اجتماعية) تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل فى بنائها ، أو فضل فى الإيمان بها ، كما أخبرته أن إرادة الإنسان الحرة التى يعتز بها ليست إلا وهما . لأن الفرد لا يملك لنفسه شيئا . إنما هو مسير بغرائز وقوى دفينة .

وما أن سمع الرجل منى هذا الهراء حتى انتفض كالأسد واستند بمرفقه الأيسر على المائدة ليلتفت إلى متحدثا فى غضب : غضب الاستعلاء ، وسألنى من أى بلد أتيت يا بنى ، قلت : من مصر . قال : ماذا يصنع أبوك فى مصر . قلت : يزرع الأرض . قال : أوصيك مخلصا أن تعود إلى بلدك لتحرث الأرض مع أبيك . هذا أجدى عليك وعلى وطنك مما تتعلمه . أو تظن أنك تتعلمه هنا من هراء .

فتماسكت مهموما وقلت : ولكن هذه ياسيدى هى الآراء التى سمعتها من أساتذة السربون فى علم النفس وعلم الاجتماع .

---

(١) الرسالة : ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤ .

فأجابني : من أنبأك أن هؤلاء الأساتذة يفهمون شيئا عن حقائق الانسان . أتظن أن حقائقنا البشرية من اليسر بحيث تصاغ نظريات أو يكشف عنها التفكير المجرد ، ثم من قال إن التفكير الفرنسي لايمثله ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون أنهم اكتشفوا قوانين الإنسان عند مازعم كبيرهم (دركايم) ومن خلفه ليفي بريل وموسى وفركونيه ومن تبعهم من أن الإنسان حكمه حكم المادة ، وأن هناك مايسميه هؤلاء الحمقى (وعيا اجتماعيا) تتمخض عنه الحياة العامة ، كما يتمخض الناتج الكيماوى عن مزيج من العناصر .

إحذر يابنى أن تؤمن بما يقولون ، فليس صحيحا أن الرجل المهذب لايستطيع أن يصل إلى قيادة شخصية يهتدى بها إلى مواضع الخير والشر ، والبطولة والخسة بنفسه ، كما تهتدى الطيور إلى أوكارها وليس صحيحا أن قواعد الأخلاق ليست إلا ظواهر اجتماعية ، لا يستطيع فى علاجها شيئا وكل ما يجب علينا هو أن (نرصدها) كما يفعلون لنستخرج منها قوانين عامة . هذا يابنى وهم بل خداع مبطلين . ثم اذكر أننا فى مجال المعرفة بالانسان ليس لنا إلا هدف واحد هو أن نصبح خيرا مما نحن .

فبالله : هب أن هذا المراء حق فأى فائدة ستجنى منه الإنسانية، أنا أفهم أن نكشف عن قوانين المادة لنسيطر عليها ونسخرها فى مرافق حياتنا ولكن الانسان ماشأنه بالقوانين ومن قال إن الإنسان مادة فحسب وهب أنه كان مادة وأن الروح لم يكن لها وجود وأنها تفنى بفناء المادة كما تنعدم النغمات ويتحطم الناى . أليس من الخير . بل من الواجب على الإنسانية أن ترفض علما كهذا لن ينتهى إلا بتحطيم وشل إرادتنا وتقويض دعائم الهيئة الاجتماعية التى نحيا بينها .

ويقول الدكتور منـدور : هذا هو الدرس القاسى . الدرس الصارم النافع الذى تلقيته عن الشيخ فى مستهل حياتى . رويته اليوم راجيا أن تتدبره شبيبتنا الناهضة رويته لأنى وجدت طلابنا يروون اصطلاحات علمية عن دوركايم والعقل الجمعى لايحسنون فهم مدلولها فهم الناقد المستنير .

يابنى ليس هناك عقل جمعى كما زعمت أو زعم لك دوركايم وإنما هناك عقل

فردى ،هناك إرادة حرة . إرادة يجب أن تستيقظ فى القلوب وإنما هناك نشاط حر نشاط لايعرف اليأس . كم أحزننى من شاب مثلك أن يقول بقيام قوانين تقف دون إرادة هـذه الأمة فتردها عن أهدافها . آمن بأن النشـاط الإنسانى حر وأن إرادتنا لابد آتية على كافة المصاعب دون أن يقف أمامها عقل جمعى أو قوانين اجتماعية. ولكن الدكتور مندور الذى هاجم المدرسة الاجتماعية اليهودية لم يلبث أن سقط صريعا لمفهوم آخر غادر كان الاستشراق مصـدره حين سيطر عليه وذلك حين يقول أن الثقافة العربية هى مزيج من عناصر ثلاثة . (العنصر العبرى — والعنصر الفارسى — والعنصر اليونانى) .

ثم يقول (إن فى القرآن وفى الإسـلام مالايحصى من مبـادىء التوراة وقصص التوراة وأصـول التوراة التشريعية وفى الخلا . العباسـية كثير من وسائل الحياة الفارسية بمظاهرها المادية وتياراتها الأخلاقية والفكرية فى بعض الأحيان.

أما اليونان فأظن أن تأثيرهم فى الفلسفة الإسلامية والمنطق الاسلامى وعلم الكلام واللغة والنحو والبلاغة أوضح من أن يذكر . »

ولا ريب أن هذا القول كله نسخة منقولة من الفكر الصهيونى الحديث الذى حاول أن يسيطر على مجموعة من شبابنا المثقفين الذى تعلموا فى الغرب . ولقد مضت كلمة مندور هـذه فى حينها دون أن يرد عليها أحد مع ما تحتويه من خطورة شديدة وزيف كثير .

فمن قال إن الثقافة العربية لم تكن وليـدة الإسلام والقرآن أصلا وأن ما يتصل بالتوراة والكتب المقدسة أمر آخر لم يكن يعرفه العرب إذ ذاك ، فضـلا عما وضع من دراسات فى نقد هـذه الكتب والكشف عن تعارضها واضطرابها ومانبت من أنها من وضـع كتاب من بنى الإنسان خلافا للقرآن الذى هـو النص الموثق الذى لم يجرؤ أحد أن ينسب إليه وضعا ، والذى مازال يتحدى البلغاء فى كل عصر وبعد أربعة عشر قرنا بأن يأتوا بسورة من مثله أو آية من آياته .

أما العنصر الفارسى والعنصر اليونانى . فإن الفكر الإسلامى قد اتصل بهما فى مرحلة الترجمة ثم تحرر منهما وزيف كثيراً مما لايتفق مع منهجه الربانى التوحيدى .

ولكن هكذا تساق النصوص التى تلقى لتفسد مفهومنا الصحيح وأنه ليحق لنا أن نقول إن طليعة الذين ذهبوا إلى أوربا فى هذه الفترة قد وقعوا فى أيدى المستشرقين اليهود وأبرزهم ليفى بريل — دوركايم — والآخرون أمثال : كازانوفا وماسنيون ومرسيه كانوا أشد قسوة على الإسلام من الصهيونيين أوكانوا ممهدين لهم وذلك فى إطار خطة الاحتواء التى بدأت السيطرة الصهيونية العالمية على دوائر المعارف وتزييف المصطلحات الخاصة بالعرب والإسلام والقرآن واللغة العربية . وإبراهيم وإسماعيل : ولعله مما يثير العجب أن تعلو الصرخة عام ١٩٢٦ —وقبل أن تكشف مخططات الصهيونية العالمية — بإعلان إسقاط إبراهيم وإسماعيل من التاريخ الحقيقى للأمة العربية هذا الإسقاط يؤكده صاحبه ويتحدى به حتى ولو ذكر إبراهيم وإسماعيل فى التوراة والقرآن ، ويرى أنه بالرغم من ذلك فإن وجودهما ليس من الحقيقة العامية فى شىء. ولقد ذهب الناس فى فهم هذا التحامل الخطير مذاهب ولكن أحداً لم يفهم حقيقة الهدف الذى تبين بعد أن نشرت بروتوكولات صهيون ومذكرات كثيرة من أن الصهيونية تحجب أحد أبناء إبراهيم وهو إسماعيل جد العرب وتؤكد إسحاق حتى تجعل ميراث إبراهيم كله قاصراً على أبناء إسحاق وتلك خطة مريبة كانت خافية على المسلمين والعرب فى هذا الوقت البعيد ولكنها كانت واضحة لصاحب كتاب الشعر الجاهلى أبرز رواد الفكر الغربى . وتلميذ دوركايم البكر . الذى كتب تحت إشرافه رسالته عن ابن خلدون فأسف وتحامل على الرجل العظيم فخر المسلمين والعرب والذى أشادت مئات الدراسات ونسبت إليه الفضل الأولى فى إنشاء منهج علم الاجتماع ومنهج البحث التاريخى .

لقد عرف الأدب العربى فى العصر الحديث أرهاصات كثيرة للصهيونية كان فى مقدمتها الحملة على أعظم رجلين فى الأدب العربى : المتنبى ، والغزالى ومن المدهش أن هذه الحملة أعلنت من شأن شعوبيين كثيرين ؛ فلماذا ذاك ماسوف أحدثك عنه بعد .

الفصل السابع

— ١ —

الفلسفة المكتوبة باللغة العربية

هل عرفت طريق الاصالة

مازال أرنست رينان يردد فى كتبه التى مازالت تدرس فى بعض الجامعات العربية إن الفلسفة العربية ماهى إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية ومنذ أن وصل أول باحث مستشرق لتدريس مادة الفلسفة فى الجامعة المصرية القديمة : كونت دى جلازر فقدفاجأ تلاميذه العرب والمسلمين بأنه لاتوجد فلسفة عربية ، وإنما هذه الفلسفة المنسوبة إلى (الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد) هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية .

وقد أزعج هذا القول كثيراً من الغيورين وحملوا على هذا القول وقالوا : بل هناك فلسفة عربية ، وأن دور الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد لم يكن مجرد النقل وإنما كان اهم دور بناء .

وقد سار فى هذا المنهج : أحمد لطفى السيد حينما ترجم باسمه كتاب : علم الأخلاق لأرسطوطاليس ترجمة بارتامى سنهيلر[1] الذى يقول فى المقدمة .

مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصوراً على كتب أرسطو . فإن فلسفة أرسطو هى التى غلبت على الفلسفة العربية ، وطبعتها بطابعها . والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئا آخر غير فلسفة أرسطوطاليس طبعت بالطابع العربى وسميت الفلسفة

---

(١) ما يزال العاملون فى دار الكتب المصرية يذكرون كيف قامت هيئة الترجمة بالدار بترجمة الكتاب يوم كان لطفى السيد متوليا منصب مديرها عام ١٩٢٥ . وان لطفي السيد لم يترجم فيه حرفا واحدا .

العربية وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين طيبة إلى حد أن الجامعات الأوربية فى العصور الأخيرة من القرون الوسطى كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبارها أنها فلسفة المشائين أى فلسفة أرسطو .

وقد علق الدكتور صروف فى المقتطف (يناير ١٩٢٥) على هذا المعنى فقال :

إن ماقاله الأستاذ (يعنى : لطفى السيد) يؤيده الكتاب الأوربيون الباحثون فى الفلسفة العربية واستشهد بما لقولة الأسكيس ولبم رلس . إن مايعرف بالفلسفةالعربية ليس فيه من العربية سوى الإسم واللغة . فهو فكر يونانى منظم عبر عنه بلغة سامية وحور بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الاسلام بمؤازرة الواسعى الصدر من خلفائهم وبقى حيا بغيرة جماعة من المفكرين الذين لم يخشوا من الجاهرة بآرائهم على أن أمتهم أساءت بهم الظن واضطرتهم ثم ذكر لطفى السيد مايراه سببا فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين إلى فلسفة أرسطو فقال : وكما أن النهضة الأوربيةالحديثة عمدت إلى درس فلسفة أرسطو عن نصوصها الأصلية فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيراً من المواهب الفلسفية الحديثة فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو لاسيما أنها أشد المذاهب ائتلافا مع ائتلافنا والطريق الأقرب إلى نقل العلم إلى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية .

وقال إن فلسفة المعلم الأول خالدة ماحدها وطن ولا أحنى عليها زمن . فقد بنت عليها كل مدينة صروح مجدها العلمى حتى مدينتنا الجديدة . هذا هو الاتجاه عام ١٩٢٥ فى نفس العام الذى تحولت فيه الجامعة الأهلية إلى جامعة رسمية وجىء بلطفى السيد الذى وصفه تلاميذه وأتباعه بأنه أستاذ الجيل . رئيسا للجامعة وجاء طه حسين وغيره يدعون إلى اليونان وأرسطو .

فهل كان حقا « لطفى السيد » أستاذ الجيل صادقا فيما قال وفيما دعا إليه العرب والمسلمين من اتخاذ أرسطو منطلقا إلى النهضة الجديدة وكانت كتابات طه حسين وغيره من بعد دعوة ملحة إلى هذا الطريق أم أن الأمر كان فيه شبهة أو خدعة .

هل كان حقا أرسطو هو منطلق الحضارة الغربية فى عصر النهضة وما بعدها أم أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقض أرسطو وتزييفه والحملة على منهجه واعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلا قرونا حتى جاء منهج التجريب الاسلامى الذى أطلق الطاقات إلى عصر العلم الحديث . ندع هذا للباحثين . لقد كان علماء المسلمين انطلاقا من القرآن هم الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبى الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم بشهادة :

درابر وبريفولت وجوستاف لوبون فى القديم وسارتون وهونكه وغيرهم فى العصر الحديث وآخر كتاب فى هذا الشأن عنوانه ، (شمس الله تشرق على الغرب) وكتاب (أوربا ولدت فى آسيا) .

إذن فلم يكن لطفى السيد صادقا ، ولم يكن عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين أمينا حين نقلا إلينا هذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدوا أرسطو أولا ثم جاء الغربيون فنقدوه ورفضوه والتمسوا منهج المسلمين الذين دفعهم إلى ذروة التكنولوجيا الآن .

إذن فلماذا هذا التعارض ! يسأل عن هذا الاستشراق والاستعمار ، ذلك بأنهم على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : نقلوا المسلمين إلى أرسطو ونقلوا أنفسهم إلى منهج المسلمين (جابر وابن الهيثم والبيرونى) .

ذلك أن أرسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية ويحرمهم من ثمرات منهج التجريب الذى أنشأوه ونماه الغرب .

وهكذا نجد أن هذا المنطلق على يد طه حسين وجماعة من أتباعه يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضعوا لمنهج اليونان وأرسطو فى القديم ، ولما كان الفكر الحديث هو ثمرة فكر اليونان . فإن تبعية المسلمين والعرب له لاتعد شيئا جديداً ولاغريبا . لأنهم كانوا تابعين لليونان ، فلاعجب أن يتبعوا ماجدده أحفاد اليونان لم يكن أستاذ الجيل صادقا إذن . ولم يكن الدكتور طه حسين صادقا فى هذا . فان المسلمين لم يقبلوا أرسطو . ولم يعتنقوا فكر اليونان ، وإنما العكس هو الصحيح .

ذلك أنهم قاوموه ونقدوه وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن ولقد تصدى لهم كثيرون من أبرزهم الغزالى وابن تيمية .

وإذا كان الخلاف مازال واسعا حول ما كتبه الفارابى وابن سينا ، وهل هو فلسفة اسلامية أو متابعة للمشائين اليونان من المشائين المسلمين ، فان رجلا كريما قد ولى قسم الفلسفة فى كلية الآداب هو : الشيخ مصطفى عبد الرازق قد فصل فى هذا الأمر على نحو صحيح ، ومن خلال دراسات الجامعة نفسها . وبالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة كلية الآداب حين قال : إن الفلسفة الاسلامية إنما تلتمس فى كتب المتكلمين والفقهاء وأن الامام الشافعى واضع (أصول علم الفقه) هو أول الفلاسفة فى الاسلام ، وأن مقامه فى العربية هو بمثابة مقام أرسطو فى اليونانية .

وبذلك نشأت مدرسة الأصالة فى مجال الفلسفة وامتدت من بعد واتسعت وكان من أتباعها الخضيرى . ثم محمد عبد الهادى أبو ريده وعلى سامى النشار . ومنذ ذلك الوقت وقد صدر كتاب (تمهيد فى تاريخ الفلسفة الاسلامية) عام ١٩٤٧ وقد كان منهجه قد تقرر قبل ذلك بوقت طويل . فقد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية وبرزت مدرسة الأصالة فيها وهو ما يزال عسيراً فى مجال الأدب والنقد الأدبى. فإن التبعية لمذاهب النقد الغربى الوافد مازال قويا .

ولقد أثبتت مدرسة الأصالة فى الفلسفة الاسلامية (عبد الرازق ، أبو ريده النشار) أن المنطق الأرسطوطاليسى : منهج الحضارة والفكر اليونانى — لم يقبل فى المدارس العقلية وأن المنهج التجريبى الاسلامى هو الذى عرفته أوربا بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة لمباينته للحضارة اليونانية وأن اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين يفسر روح الحضارة الاسلامية فالحضارة الاسلامية حضارة عملية تجريبية تتجه إلى تحقيق الفعل الإنسانى فى ضوء نظرية حية ملموسة كذلك فقد كشفت الأبحاث المتعددة عن اضطراب خطير فى المراجع التى اعتمد عليها الفارابى ، وباعتراف الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا : « ان الفكر الذى نقل إلى المسلمين من اليونان والإغريق لم يكن صحيح الأصول . بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم، وكانت تهدف إلى خدمة

مفاهيم دينية . ومن هنا كان فسادها فى أن تعطى الفكر الإسلامى شيئا » .
ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفسلفة اليونانية ومذهب أرسطو بالذات قد بدأت منذ أن تمت الترجمة وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الأول ، ذلك أن الفكر الإسلامى كان قد تم تشكله قبل الترجمة على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والأخلاق ، ومن الربط بين الوحى والعقل ، ولذلك فإنه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانية ، أو ينصهر فيها ، خاصة وهى فلسفة مجتمع وثنى قام على العبودية واعلاء العقل ، وعبادة الجسد فضلا عن محاذير الترجمة من فساد وانتحال وتحريف نصوص ، وإن كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليهم إسم المشائين المسلمين قاموا بمحاولة شاذة وعسيرة لإدخال الفلسفة اليونانية فى إطار الإسلام ، ولكن المحاولة فشلت تماماً . وكانت وقفة الغزالى فى وجه الفلسفة الآلهية اليونانية وقفة صارمة ، ردت السهم إلى صدور أصحابه .

فقد كشف عن الفرق بين الفلسفة الرياضية والفلسفة الطبيعية ، وبين الفلسفة الالهية ورفض الأخيرة ، لأنها متعارضة مع التوحيد ، وأعلن أن الكلام فى الطبيعيات برهانى ، أما فى الإلهيات فهو تخمينى .

وفى الفلسفة الإلهية عارض الغزالى القضايا الكبرى الثلاث التى تقرها الفلسفة اليونانية وتختلف مع مفهوم الإسلام : مايقولون به من قدم العالم وأن الله (جل وعلا) لا يحيط علما بالجزئيات وإنكارهم البعث وهاجم الفلاسفة الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم قديم كالدهرية والزنادقة ، والذين قالوا إن النفس تموت ولاتعود ومن أنكروا الآخرة .

هذا وقد كشف الإمام الغزالى بالنسبة للفارابى وابن سينا وجهة نظر أخرى حين عرفت روابطهم بالدعوات الباطنية الهدامة . وإخوان الصفا وغيرهم من الذين كانوا على اتصال بأعداء الدولة الإسلامية من قرامطة وغيرهم .

ثم جاء ابن تيميه فاستحالت غربا . فقد كشف فى كتابه (الرد على المنطقيين) عن أن الفكر الإسلامى له منطق خاص مستمد من القرآن والسنة . وقد استخرج

منهما هذا المنطق الجديد الذى سماه المنطق الاسلامى . وقال إن هذا المنطق كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية فى الحكم على الأشياء وفى الاستبصار والتأمل الفلسفى . ورد على المنطقيين الذين استحكمت فى عقولهم آثار الفكر اليونانى وطوابعه وعزلتها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوى ومنطقهما ، ومما قاله : إن ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية فقد جاء القرآن بما فيها من الحق . وما هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه متنزه من الأغاليط الموجودة عند هؤلاء .

ويقول الدكتور النشار : كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس بيكون إلى المنطقية الوضعية . وقد عنى بنقد فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد وكل من وافقهم فى التشيع لمنطق أرسطو وأشار إلى عبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عندهما (الفارابى وابن سينا) بين الاسلام الأفلاطونية المحدثة . ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الاسلام من الداخل .

ومما عرف فى هذا المجال وهو كثير : كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن إبراهيم الوزير الحسنى اليمنى الصنعانى المتوفى ٨٤٠ .

وبعد فقد كان لابد لمدرسة الأصالة من أن تواجه المدرسة التى ماتزال تعلى من شأن المدرسة اليونانية والتى تبلورت بعد فى مناقشة الدكتور النشار لآراء الدكتور إبراهيم بيومى مدكور فى كتابه (فى الفلسفة الاسلامية) وقد بدأ الدكتور مدكور وكأنه متابع لمنهج لطفى السيد وطه حسين ، ويرى مدكور أن أرجانون أرسطو أثر فى مختلف المدارس كلامية وفقهية وعلمية وفلسفية[1] . يقول الدكتور النشار أن المنطق الأرسطاليسى قد نقل إلى العالم الاسلامى وأثر فقط فى المدرسة المشائية الاسلامية ، وبقيت المدارس الأخرى المنبثقة على النظام إسلامى بعيدة كل البعد عنه ، تحاربه وتجاهده ، وكانت قد وضعت منطقا مختلفا تماما الاختلاف فى روحه وجزئياته

---

(٢) أثبت عكس هذا الرأى : الدكتور للنشار فى كتابه : (مناهج البحث عند مفكرى الاسلام .

والدكتور مدكور لاينكر وجودهذا المنطق الاسلامى ، ولكنه يرى أنه كان لمنطق أرسطو أثره الكبير فى العالم الاسلامى ، ولست أرى هذا على الاطلاق .

إن سيادة منطق أرسطو إنما بدأت حينما تداعى الفكر الاسلامى فى القرن الخامس فاختلط بعلم يونان . ولكن ذلك لم يوافق دوائر الفقهاء المتأخرين . ولم يوافق متكلمى الأشاعرة من ناحية ، ومتكلمى السلف من ناحية أخرى على استخدام هذا المنطق فحاربوه أشد الحرب .

ويرى الدكتور مدكور أن محاولة الفارابى نجحت وأضفت على تاريخ الفلسفة أضواءا جديدة . ويقول الدكتور النشار أن هذه المحاولة كانت غريبة عن روح الاسلام وعن تفكيره وعن منهجه العام . وأن فلسفة الاسلام إنما تنبثق من الاسلام نفسه : عن القرآن وعن السنة لا عن محاولة للتوفيق والتنسيق والتلفيق . وأن فلاسفة الاسلام المشائين قد ابتعدوا عن الاسلام روحا ونصا . وعن المجتمع الاسلامى فكرا وعقيدة وحياة . وأن الفلسفة المشائية ماتت فى العالم الاسلامى منذ عهد بعيد ، ولم تمت العقائد الكلامية حتى عهدنا هذا : ولكن النشار ينصف مدكور فلا يجعله تابعا لمدرسة لطفى السيد وطه حسين. فيقول ليس الدكتور بيومى من مدرسة الفلسفة اليونانية التى رأت فى فلسفة اليونان (غاية الغايات) وأن إليها يعود كل فكر ، ولم ير الدكتور مدكور على الاطلاق أن فكرنا المعاصر ينبغى أن يرتبط بفلسفة أوربا وحضارتها تحت تأثير الدعوة الخاطئة التى قدمتها (مدرسة طه حسين) على مسرح تفكيرنا والتى تقول ، أنه مادام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان . وبما أن فلسفة أوربا وحضارتها هى امتداد لهذه الفلسفة فعلينا إذن أن نأخذ من هذه المدرسة الأوربية كل شىء » اهـ .

وبعد فما زال الحديث عن الفلسفة اليونانية وصلتها بالفلسفة الاسلامية حاجة إلى مزيد من عرض وجهات النظر .

الفصل الخامس

حـــوار حول آراء طه حسين

— ١ —

لا ريب أن الدكتور طه حسين واحد من أبرز الذين أثروا فى الفكر الاسلامى العربى الحديث ، فقد ظل متصلا بهذا الفكر منذ عام ١٩١١ تقريبا إلى ماقبل وفاته بقليل ١٩٧٣ أى خلال أكثر من ستين عاما منذ ماقبل الحرب العالمية الأولى وفيما بين الحربين ، وفيما بعد الحرب العالمية الثانية وهى فترة طويلة لم يعش على امتدادها إلا عدد قليل من الكتاب العرب أمثال ، ميخائيل نعيمة ، وسلامة موسى والعقاد والزيات ، وكان طه حسين من أطولهم عمراً ، وإن كان قد صمت فى السنوات العشر الأخير صمتا بالغا ، غير أنه ظل مؤثراً بنفوذه الأدبى فى مجال المناهج المقررة فى المدارس ، والندوات التى كان يشهدها ، وما كان يذاع له أو عنه ، ولا ريب أن استمرار حياة الكاتب أجيالا متوالية وعمراً مديداً من شأنه أن يخلق نوعا من القداسة أو الاعجاب الذى لا يحرزه الذين ماتوا مبكرين ، وكادت الأجيال الجديدة أن تنساهم من أمثال المازنى والدكتور محمد حسين هيكل والرافعى وزكى مبارك .

كذلك فإن سيطرة الدكتور طه حسين على كثير من المؤسسات واشتراكه فيها كان بعيد الأثر فى هذه النظرة التى توسع آفاق الاعجاب به وتقديره فى أجزاء كثيرة من البلاد العربية كالعراق والمغرب ، فقد كان مسئولا عن اللجنة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، ورئيسا لمجمع اللغة العربية فى مصر وتخرج على يديه عدد كبير من أساتذته الجامعة ، فضلا عما كان موضع الاعجاب من رجل كفيف له قدرة بالغة فى الاملاء باللغة الفصحى ، وله أسلوب بليغ وناعم ، وله قصة تروى هى (الأيام) يبدو فيها مقتحما للحياة ، ثم ما كان من مواقفه السياسية ، وما دعا إليه من إطلاق التعليم ، كل هذا رسم للدكتور طه حسين هالة ضخمة لاسبيل إلى تجاهلها ، وربما كان للسياسة الحزبية أثر كبير فى إضفاء صفة الاعجاب والبراعة على هذه الصورة التى عجز

كثيرون من زملاء طه حسين المكفوفين الذين حملوا الدكتوراه أو سافروا إلى فرنسا من أن يصلوا إليها : أمثال : (الدكتور محمد غلاب والدكتور عبد الحميد يونس) .

والدكتور طه حسين بعد ذلك رجل طموح متطلع إلى المجد ، راغب دائما فى أحداث الدوى ، حريص أن يظل اسمه على الأفواه ، فهو يرغب إلى ذلك بكل الوسائل وهو قادر على أن يجرى كل مجرى فلا يوقفه شىء ، ولا يحول دون هدفه عقبة ، فهو لا يقف أبداً ولكنه يتحرك دائما ويبحث عن الخارج ، ولا عليه أن يترك الأحرار الدستوريين إذا حوصروا إلى حزب الاتحاد ، حزب الملك ، ولا عليه بعد ذلك أن يعود . ثم هو لا يلبث أن يجد فرصة فى حزب الوفد تمكنه من أن يحدث الدوى فيتصل به ويترك أصدقاء الأمس ، بل ولا يبالى إذا ما نقدوه أن يهددهم بأن يكشف أمرهم وهو لا يصبر على الوفد إذا جاءت الثورة فهو معها ، وهو فى كل أمره متطلع إلى المكانة البارزة ، فإذا وجدها فى الجامعة فبها وإلا ففى الصحافة وإلا ففى الوزارة وهكذا تمثل حياة الدكتور طه حسين حركة دائبة لا تتوقف وهو لا يعيد اليوم ما أذاع بالأمس ، ولا ينشر فى الغد ما كتب اليوم ، فإن كل شىء لديه يتغير ، والصداقات تبدء وتختفى حسبما تشاء المنافع ، وهو فى ذلك كله يجهر برأيه فيبتسم له عارفوه . ذلك أنهم يشفقون عليه ، فرئيس التحرير يحاكم دونه عن مقالات كتبها حتى لا يعرضون كفيفا للسجن . ويشير إليه الساسة الكبار أن يعلن أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله حتى لا يحاكم بشأن الشعر الجاهلى فيعلن ، ويدعونه إلى أن يسافر حتى تهدأ الأزمة فيذهب ، وحين تراجع كتاباته تجدها مجموعة من الآراء المتناقضة بين الاعجاب والنقد والمدح والهجاء حسبما تشاء الظروف ولقد كانت الحياة السياسية فى مصر قلبا ، وكان هو يتقلب معها ، ولكن هناك من ثبتوا على مبدأ واحد ، وصمدوا فى سبيل الدعوة إليه ، كذلك أمره فى نظريات الأدب ومذاهب الفكر تروج معه كل لامعة براقة ، فإذا خفتت عداها إلى غيرها . وكذلك كان طه حسين قنطرة ضخمة من قناطر الأدب الغربى ، والفكر الغربى ، وما من مرة يعود من أوربا بعد الصيف إلا ويحدث الدوى بأمر من الأمور أو رأى من الآراء ، كأنما يتلقى هناك الوحى ، ولقد كانت هذه الآراء تجد إعجاب اللحظة ولكنا بعد قليل تفقد ضوءها ويتبين زيفها .

ولقد كان لطول حياة الرجل أثرها البعيد فى تكشف كثير من الحقائق التى

تتعارض مع مادعا إليه حتى ليمكن القول في ثقة أن عشر نظريات قدمها طه حسين خلال حياته سقطت جميعها وتهاوت وهو حي وشهد هو بنفسه اندحارها .

وهذا هو الجانب الذي يغفل عنه الكثيرون ممن يرون إسما لامعا مدويا ، ثم هم يجهلون ماوراء هذا المظهر ، وحق لهم أن يبحثوا حتى لا تخدعنا الأسماء اللامعة دوما . وإنما يجب أن يكون إعجابنا مرتبطا بالاضافات الحقيقية .

نحن لا نغض من قدر طه حسين الكاتب المنشىء صاحب الأسلوب العربي الجميل وصاحب (الأيام) فذلك شيء مقدور ، فطه حسين من أصحاب النثر الفني ، ومن المدرسة المبدعة التي أنشأها المنفلوطي وسار في طريقها الرافعي والزيات والبشري .

وقد كان هو واحد من قممها ، فما يستطيع أحد أن ينتقص من موسيقى أسلوب طه حسين وفنه وبراعته التي ترجع أساسا إلى ما استطاع أن يمنحه له « القرآن » الذي حفظه ، والأزهر الذي اتصل به ، والتراث الاسلامي الذي تعرف إليه في صدر شبابه ، كذلك فإن أدب « ترجمة الحياة » التي تمثلها الأيام هي من صميم فنون الأدب العربي اهتدى إليها ابن خلدون والامام الغزالي ، وكثيرون من كتاب الاسلام على نحو يشهد بأن فن الترجمة الذاتية أصيل في الأدب العربي ، ويمكن القول بأن طه حسين استن سنة جديدة في الترجمة لنفسه على لسان الغائب وأسقط السنوات والأسماء وبعض الوقائع التاريخية ، وذلك مما اقتبسه من أساليب الآداب الغربية ، وربما كان هذا الكتاب هو أحد مصادر الاعجاب البالغة به .

غير أننا لا نبالغ إذا قلنا أن هذا النثر الموسيقي كان مدخلا خطيراً إلى آراء طه حسين في كتبه : على هامش السيرة ، ومستقبل الثقافة في مصر وفي الأدب الجاهلي وكلها مؤلفات ووجهت بالنقد الشديد والتفنيد الواسع ، ومعنى هذا أن الأسلوب الفني الجميل كان مدخلا خطيراً إلى النفس العربية وكان عاملا هاما في إغراء الشباب بتقبل عديد من الآراء والقضايا التي تعارضت مع أصول الفكر الاسلامي وقيمه الأساسية . ولقد كان من رأيي — وهذه وجهة نظر تحتمل الصواب والخطأ ويمكن أن تناقش في حرية تامة — إن طه حسين لم يمت إلا بعد أن تهاوت نظرياته كلها وسقطت وقام من يعارضها بالحجة ويناقضها بالدليل ، وأن الفكر الاسلامي كان

قد تجاوز هذه المرحلة من التبعية للفكر الغربي الوافد إلى مرحلة أشد أصالة وقوة وترشيداً .

ولقد شهد طه حسين في السنوات الأخيرة آراءه تتهاوى وحاول هو أن يدخل في الدوائر الجديدة حتى لايموت . ومن ذلك موقفه الذي أعلن فيه تأييده للقومية العربية بعد أن ظل سنوات ١٩٢٦—١٩٥٦ يحمل على العرو بة ويعدها دخيلة على مصر، ويعد العرب في صفوف المحتلين كالفرنسيين والإنجليز وليس في هذا مبالغة ما . فإن الدكتور طه حسين كتب عام ١٩٣٤ مقالا في جريدة كوكب الشرق أعلن فيه أن مصر ابتليت بمستعمرين كثيرين ومنهم العرب ، وقد كان لهذا المقال وقع الصدمة في العواصم العربية وفي دمشق جرقت كتب الدكتور طه حسين في ميدان عام وظل طه حسين على موقفه من الفرعونية حتى عام ١٩٥٢ حين أعلن أن مصر لاتنوى أن تهدم الأهرام وأبى الهول ، وقد واجه طه حسين خلال هذه الفترة عشرات من الكتاب الذين عارضوا هويته ، وفي مقدمتهم ساطع الحصري ، وهذا الذي نقوله كله منشور في الصحف مثبت في الكتب والمراجع ، وقد ظل طه حسين يستمد موقفه من المصرية والفرعونية والاقليمية من تيار كان قد استحدثه لطفي السيد الذي يطلقون عليه أستاذ الجيل ، وكان عميد الأدب العربي من أبرز رواد هذا التيار . ولقد جاءت بعد ذلك موجة الاعتراف بالعروبة فجرفت كل هذا الفكر ونوقشت نظريات طه حسين في الاقليمية والفرعونية في مختلف كليات أركان الحرب والجامعات والمعاهد العليا ، وخاصة في معهد الدراسات العربية على أنها نظريات مبطلة فاسدة .

وتلك هي أولى وأكبر النظريات التي دعا إليها طه حسين وكان فيها تابعا للفكر الغربي ، بل تابعا للفكر الاستعماري الذي كان يعمل على تمزيق الأديم العربي الاسلامي .

وتأتي بعدها مباشرة نظريته في ارتباط مصر بالبحر المتوسط وماذكره في كتابه : مستقبل الثقافة من أن عقلية مصريونانية غربية ، وأن الاسلام لم يغير هذه العقلية ، وأن طريق النهضة هو أن تنفصل مصر عن العرب وتلتحق بالغرب وتأخذ حضارة الغرب كاملة (خيرها وشرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها ومايعاب) وأن مصر فرعونية أولا ، ثم غربية ثانيا ، ولن تكون عربية أو إسلامية أبداً .

وفيما يتصل بذلك: دعوته إلى تمصير اللغة وتمصير الأدب وتمصير الفكر . وقد دعا أمين الخولى رفيقه وتابعه فى كلية الآداب إلى إعلان دعوة الأدب المصرى ، وجاءت بعد دعوته إلى تمصير النحو وتمصير البلاغة ، وجاءت دعوته إلى إدخال حروف التشكيل فى الكلمات وكتب فى ذلك أكثر من مرة وسمى نفسه على هذا النمط الجديد (طاها) وقد هوجمت هذه الآراء جميعها وعورضت وضربت بشدة . وكان العقاد فى مقدمة المهاجمين لهذا التيار . وكذلك الدكتور محمد محمد حسين وعشرات من الأعلام : ذلك أن هذه الدعوة كلها كانت تجرى فى مجرى واحد هو : « تغريب مصر » وقد اتصل ذلك بإلغاء الامتيازات الأجنبية التى كانت تشرف على معاهد الأرساليات التبشيرية فى مصر . فأريد أن يضع طه حسين برنامجا للثقافة بديلا لها . وكان كتابه مستقبل الثقافة الذى اختير بعد ذلك مراقبا عاما للثقافة ومستشاراً لوزارة المعارف . ثم وزيراً للمعارف فى ضوء هذا المنهج وهذا الاتجاه . وكان له أبعد الأثر فى مناهج الأدب واللغه فى الثانوى . فقد فرض مفاهيمه فى إعلاء اليونان على العرب وكان كتابه (قادة الفكر) وهو مجموعة من فصول عن سقراط وأفلاطون وأرسطو مقرراً سنوات طويلة على الطلبة فى المدارس الثانوية .

وكذلك مناهجه فى الأدب حيث جعل الخطابة اليونانية أوفر حظا فى الدراسة من الخطابة العربية إلى غير ذلك من شعوبيات متعددة استطاع أن يمليها بنفوذه فى وزارة المعارف . وحيث فرض دراسة اليونانية واللاتينية فى كلية الآداب بغير مسوغ حيث أنها مفروضة فى المناهج الفرنسية من أجل ارتباط الأدب الفرنسى بالأدب اليونانى أما فى مصر فما الحاجة إليها ، وقد حاجه فى هذا ساطع الحصرى وكثيرون وبينوا فساد هذا الاتجاه .

كذلك كانت دعوته إلى إلغاء الأزهر وإلغاء التعليم الدينى وتوحيد التعليم الأولى فى الأساس وجعله مدنيا لا يدرس فيه الدين على أن يصبح الأزهر كلية لاهوتية كما حدث فى الغرب . وذلك ما أطلق عليه الخطوة الثانية ، وكان يعنى بالخطوة الأولى إلغاء المحاكم الشرعية . وقد هاجم هذا الرأى عشرات من المفكرين والعلماء ، وثبت أن هذه الدعوة ليست خالصة لوجه العلم أو الأمة ، وإنما هى جزء من مخطط الاستشراق والتغريب .

ولقد سقط أيضا فى هذا المجال ماحاول الاشارة إليه من أن المسلمين تأثروا بالفكر اليونانى قديما . ولما كان الفكر اليونانى هو أساس الفكر الغربى الحديث فلا بأس من تبعية المسلمين فى العصر الحديث لهذا الفكر .

وتلك نظرية باطلة ووجهة نظرمسمومة لم تثبت قطعا فى أى لحظة من اللحظات ولم يقر المسلمون يوما تبعيتهم للفكر اليونانى أو للفارسى القديم . وقد واجهوا هذه الفلسفات حين ترجمت وكشفوا عن وجه الخلاف بينها وبين منهج الاسلام ووصلوا إلى إبراز منطق القرآن الكريم بديلا لمنطق اليونان ، وكان مفهومهم الاسلامى مخالفا للفكر اليونانى. فقد أخذ المسلمون سبيل التجريب ورفضوا أسلوب التأمل ، والنظر المجرد ، وبذلك عبروا بالبشرية إلى عصر العلم عندما كشفوا وأنشأوا المنهج العلمى التجريبى .

ولقد كان المسلمون فى مختلف عصورهم يؤمنون بذاتيتهم الخاصة التى أعطاها لهم الاسلام ، وكانوا يرفضون أن يذوبوا فى أى ذاتية أخرى ، وكان حرصهم هذا هو الذى مكنهم من الصمود فى وجه موجات الفكر الوافد على مدى العصور وهذا هو سلاحهم الذين يقاومون به فى العصر الحديث كل ما يطرح فى أفق الفكر الاسلامى من نظريات مادية أووثنية أوإلحادية ، وسوف لايكون المسلمون والعرب يوما أتباعا لفكر غير فكرهم . أو أن يكونوا موضع احتواء والاذابة .

وهذا ماشهد طه حين أطرافا منه قبل أن يموت ، وأحس بأن دعوته هذه كانت مبطلة مضللة .

كذلك فإن طه حسين قدم مجموعة من الآراء لم تجد من يناصرها أو يدافع عنها .
(أولا) — رأيه فىالشعر الجاهلى وما اتصل به من شبهات . وقد ثبت أن هذا الرأى مسبوق ببحث ضاف لمرجليوث المستشرق اليهودى البريطانى ، وأن طه حسين قد أخذه كاملا .

وأنه اعتمد فى إنكاره (وجود سيدنا إبراهيم وسيدنا اسماعيل عليهما السلام) على التوراة وعلى الآراء التى نشرتها اليهوديه والصهيونية العالمية والتى كان

يحمل لواءها أساتذة طه حسين فى باريس من أمثال دوركايم اليهودى ، وليفى بريل اليهودى أيضا .

وقد نشر عديد من الأبحاث فى نقد آراء طه حسين بصفة عامة منها ما كتبه الرافعى وفريد وجدى ولطفى جمعه والخضر حسين فى القديم ، ومنها ما كتب فى العصر الحديث وفى مقدمته أطروحة الدكتور ناصر الدين الأسد عن الشعر الجاهلى التى نشرت فى السنوات الأخيرة فى أكثر من ثمانمائة صفحة .

وقد تبين أن الدكتور طه حسين إنما اتخذ من قصة انتحال الشعر وسيلة إلى الغض من شأن الاسلام ونبيه وكتابه ، وكذلك إتخذ من صلة الرسول الكريم بسيدنا إبراهيم وسيدنا اسماعيل . وأن هذا التشكيك الذى أورد وكذلك اتخذ فى هذين النبيين الكريمين إنما هو هدف من أهداف الصهيونية فى قطع الصلة بين وبين العرب أبيهم إبراهيم .

وهذه محاولة ماكرة مسمومة فى طريق ما تدعو إليه يهود من أنهم ورثة ملك إبراهيم دون العرب .

(ثانيا) ما أقامه فى كتابه (على هامش السيرة) من إحياء للأساطير التى عمل مؤرخوا المسلمين خلال ثلاثة عشر قرنا على إبعادها عن سيرة الرسول وتحرير السيرة النبوية منها . فكانت تلك مؤامرة ضخمة أن يعود الدكتور طه فيدمج هذه الأساطير فى السيرة مرة أخرى ، ويعطى نفسه مطلق الحرية فى الاضافة إليها . كما أشار إلى ذلك فى مقدمة كتابه ذاك . ولقد هاجم أشد أصدقاء الدكتور طه حسين محبة وصداقة ، الدكتور محمد حسنين هيكل هذا الاتجاه . وقال الامام مصطفى صادق الرافعى أن كتاب هامش السيرة تهكم صريح وأحيل القارئ إلى كتاب المعارك الأدبية وكتاب المساجلات والمعارك الأدبية وهما لكاتب هذه السطور ففيهما تفصيل واف عن هذه القضية .

(ثالثا) — ماذكر عن المتنبى فى كتابه (مع المتنبى) من أنه منكور (الاب) ، ثم وصل من ذلك إلى أسوأ ما يمكن أن يتهم به باحث حين قال : إن المتنبى لقيط وأنه جاء من طريق غير شرعى . وقد ثبت بطلان هذا الرأى ، وكشف الأستاذ

محمود محمد شاكر فى مقالات متعددة هذا الزيف وجاءت الحقائق تترى لتكشف أن المتنبى من أعلى درجات أهل البيت كما بين ذلك الاستاذ الحوت فى كتابه الجديد .

ونعرف جيداً (ماورائيات) هذا الاتجاه فى هامش السيرة وفى المتنبى دون حاجة إلى إفاضة . فقد كانت السيرة دوما فى نظر المستشرقين حائطا مهيبا يحول دون نفاذ شبهاتهم . فجاء الدكتور طه حسين لينقب فى هذا الجدار ثغرة وكذلك كان المتنبى مثلا عاليا على الخلق العربى : فجاء طه متابعا المستشرق بلاشير فى الحملة عليه واتهامه .

(رابعا) ما يتصل بالفتنة الكبرى والموقف من الصحابة ومحاولته تصويرهم فى صورة السياسيين المحترفين فى هذا العصر . صراعا وطمعا وتقاتلا على الحياة وحاشا لله ما كانوا كذلك . ولكنهم كانوا مثلا عاليا للخلق والنبل وهم أصحاب رسول الله الهادون والمهتدون .

وما يتصل بذلك من إنكاره شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى فى كتابه الفتنة الكبرى، وتهوينه من دوره الخطير اعتماداً على مصدر عربى قديم هو : أنساب الأشراف ، الذى طبع فى إسرائيل تحت إشراف بعض عتاة الصهيونية ، وقصد به تبرئة اليهود من الاتهام الخاص بمؤامرة سيدنا عثمان . ومن عجب أن هذا الكلام جاء فى الجزء السادس وهو الجزء الوحيد الذى طبع فى إسرائيل ، بينما لم تطبع باقى الأجزاء لاماقبله ولا ما بعده . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ محمود محمد شاكر فى نقده لكتاب الفتنة الكبرى .

وقد أجملنا ذلك فى كتابينا : المعارك والمساجلات :

وقد نصل من ذلك إلى الصلة التى ربطت الدكتور طه حسين بدار الكاتب المصرى عام ١٩٤٦ وهى دار يهودية كانت فى القاهرة ، ومنها أصدر مجلة الكاتب المصرى ثم أغلقت فى ظروف مريبة سافر بعدها الدكتور طه حسين إلى أوربا فاقام عاما كاملا شبه مبعد قبل أن يعود إلى مصر، ويتصل بهذا ما كشف عنه الدكتور فؤاد حسنين فى مقدمة ترجمته لكتاب (شمس الله تشرق على الغرب) للدكتورة سجريد هونكه عن

اتصالات الدكتور طه بإسرائيل ولفنسون تلميذه فى كلية الآداب ، وصاحب كتاب اليهود فى جزيرة العرب . واللغات السامية ، ومايتصل بما ورد فيهما من مادة تحوطها الشبهات .

وبعد :

كل هذه النقاط أضعها أمام الباحث العربى اليقظ المؤمن بوطنه وفكره وإدعه يقلبها فى هدوء ويستكشف ماوراءها وعليه هو أن يضعها فى مكانها الصحيح من شخصية الدكتور طه العريضة الوافرة وأقول له ان عبارة عميد الأدب العربى ليست إلا عبارة غامضة طرحتها السياسه الحزينة بعد أن أخرج طه حسين من عمادة كلية الآداب ولم تكن شهادة صحيحة أجمع عليها الأدباء أو أهديت إليه فى حفل عام أومبايعة علنية .

الفصل السادس

ارهاصات صهيونية فى الأدب العربى المعاصر

يقول مؤلف كتاب (يقظة الفكر العربى فى مواجهة التغريب) : أنه من خلال دراسة مرحلة ما بين الحربين (١٩١٨ — ١٩٣٩) وهى فى تقدير الباحثين من أخطر مراحل التاريخ العربى الإسلامى : تبدو إيماءات كثيرة إلى أخطار وآثام لم تكن قد تكشفت بعد ، وهى تبدو اليوم بالمراجعة وإعادة النظر كأنما كانت تضع الخطوط العامة لأعمال بعيدة الأثر عميقة الخطر . ومن خلال هذه الايماءات تبدو بعض المخططات الصهيونية الباكرة وتتكشف ملامح الايدلوجية التلمودية التى كانت تنطلق من خلال هذه المرحلة برفق وأناة من خلال كلمات وعبارات ودعوات . . الخ الخ .

ويهمنا أن نتابع هذه النقطة لنحاول أن نصل إلى أثر الصهيونية فى الأدب العربى المعاصر ، ويمكن أن نضع فى أيدينا هذه الخيوط مجمعة ثم ننظر فيها من بعد مفرقة .

أولا — النشاط الخطير الذى قام به إسرائيل ولفنسون تلميذ طه حسين فى جامعة القاهرة وأستاذ اللغات السامية فى دار العلوم وكتاباته فى الصحف والمجلات ومؤلفيه الخطيرين : اللغات السامية واليهود فى جزيرة العرب (الذى هو بمثابة أطروحة نوقشت فى الجامعة المصرية كلية الآداب) .

ثانيا — الدراسات التى قدمها (إيزاك شموس) فى مجلة السياسة الأسبوعية عن الأدب العربى وعن أثر السلطان عبد الحميد فى الأدب العربى .

ثالثا — افتتاح الجامعة العبرية ١٩٢٦ وحضور لطفى السيد هذا الاحتفال ممثلا للجامعة المصرية .

رابعا — ما نشرته الهلال والمقتطف عن إحصائيات عن طباعة العهد القديم على سنوات متعددة وترجمته بمختلف اللغات فى العالم .

خامسا — أثر أساتذة الجامعات فى أوروبا وباريس بالذات فى عديد من شباب مصر الذين تبوءوا المناصب الجامعية والثقافية فيما بعد .

منصور فهمى ، طه حسين، محمود عزمى — زكى مبارك ، محمد مندور وولاء هؤلاء الأساتذة : دوركايم وليفى بريل . وهما يهوديان وماسنيون وجب جولدسيهر وغيرهم .

سادسا — الاحتفال بذكرى موسى بن ميمون الفيلسوف اليهودى فى الأوبرا الملكية وشهود عشرات من أعلام الفكر هذا الاحتفال والاشتراك فى ذلك عام ١٩٣٦ .

سابعا — حركة الاحياء للترات اليهودى التى اشترك فيها هلال فارحى ، وإيزاك شموس ، وإسرائيل ولفنسون ، ومراد فرج ، واسماعيل أدهم أحمد ، وطه حسين ، واسماعيل مظهر ، ومجلات الهلال والمقتطف والعصور والمجلة الجديدة .

ثامنا — الاهتمام بالدعوة إلى البهائية ونشر الفصول الضافية عنها وخاصة فى هذه المجلات الأربع .

تاسعا — الحملة على السلطان عبد الحميد فى الصحف التى يصدرها : يعقوب صروف وفارس نمر ومكاريوس وخليل ثابت وسليم سركيس وجرجى زيدان وشبلى شميل وجلهم من خريجى مدارس الارساليات مع انتماء هؤلاء جميعا الواضح للماسونية وقد كانت الحملة على السلطان عبد الحميد قد بدأت ١٩٠٢ تقريبا .

عاشراً — ما أورده الدكتور طه حسين فى كتاب الشعر الجاهلى من التشكيك فى وجود إبراهيم واسماعيل عليهما السلام وفى دروسه فى كلية الآداب عن القرآن المدنى والقرآن المكى . . . وهى من آراء اليهود الذائعه فى كتابات مستشرقيهم أمثال مرجليوث وغيره .

حادى عشر — كانت الدراسات التى قدمها هلال فارحى فى الأهرام وإسرائيل ولفنسون فى كتاباته ومحاضراته عن اللغات السامية تستهدف إحياء اللغة العبرية القديمة وخلق مكانة موهومة لها بالمقارنة مع اللغة العربية كذلك الدراسات التى استهدفت انبعاث التاريخ القديم السابق للإسلام والمسيحية مما يتصل أساسا باليهودية وإحياء تراثها .

ثانى عشر — محاولة التبشير بالدور الصهيونى فى البلاد العربية ، وأثر الصهيونية فى الحضارة العربية على النحو الذى كتبه عمر عنايت فى العصور عما أسماه المدنية اليهودية المستقبلية .

ثالث عشر — محاولة إبراز دور زائف لليهود فى مواقع كثيرة من الأدب العربى والفكر الاسلامى ، ومنها ما حاضر به إسرائيل ولفنسون عام ١٩٢٥ عن آثار اليهود فى الأدب العربى وفى ألف ليلة وليلة .

رابع عشر — ما حاولت بعض كتابات التبعية أن تسبغه على الأدب العربى من طابع التوراتية على النحو الذى نراه فى كتابات المهجريين وما ابتكره المازنى من بدء فصول قصصه بكلمات من التوراة . وما كان يكتبه الدكتور حسين فوزى وغيره من عناوين : الحق (أقول لكم) أو (فى البدء كان الكلمة) ومحاولة المهجريين (جبران ، إيليا أبوماضى ميخائيل نعيمة) فى فرض الأسلوب التوراتى ، ومعارضة المنفلوطى لهذا الأسلوب القرآنى ونجاح الاتجاه المنفلوطى وفشل التوراتى .

خامس عشر — روح التلمودية الواضحة فى آراء زكى مبارك (النثر الفنى) عن العرب قبل الاسلام واستعدادهم للملك وتصغير دور الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وإنكار طابع الاعجاز فى القرآن وطابع النبوة فى بناء الأمة الاسلامية .

سادس عشر — محاولة طبع بعض مخطوطات التراث الاسلامى لتأكيد نوع معين من الرأى أو تزييف بعض الحقائق أو إثارة الشبهات ، ومن أخطر ذلك طبع كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى فى إسرائيل وتولى المعهد الشرقى بالجامعة العبرية بالقدس نشره وقد وضع محققه وطابعه اليهودى (جونهادويال) مقدماته بالعبرية بترجمة إلى الانكليزية . وقد اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى كتابه عن الفتنة الكبرى فى انكار وجود اليهودى عبدالله بن سبأ .

سابع عشر — إحياء تاريخ الشعراء اليهود ، وقد أصدر مراد فرج المحامى اليهودى كتابا عن مجموعة من شعراء اليهود منهم السموال والربيع بن أبى الحقيق وأبو زياد وأبو الزبال وابراهيم بن زيد .

ثامن عشر — ما نشرته مجلة الهلال فى الثلاثينات من فصول متتابعة عن الحل اليهودى للمشكلة الصهيونية . وكله مما يهيء الأذهان لقيام إسرائيل . وكذلك ما نشرته مجلة المقتطف .

تاسع عشر — ما أذاعه كثيرون من تلاميذ المستشرقين عن الغض من شان العرب وإعلاء المصريين عليهم (أحمد أمين ، توفيق الحكيم) وغيرهم وإنكار فضل الاسلام (سلامه موسى ، طه حسين) .

ومما يتصل بأطروحات الدكتوراه فى أوروبا : يهودى هو (دوركايم) يدفع طه حسين إلى مهاجمة ابن خلدون . ويهودى هو (ليفى بريل) يدفع منصور فهمى إلى مهاجمة الرسول فى زوجاته ، وأتباع اليهود دفعوا زكى مبارك إلى مهاجمة الغزالى ، و بلاشير دفع طه حسين إلى مهاجمة المتنبى .

تلك هى الخيوط العامة التى نرجو أن نفصلها فى راسة تامه .

الباب الثالث

فى التراجم

١ — محمد فريد : مات مغتربا فى برلين .

٢ — عزيز أباظه : حياة عريضة .

٣ — أبو الطيب المتنبى

٤ — أحمد محرم : والالياذة الاسلامية .

٥ — محمد إقبال : الكشف عن إيجابية الاسلام .

٦ — رائد أدب الطفل : كامل كيلانى .

الفصل الأول

محمد فريد

في ١٥ نوفمبر ١٩١٩ مات محمد فريد مغتربا في برلين ...
وانتهت حياة محمد فريد الحافلة العريضة المليئة بالجهاد

ولقد كان استهلال حياته مفتاحا لتاريخه كله ، فقد كان وكيلا لمحكمة الاستئناف عندما نظرت قضية جريدة المؤيد لأنه أذاع برقية عن حملة (دنقلة) بالسودان فأبدى شعوره الوطني بالفرح والابتهاج عندما حكم القضاء ببراءة المسئولين عن جريدة المؤيد . هناك صدر الحكم بنقله إلى قنا جزاء له على إبداء هذا الشعور . ورأى فريد في ذلك ما يمس كرامته ويمس كرامة القضاء ، فاستقال من منصبه عام ١٨٩٧ وعمل بالمحاماة أعواماً ، كون خلالها — فضلا عما ورثه من والده — ثروة ضخمة أنفقها جميعها على الحزب الوطني والحركة الوطنية . ثم تبين له عام ١٩٠٤ أن المحاماة تشغله عن عمله الوطني فاعتزلها ولكنه عاد إليها عام ١٩١١ بعد أن لم يعد له مورد رزق غيرها .

وفي عام ١٩١١ حوكم محمد فريد وأودع السجن ، وبدأ الاحتلال يضيق الخناق حوله :

فلما خرج من السجن كتب يقول :

« مضى على ستة أشهر في غيابات السجن ، ولم أشعر أبداً بالضيق إلا عند اقتراب أجل خروجي ، لعلمي أني خارج إلى سجن آخر هو سجن الأمة المصرية الذي تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال . . لم أشعر بأي انشراح عند حلول مفارقتي لهذه الغرفة الضيقة التي قضيت بها ستة أشهر قرية لعلمي أني خارج إلى سجن أضيق ومعاملة أشد ، إذ أصبح مهدداً بقانون المطبوعات ومحكمة الجنايات محروما من الضمانات التي منحها القانون العام للقتلة وقطاع الطريق ، فلا أثق أني أعود لعائلتي إصند مني ما يؤلم حكومة الاحتلال من الانتقاد . بل ربما أوخذ من محل عملي إلى

النيابة فالسجن الاحتياطى فمحكمة الجنايات إلى السجن النهائى وستبقى حالنا كذلك حتى نسترد الدستور وتفى انجلترا بوعودها المتكررة فتجلو عن بلادنا .. » .

هذا ما كتبه محمد فريد بعد أن خرج من سجنه يوم ١٨ يولية ١٩١١ ولكن الذى حدث كان غير ما تنبأ به ، فإنه لم تكد يمضى عليه ثمانية شهور حتى كان الاحتلال قد اضطره إلى أن يغادر مصر فلا يعود حتى ينقضى أجله .

ذلك أنه ما كاد ينتهى من إلقاء خطابه فى المؤتمر الوطنى يوم ٢٢ مارس ١٩٢٢ حتى كانت الإجراءات قد اتخذت لمحاكمته بتهمة التحريض على حكومة الاحتلال وتبين أن هناك مؤامرة تدبر له لادخاله السجن والقضاء عليه .

وكانت العبارة الفذة التى أزعجت الانجليز والقصر هى قوله : « لا دواء للحالة الحاضرة إلا بالدستور » .

وقد اجتمع أصدقاء فريد وعملوا على إحباط هذه المؤامرة بأن نصحوا له بالهجرة بدلا من السجن . وقد استقر رأيه على ذلك ففاتح به زوجته وأوصاها بالجلد والصبر ، وطلب إليها ألا تخبر أولاده ولا أحداً من أهله بما اعتزم عليه حتى لا ينزعجوا . وزاد فى الاحتياط إذ طلب إليها لا تطلعهم على صحف الصباح « الثلاثاء » لكى لا يقرأوا فيها تفاصيل استجوابه فى النيابة ، وكانت زوجته آية فى الوفاء وعلو النفس ، فاستقبلت القضاء بالرضا وشجعته على السفر وتحمل مشاق النفى .

وسافر فريد إلى الاسكندرية فركب الباخرة ومعه صديقه اسماعيل لبيب فلما أقلعت فى الساعة الرابعة مساء وقف فريد على ظهرها يودع لآخر مرة دون أن يدرى شواطئ بلاده ومعالمها وهى تحتجب عن بصره رويداً رويداً .

بلاده التى أحبها وأنفق كل قطرة من عمره وماله فى سبيل حريتها وقد أرغم على هجرتها وترك زوجته وأبناءه وأصدقاءه فى حالة يائسة لم يكن يتوقع معها العودة .

ووصل إلى الأستانة وعزم على الاقامة بها كلاجىء سياسى ، ولكنه لم يلبث أن سافر إلى جنيف ، ومنها إلى برلين حيث استقر به المقام ، ومنها مضى يطوف أوربا خلال سبع سنوات طوال بحثاً عن مصر ، رافعا صوتها ، داعيا إلى حقها فى الجلاء والحرية .

❊ ❊ ❊

وعاش محمد فريد مهاجراً مغتربا فقيراً ، يتنقل بين تركيا وألمانيا وبلاد أوربا المختلفة يحن إلى مصر ، ويدعو لها ، ويفنى أيامه وساعاته ولحظاته ذاكراً إياها منافحا عنها . لقد ضحى فريد بكل مايملك فى سبيل مصر ، إذا كانت ثروته عندما اتصل بمصطفى كامل كانت قريبا من الف ومائتى فدان وبضع عمارات ، وبضعة ألوف من الجنيهات ، فانه عندما غادر مصر منفيا كانت كل تلك الثروة قد أنفقت على الحركة الوطنية فلم يترك لأولاده شيئا .

ولم يضعف الاغتراب عزيمته ، ولم يلن قناته ، أبداً ، بل زادته الهجرة إيمانا وقوة ، وأمده البعد عن الوطن بالجلد والثقة فى سبيل المبادىء التى آمن بها ، وكثيراً ما بات على الطوى أو تبلغ بقليل من الزاد ولكن عزيمته لم تهتز ، وجرت اتصالات لتثنيه عن بعض حماسته على أن يعود إلى مصر ولكنه رفض فى أباء ، وذكر كيف رفض ذلك وهو بين جدران السجن عندما جاءه رسول المعتمد البريطانى يقول له :

— إنه يسعى للعفو عنه على ألا يغير مبادئه بل يخفف لهجته .

وقال فريد يومها :

إن هذا مستحيل .

وكان قد سجن مرة أخرى من أجل « تحسين » ديوان وطنيق للشيخ على الغاياتى ، وكان قد كتب مقدمة له .

كان ذلك عام ١٩١٩ والخديو ينعم بسياسة الوفاق مع بريطانيا ، ولم تلبث هذه السياسة أن تحولت ، وعندما أرسل الخديو عباس إلى محمد فريد يطلب إليه أن

يتعاون معه على مقاومة اللورد كتشنر العميد البريطانى الجديد ، فيقول له فريد علانية :

إننى على استعداد لأن أتعاون مع أى مصرى غير أن الخديو لم يقدم لبلاده ما تنتظره منه . ولو وقف الخديو فى وجه بريطانيا سيجدنى فى جانبه من غير أن يطلبنى أو يدعونى ، ولكننى لا أريد أن يكون « الحزب الوطنى » وسيلة يلوح بها الخديو للانجليز حتى يعودوا إلى سياسة الوفاق معه .

وأسرها عباس فى نفسه حتى إذا ذهب فريد يدعو إلى الدستور وحرض الناس على إرسال العرائض إلى القصر مطالبين به ، هنا لك اتجه الخديو مع الاحتلال إلى إلى تدبير محاكمته وفر فريد إلى أوربا يدعو لمصر صديقاً مخلصا .

وأرسل له الخديو وهو فى أوربا يدعوه للتعاون معه فيكون رده :

إن على الخديو أن يقف فى وجه بريطانيا أولا وأن يضع لشعبه دستوراً وأنا معه » .

واستقبل خريف حياته مريضا ومجهداً ، تغشاه الغاشية من آن لآخر . وما أن يفيق حتى يسأل عن مصر ويردد قوله :

— أرجو أن أعيش حتى أرى بلادى قد أصبحت دولة مستقلة .

واضطرمت « ثورة ١٩١٩ » وملأ الفرح قلب فريد ، فقد تحققت دعوته ومضت الصحف الأوربية تشير إلى الوطن الذى استيقظ ليطالب حقه ولكن « مصر » فيما يبدو كانت قد نسيت فريدا البطل الذى وضع بذرة اليقظة فى نفس الشعب مع مصطفى كامل ، وأرسل برقيته إلى سعد زغلول الذى اختير لزعامة ثورة ١٩١٩ يقول :

— « نحيى فيكم الوطن الغائب ونرجو لكم كمال التوفيق » .

ولكن فريد لم يتلق رداً وغلب المرض فريداً فاعتكف فى غرفته الصغيرة

فوق سطح أحد منازل برلين . وقد تناثرت من حوله مظاهر الفقر ، وكان . . الرشح ينساب من جوفه ، دون أن يستطيع مقاومته أو علاجه ، وأنشب المرض أنيابه فى الرجل الفقير ، وقدمت وفود الحركات الوطنية من الهند وأيرلندا تعرض عليه الذهاب إلى « باريس » لحضور مؤتمر الصلح فاعتذر فى رفق وقائلا لهم :

— « اذهبوا إلى سعد فى باريس ، إننى أريد أن أكون جندياً كهؤلاء الجنـود المجهولون الذين يستشهدون فى ساحة القتال لا يطمعون فى مغنم ولا ينتظرون الجزاء » .

وينقل إلى « لسجارن » حيث تجرى له عملية جراحية ويخرجون من جوفه تسعة لترات من ماء الرشح ويخطر بأنه فى حاجة إلى عملية أخرى بعد أيام ، ولكنه لا يلبث أن يعلم انمؤتمر «لوسرن» سيعقد حتى ينحنى على جسمه المريض ،ويمضى فى سبيل الله يكتب ويصور الأم مصر بقلم من نار .

وتطالع أضواء فجر ١٥ نوفمبر ١٩١٩ وهو مازال مكبا على مذكراته .

ولكن لا يكاد الضياء يملأ الوجود حتى يكون « محمد فريد » قد أسلم الروح .

وكانت آخر كلمة نطق بها قديس الوطنية هى « مصر » وكان قد كتب وصيته قبل ذلك بأيام :

« إنى وأولادى وكل عزيز لدى فداء لمصر ، لقد قضيت بعيداً عن مصر سبع سنوات ، فإذا مت فضعونى فى صندوق واحتفظوا بجسدى فى مكان أمين حتى يتاح لى الفرصة العودة إلى الوطن العزيز الذى أفارق الحياة وكنت أود أن أراه » .

وهكذا أنهت حياة مجاهد عاش حياته من أجل مصر ومات من أجلها بعيداً غريباً ، وكانت آخر عبارة نطق بها هى « مصر » .

الفصل الثاني

عزيز أباظة

حياة عريضة يحدوها الايمان

بالفصحى وأمجاد الاسلام

منذ لمع نجم الشاعر عزيز أباظه فى سماء الشعر بديوانه (أنات حائرة) بعد أن أوفى على الأربعين من عمره وهو مازال فى صعود وتألق ، فقد تصدر العديد من المناصب الرفيعة فى مجاله الأدبى ، فهو رئيس لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ، وهو عضو المجمع اللغوى والحائز على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٦٥

وهو فى خلال هـذه الفترة (١٩٤٣ — ١٩٧٣) التى لاتتجاوز الثلاثين من الأعوام قد استطاع بحق أن يملأ الدنيا ويشغل الناس ، فقد أسهم فى الشعر والمسرحية الشعرية ، ودافع عن اللغة العربية الفصحى وعمود الشعر ، وشهد عشرات المهرجانات والمحافل الأدبية فى بغداد ودمشق ، وزار الأندلس والحجـاز والكويت ، ورحل إلى كثير من أقطار أوربا . وقدم عديداً من الأعمال الأدبية فى كل هـذه المجالات . وفى السنوات الأخيرة كانت علامات المرض قد بدأت تزحف ، وكان لايزال متطلعاً إلى أعمال جديدة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة خلال شهر يوليه الماضى . فكان ثالث ثلاثة من أعلام الشعر قضوا نحبهم فى الفترة الأخـيرة حيث سبقه فى الشهر الماضى الأستاذ على الجندى ، وسبقه من قبل المرحوم عبد الرحمن صدقى وكلاهما له به إمتداد أدبى وصلة فكر .

ولقد نفضت حياة عزيز أباظة الإنسان سحباً من حياة الوظيفة والسياسة الحزبية ولكنها لم تستطع أن تحجب صـورة عزيز أباظة الشاعر الذى وهب نفسه خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة للشعر واللغة العربية .

علامتان مميزتان تطبعان حياة « عزيز اباظة » وشعره لايكاد يخطئهما النظر فى

مراجعة عامة لآثاره . هما : «إيمانه بالفصحى لغة القرآن» إيماناً غير محدود ، وفخره بأمجاده العربية الاسلامية بطولة وتراثاً وميراثاً متجدداً يفتح الآفاق للأمة المجيدة إلى التماس مكانتها الحقة فى عالم اليوم ، وكل ماسوى ذلك من إنتاج الشاعر عزيز أباظة فهور رافد وإضافات تجرى حول هذين المحورين الكبيرين، فهو شاعر الفصحى مؤمناً بها مستمسكا بفنها الأصيل فى كل آثاره ، وهو المدافع المجلى عنها فى كل المواقف وخاصة فى المواقف التاريخية الحاسمة مهما كلفه ذلك من مشقة أوخصومة.. ثم هو المحب الصادق لتاريخ أمته وبطولاتها على مختلف صورها وألوانها ما بين صور البطولة فى الحكم أو إستعادة المجد أوعظمة الحب والوفاء ، وهوفى مسرحياته : قيس ولبنى، والعباسة ، والناصر ، وغروب الأندلس . وما أعده من مسرحيته عن صلاح الدين الأيوبى ، يعطى هذا الطابع القوى : طابع الايمان بهذه الأمة ، ودعوته إلى استعادة مجدها ومكانتها .

أمجاد العرب والاسلام

وليس موقف أعظم من وقفته أمام مسجد قرطبة وقبالة مئذنتها حيث خيل إليه « أن قلبها مازال يعتصره الألم . وأن حزنها على عصرها الذهبى ثائر لم يخمد ... وتذكر قصر الزهراء الذى كان قطب السياسة العالمية فى عصر عبد الرحمن الناصر ، وتذكر قرطبة وعلومها وآدابها وحضارتها والوفود التى كانت تتقاطر عليها لترتوى من مناهلها[1] فقال فى قصيدته (وقفة على قرطبة) :

ياجارة المسجد الباكى ومئذنة	الله كان يناجى فى مشارفها
ماذا دهاها فأمست وهى ناهدة	فى غير ما ألفته فى معاطفها
وقفت فى طلل الزهراء مختشعاً	والنفس نهب لعمات من عواصفها
أرنو فيرتد طرفى راعشاً وجلا	كهائب اللجة الكبرى وخائفها

ثم هو يعاود الوقفة أمام أطلال الزهراء خاشعاً إجلالا لشمس غربت ، ماثج

(١) التعليق للدكتور أحمد الحوفى — القومية العربية فى الشعر الحديث ..

القلب بأفكار وعواطف هائباً التغنى بهذه الأطلال هيبته من البحر المائج ، لأن أمواج الذكريات تتوافد عليه ذاخرة فلا يطيقها .

وقفت فى طلل الزهراء مختشعاً والنفس نهب لعات من عواصفها
أرنو فيرتد طرفى راعشاً وجلا كهائب اللجـة الكبرى وخائفها
طوفت بالطلل الأسوان أسـألـه أين الخلافـة فى حضنى خلائفها
أين ابن بجدتها شعت حضارته ـسنا على سالف الدنيا وآنفها
الناصـر الظافر المخشى جانبـه فى حينما دب سـاع فى تنائفها[1]

لقد وقف(عزيز أباظة) حيث وقف : شكيب أرسلان وأحمد زكى باشا شيخ العروبة وحيث وقف شوقى ..

ومن حيث يمضى عزيز أباظة فى هذا الاتجاه تحس أنه امتداد لشوقى ، ولهذا الرعيل من شعراء الأصالة العربية . ثم هو امتداد أيضاً للمسرحية العربية . ولاريب أن هذه المدرسة الشعرية العربية منذ عهد رائدها (محمود سامى البارودى لاتزال ولوداً تقدم رجالها جيلا بعد جيل ، وهى على الرغم من تجددها فى تيار مطران وتيار الديوان ومدرسة أبوللو ، لاتزال تحتفظ لنفسها بطابعها الخالص المؤثر للجزالة العربية فى الديباجة وصدق الايمان بالأمة وتاريخها وأمجادها وفصحاها .

مفهوم الشعر الأصيل

وقد توالت أسماء : اسماعيل صبرى — وشوقى — وحافظ — ومحمد عبدالمطلب وأحمد محرم — والكاظمى — والرصافى — والرافعى — وعلى الجارم — وعلى الجندى — والأسمر — والحومانى .

وكان عزيز أباظة : ذلك الوليد المفاجىء فى الخمسينات بعد أن أمضى صدر

---

(١) التنائف : جمع تنوفه وهى الصحراء أو الأرض الواسعة :

الشباب كله حين جاء ينفث نفثته الحزينة الباكية : بديوانه (أنات حائرة) عام ١٩٤٣ ثم مالبث أن اقتعد مكانه فى مجال الشعر كواحد من مدرسة البعث البارودية الشوقية ثم لم يلبث أن أصبح رافداً من روافد القصة المسرحية أو المسرحية الشعرية ..

ثم كان له دوره التاريخى الواضح فى الدفاع عن العربية الفصحى وعمود الشعر فى مرحلة دقيقة تداعت فيها القيم ، واضطربت ، واهتز مفهوم الأصالة وغلبته موجة عاصفة وجدت لها من بعض الصحف مجالا ، وفى بعض شباب الجيل بريقاً يغشى العيون عن الحقائق .

ولا تزال مذكرة لجنة الشعر فى المجلس الأعلى للفنون والآداب برئاسة : «عزيز أباظة» من الوثائق التاريخية الجديرة بالنظر والتقدير . وقد كانت خلاصة رأيه كما تحدث به : « مفهوم الشعر عندى هو فى نطاق ماقاله أحد كبار نقاده وأظنه (هازلت) إن لم تخنى الذاكرة فقد قال : إن الشعر — وهو يقصد الشعر الجيد بطبيعة الحال — هو كلام من دم ونبض وإيمان ، وأنا أفهم الشعر على هذه الصورة وأفهم الشعر كذلك على أنه هدية السماء للأرض ، وعلى أنه أكرم وأسمى أداة تصل بين جمال الحياة الانسانية ، وجمال الله .

« وأفهم الشعر كذلك على أنه : التعبير الصحيح الرائع لأكرم عواطف الحياة وأحاسسها ، وكل تعبير بفن غيره يقصر عنه وإن بلغ أقصى غاية الجودة » .

« وأفهم الشعر كذلك على أنه معنى جميل ولفظ أجمل يتلابسان فى أعطاف موسيقى رقيقة أو دسمة ، ولكنها موسيقى لاغنى عنها ، وإلا فلا شعر ، وأفضل ولو كره الكارهون موسيقى الخليل بن أحمد » .

« ومفهوم التجديد فى الشعر : أن هذا الجديد هو الذى يعبر به الشاعر عن نفسه لاعن غيره فكما أن الوجوه والقسمات تختلف فإن أحاسيس النفوس تختلف كذلك وكل تعبير ذاتى عنها هو نوع من أنواع التجديد » .

ثم يقول (عزيز أباظة) استطراداً فى شرح مفهومه للشعر العربى الأصيل : إن الشعر الخالى من الوزن والنظم لايمكن أن يعتبر شعراً . ولقد تساهلنا جداً فيما

يتعلق بالقافية وأصبح من حق الشاعر أن ينتقل من قافية إلى أخرى كيفما يشاء ، ولكنى أرفض أن يكون شعر بلا وزن . والتفعيلة لاتحدث الموسيقا إلا بانضمامها إلى تفاعيل أخرى يضمها « بحر » وبحور الشعر لها مجزوءات . ومجزوءات المجزوءات . أما مايقولونه فهو فى حقيقته نثراً ، فقد يكون نثراً جميلا ، ولكنه يظل مع ذلك نثراً .

وليس هناك فن بلا قيد : فن من غير قيد يعنى الفوضى ، والمقدرة فى الفن — كما يقول نيتشة — أن تستطيع الوثب بين هذه القيود لتصل إلى الإنطلاق .

لست ضد أى تجارب ولا أى تجديد ، كل ما أريده أن تسمى الأشياء بمسمياتها فحين أجد شاعراً يقول : (رأيت وجه الله فى واجهة أحد المخازن .. الخ) فإننى لاأملك نفسى من أن أتساءل مخلصاً أين الجمال فى هذا الكلام وأين الوزن[1] .

اللغة العربية الفصحى

أما موقف عزيز أباظة من الفصحى فإنه من المواقف الحاسمة أيضاً فى مرحلة من أدق مراحل الحملة عليها ومعارضتها بالكلمة والصورة والكاريكاتير .

وهو لايتتردد فى ساعة الاحتفال بمنحه جائزة الدولة التقديرية أن يقول فى مجمع الدولة والعلم وعلى مشهد من المهرجان الكبير .

« إن الشرق العربى كله — وبلادنا جزء منه — جماعات ليست كثيرة العدد ، ولكنها كثيرة المدد ، لعلها ترى أن الخير لايقوم إلا على أنقاض الجليل الكريم من مأثورات أمتنا العربية المجيدة : تلك المأثورات التى لم يزدها توالى السنين إلا توثقا واستقراراً وإنماءاً وازدهاراً . وعندى وعند جمهرة هذه الأمة أن الغض من هذه المأثورات كبيرة من الكبائر . فكيف إذا كان هذا المأثور هو لغة القرآن

---

(١) عن حديث له مع فؤاد دواره (ك) عشرة أدباء يتحدثون .

الكريم ، كتاب الإعجاز الخالد الذى يقول الله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

« وكيف إذا كان هذا المأثور هو لغة خاتم النبيين التى شعشع فيها أنوار أحاديثه تحمل الكمال والهدى للناس كافة ، وأرسلها فى أسلوب — كما يقول القدامى — ليس فيه عروة مفصولة ولا كلمة مفضولة .

وكيف إذا كان هذا المأثور هو لغة حكماء العرب ، ومقعدى شرائعها وفلاسفتها وكتابها ، وشعرائها ، والشعر بعد كتاب الله وأحاديث رسول الله : هو ديوان العرب ومعجمهم المحظوظ بحكم تداوله على الشفاه ، وخفته على ألسن الرواة ، وكيف إذا كان المأثور هو اللغة التى لا تربط العرب جميعاً إلا روابطها ، ولا تلم شملهم جميعاً يوم سعدهم ويوم بأسهم إلا وشائجها ، هذه الجماعات فى خفاء ووضوح ، تقذف العامية على الفصحى ، وتسلك العامية فى أطواء الفصحى وذلك بحجة التطوير .

وإنى لا أشهد أنى لا أعرف عاقلا له صلة بالأدب أو العلم إلا وهو مؤمن أعمق الإيمان أن كل علم أو أدب أو فن ليس متأبياً على التطوير ، لأن سلامته وبقاءه فى التطوير ، ولكن التطوير غير التدمير ، وأن حماية مقدساتنا هى أكرم على الله وعلى الناس من حماية حرية الهدم باسم حرية التفكير والتعبير . إن التجديد الذى يأمله أهل العلم والأدب ويباركونه هو التجديد المتجه صوب التجويد لا صوب التقصير والتبديد .

إنه لا أدب ولا فن ولا شعر ولا أية صورة من صور الجمال ، مستطيع أن يسمو سموه أو يعلو علوه إلا إذا برىء من غواشى الفوضى ، فتدافع إذ يتدافع بين نظم تربطه وضوابط تضبطه ، ومالى اتحرر من القول بأن القيم الجمالية العظمى التى كرم الله بنفحاتها الإنسان ، وطهر بزرقاتها الانسانية وجعلها مقاييس لكماله — عز وجل — هذه القيم الجمالية كلها ماهى إلا قيود : فالقصيد قيد والتائم قيد ، والصبر قيد ، والعفة قيد ، والصلاة والصوم قيد . إن قوة الأصيل وهوان الدخيل لعاصفان إن شاء الله بهذه الأوحال . ومحققان بهداية الله وتوفيقه تلك الآمال .

وبهذا استحق عزيز أباظة أن يقول عنه الدكتور مهدى علام فى مستهل ترجمته

فى كتابه «الجمعيون» : أنه أحد الشعراء الذين يقفون حتى اليوم مدافعين عن مدرسة الشعر العربى الأصيل ، والمحافظة على عمود الشعر ، ليس بمقالاته ومحاضراته فحسب . بل بأعماله الفنية المتعددة سواء فى الشعر الغنائى أوفى الشعر المسرحى .

رثاء الزوجة فى الأدب العربى

ولقد كان عزيز أباظة واحداً من شعراء ثلاثة أبدعوا رثاء الزوجة فى الأدب العربى الحديث تقدمهم البارودى

أيد المنون قدحت أى زناد — وأطرت أى شعلة بفؤادى
أوهنت عزمى وهو حملة فيلق — وحطمت عودى وهو رمح طراد

أما ثالثهم : عبد الرحمن صدقى فيقول فى ديوانه (من وحى المرأة) :

أيا غرفة مرموقة لصق غرفتى — مطفأة الأنوار رهناً بظلمة
أرى بابك المطروق بالأمس موصداً — ومخدع زوجى أنت ، بل أنت جنتى
فأدعو زوجى وهى جد سميعة — لا بمعرى ولكن الصدى رجع دعوتى
لقد كنت يازوجى لدى الصبح موقظى — وكنت حسيبى فى خروجى وأوبتى
فمالى لا ألقاك يومى وليتى — وبابك من بابى على قيد خطوة

أما عزيز أباظة فإنه يقول :

يذكرنيك كل جليل أمر — وكل يسيره فتذوب نفسى
إذا سكب الصباح فأنت همى — وإذا وقب المساء فأنت أنسى
جمعت على الهوى طرفى نهارى — كأنى لم أرع بنواك أمسى
رعاك الله ما فارقت روحى — وإن فارقت بعض الوقت حسى
فذكر القصر ذا الإبهاء تعلو — قواعده على كرم وترسى
يرف رفاهة وسنى وبشراً — كما زفت عروس يوم عرسى
ويمرح أهله فى ظل سرو — وشمل غير منشعب وأنس

ولا ريب أنها ظاهرة جديدة فى الأدب العربى المعاصر ، وقد ناقشها الدكتور

محمد مندور فى كتابه (الشعر المصرى بعد شوقى) الحلقة الثالثة يقول : "وديوان (أنات حائرة) يشهد بان صاحبه أكثر محافظة وحفاظاً على التقاليدمن ديوان(من وحى المرأة)لصدقى . ولاأدل على ذلك من أن تلاحظ أن(عزيز أباظة) عندما رأى أن يلتمس السكر به متنفساً فى السفر إلى بعض بقاع الأرض ساقه إحساسه إلى الأرض المقدسة : إلى مكة والمدينة ومناسك الحج حيث أنشد مجموعة القصائد التى يتكون منها الجزء الأخير من ديوانه ، وفيها تختلط المشاعر الدينية والذكريات المقدسة بلواعج الفقيدة وذكريات حياته معها . . . بينما يخصص صاحب ديوان (من وحى المرأة) الجزء الأخير من ديوانه للرحلة إلى إيطاليا التى ربما يكون قد ساقه إليها عمله عندئذ كمدير لدار الأوبرا المصرية ، ولكنه مع ذلك لا يخلو من دلالة على اتجاهه الروحى) .

لا ريب أن عزيز أباظة قد نشأ فى أحضان عصر شوقى وحافظ . وهو قد عرفهما وحاورهما ، وكان له بهما صداقة ومودة ولقاءات ممتدة . بل لقد جمع عشر كراسات من مختارات الشعر العربى من إملاء حافظ إبراهيم خلال سنوات متعاقبة خلال زياراته لقرية الربعماية ، أو لمنزل أعمامه فى حارة قوادير بحى الناصرية ...

يقول فى مندرة هذا البيت التقيت بأعلام لا يمكن أن ينساهم تاريخ الفن والأدب فى بلادنا . فقدكان من أصدقاء أعمامى الخلص :— محمد السباعى — وعبد العزيز البشرى—وحافظ ابراهيم— وإمام العبد — وصادق عنبر . وكنت أحضر مجالسهم واستمع إلى ما يدور فيها من مناقشات .

ومن حسن الحظ أن بعض أصدقاء الأسرة من الأدباء وغيرهم كانوا يحضرون لتمضية جزء من فصل الصيف فى قريتنا (الربعماية) وفى هذه الأجازات قرأت على عبد العزيز البشرى معظم كتب الجاحظ . وقرأت مع حافظ إبراهيم ديوان الحماسة لأبى تمام . وفى هذه الفترة عرفت صديق الحياة : البحترى :

يقول : تأثرت جداً بالبحترى . فهو شاعرى المفضل وأستاذى الأول . .

نجيب في شعر البحتري : المعنى واللفظ والموسيقى ، وأنا أعتبر الموسيقى عنصراً من أهم العناصر التي تجعل للشعر قيمة ومكانة ودوران . وهذا العنصر بارز جداً في شعر البحتري .

• • •

ويقول عزيز أباظة في ذكرياته المروية[1] عن اتصاله بشوقي « حين عاد شوقي من الأندلس كان يسكن إلى جوار قريبي (محمد أباظة) فرجوته أن يصحبني لزيارته وكنت في أوائل عهدي بمدرسة الحقوق . وقد زرت شوقي زيارات متعددة وكنت أعرض عليه كثيراً مما كنت أكتبه » .

ثم يصل عزيز أباظة إلى المسرحية الشعرية وكيف جمعت بينه وبين شوقي . يقول : كنت أحضر مسرحية (مجنون ليلى) مع شاعرنا الكبير شوقي . وكان معنا في المقصورة توفيق دياب ، والأستاذ الجديلي ، والأستاذ رامي ، وبين الفصلين الأول والثاني وجدتني أقول لشوقي أنه يحسن صنعاً إذا كتب مسرحية شعرية عن « قيس ولبنى » فسألني عن السبب . فقلت له إن عناصر (الدراما) متوفرة في هذه القصة وباستطاعته أن يعمل منها شيئاً قد يفوق ما عمله شوقي في (مجنون ليلى) ، واشترك في فكرتي : توفيق دياب ، والجديلي ، وشوقي صامت .

• • •

وقد شرح عزيز أباظة منهجه في المسرحية الشعرية فقال : « النهج الذي أنهجه دائماً في مسرحياتي التي أستمدها من التاريخ القديم مستهدفاً إلى جانب الأمل في جلاء البطولات والحضارات الإسلامية أحداثاً تجري في أيامنا وغايات تتصل بتناول بعض هذه الأحداث معالجاً الحاضر في أنماط من الغابر كلفا بإخراج الألفاظ الشريفة من جذورها مسقطا الكلمة مهما تكن أنيقة إذا أحسست أنها متداولة

---

(١) عشرة أدباء يتحدثون : فؤاد دواره .

تداولا ، يلقى عليها ظلال الابتذال معنيا بنصاعة الأسلوب وجمال الجرس عناية فائقـــة .

ولاشك أن الشعر هو أسمى مراتب الفن الكلامى ، والمسرحية تتيح الشعر أن يفسح لنفسه طريقاً بين مشكلات الناس ، وتتيح للناس أن يجدوا متنفساً يلجأون إليه إن أحاطت بهم الدنيا بقسوتها الضارية فيجدون ثمة بين أرواح الفن راحة لنفوس أضناها العيش وكلوم أدمتها الحياة .

وهو يقول : إن الدوافع التى دفعتنى إلى الكتابة للمسرح كثيرة : أهمها أننى أحب المسرح وأقدر رسالته . وقد حدث أننى وجدت المسرحية الشعرية موشكة على الفناء بعد حياة قصيرة جداً قطعتها فى كنف شاعرنا الخالد (شوقى) فى أواخر أيامه . ووجـــدت الميدان خالياً فاقتحمته وكان فى مرجوى أن أبذل بعض المحاولات .

* * *

وهكذا مضت حياة عويز أباظة إلى غايتها : خصبة عريضة حافلة منذ مولده فى قرية الربعماية (شرقية) عام ١٨٩٩ . ومنذ أن اتجه إلى كليـة الحقوق وأحس ذلك الهاتف : فى بيئـة عرفت كثيراً من الأدباء والصحفيين . ثم كان الشعر فى ملامحه الأولى ساذجاً بـسيطاً . وكان حافظ وشوقى فى مواجهة الشعر دوماً . وكانت لقاءاته بأولئك الأعلام الذين عرفهم فى مطالع حياته وسماعه للشعر القديم وقراءاته تحت إشرافهم لديوان الحماسة (حافظ إبراهيم) الأغانى (عبد العزيز البشرى) كتب النحو واللغة والتراث العربى (الشيخ محمد الخضرى) — كل ذلك كان مقدمة وإرهاصاً لما جاء بعد ذلك بسنوات وسنوات حينما هزت النفس الفاجعة : فاجعة وفاة الزوجة الحبيبة التى كانت للشاعر كل شىء فى حياته …

لقد عمل عزيز أباظة مديراً لمديريات القليوبية والفيوم والمنيا وأسيوط والبحيرة ، واختير عضواً بمجلس الشيوخ ، وعمل فى عشرات الأعمال الاقتصادية ولكن روح الشاعر ظلت محلقة منطلقة .

له من الإنتاج الأدبى : أفات حائرة — قيس ولبنى — العباسة — الناصر — شجرة الدر — غـروب الأندلس — شهريار — أوراق الخريف — قافلة النور — قيصر — وكانت آخر آثاره من أشراقات السيرة الذكية (ملحمة عن الرسول) .

ولقد كان العقاد صادقاً حقاً حين استقبل عزيز أباظة فى مجمع اللغة العربية فأشار إلى طابع حياته ممثلا فى هذه العبارة « إنه اهتم بالقدرة ولم يهتم بالتقدير ، فلم يعرف الراصدون هذا الكوكب إلا وهو فى برجه الأسنى قد جاوز جانبى الأفق وأصعد فى سمت السماء » ...

الفصل الثالث

أبو الطيب المتنبى بين « بلاشير وطه حسين والملاح »

على ذكر الكتاب الجديد « المتنبى يسترد أباه » .

هل هو لقيط ، ام سقاء ، ام ابن الامام المهدى .

منذ وقت ليس ببعيد صدر كتاب (المتنبى يسترد أباه) للأستاذ عبد الغنى الملاح من أدباء العراق . وقد كانت قضية أبى المتنبى الشغل الشاغل ، لكل الباحثين الذين كتبوا عنه وفتحت الباب واسعاً أمام شبهات الاستشراق . وكان مصدر التساؤل كله هو : لما ذكر المتنبى « أمه » فى شعره عندما قال :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

بينما خلا شعره من رثاء والده . . . وقد ذهب الباحثون فى ذلك مذاهب متعددة ، وحاول كثيرون الدفاع عن المتنبى بأن عدداً من الشعراء لم يرث والده .

ولست أدرى كيف كان المتنبى عدواً للاستشراق . وقد جرت المحاولات الكثيرة لانتقاصه والنيل منه حتى أن « برجستر بلاشير » المستشرق الفرنسى ألف كتاباً ضخماً حاول فى الانتقاص من المتنبى بكل ما أوتى من قوة ، واستتبع هذا الأمر أن يدخل الميدان أحد الكتاب المستغربين الذين يكتبون بالعربية وكان طه حسين هو ذلك الكاتب الذى ألف كتاباً ضخماً حاول أن يصل إلى أقسى ما يمكن أن يؤدى إليه التحامل والاتهام الباطل حين قرر فى كتابه أن المتنبى (لقيط) .

وهكذا استطاع الاستشراق على طريقته ضرب واحد من أبرز الشخصيات الممتازة التى يعتز بها الأدب العربى والفكر الإسلامى . ومن قبل كانت حملة زكى مبارك على (الغزالى) وحملة طه حسين على (ابن خلدون) .

حدث هذا بينما مجد الاستشراق شخصيات أخرى مهزوزة ومضللة ، وليست

موضــع تقدير البحث الأصيل أمثال : بشار وأبى نواس والحلاج والسهروردى وابن عربى .

* * *

ولنبدأ من بلاشير الذى حاول انتقاص المتنبى فى كتابه الذى صدر عام ١٩٣١ م منطلقاً من القول بأن العرب فى العصر الحديث قد اتخذوا من المتنبى مثلا لطموحهم وأحلامهم وأرادوا باتباعه أن يتخذوه مثلا عالياً فى النضال .

ولا ريب أن بلاشير والفكر الغربى يكن كراهية ضخمة للمتنبى ولقائده البطل سيف الدولة الذى قاوم الدولة البيزنطية سنوات طويلة ، ودمر محاولاتها المتعددة فى اختراق الحـدود الإسلامية . وكان شعر المتنبى واحداً من الأسلحة الضخمة فى هذه المعارك .

يقول بلاشير فى خبث ومكر شديدين : على أن شهرة المتنبى فى الأوساط الأدبية فى دمشق والقاهرة وتونس فى وقتنا هذا صادرة عن ينبوع آخر (أى غير ينبوع التقدير الذاتى لشعره) هى تلك المؤثرات القومية والعربية الشاملة التى تحمل المسلمين على أن ينقبوا فى « شرق » القرون الوسطى عن رجال يقاتلون بهم رجال الغرب فجعلوا من « مادح » أمراء سوريا ومصر وفارس ممثلا للعبقرية العربية، منتصباً تجاه العبقرية الأعجمية غير العربية ، وهكذا يظهر المتنبى بمظهر « فينى » أو « جوته » بل بمظهر « نيتشة » شرقى يبرهن بقدرته الباهرة عن المساوة الثقافية فى بلاد هى اليوم تحت وصاية أوربا الفكرية .

وقد رأى الزيات أنه مجدد أطلق الشعر من القيود التى قيده بها أبو تمام وشيعته وخرج به عن أساليب العرب المخصوصة،فهو زعيم الطريقة الإبداعية فى الشعر العربى، فإذا بمداح أمراء القرن العاشر لا يظهر كمفكر ، بل كثائر من نوع « هوجو » يأتى باسم الإلهام الحر فيقلب العقائد المبالغ فى توقيرها فى المذهب المدرسى .

وأشار بلاشير إلى تأثر حافظ وشوقى بما أسماه بالفن المتنبىء . ثم يقول :

لاشك أن من نصيب الرجال العظام ولاسيما فى الأدب أن يكونوا مدينين بشهرتهم

فى غالب الأحيان إلى تزييف مريديهم والمعجبين بهم على أنه لا نجد تشويهات للحقيقة بالغة ما بلغت فى التنظيم حداً بلغته فى كل ما يختص بالمتنبى .

وهكذا يكشف بلاشير عن أسلوب الحقد البالغ الخالى من المنهج العلمى أو البحث الأصيل. أو النظرة الموضوعية. فهو متأثر بالنظرة الاستعمارية فى النظر إلى العرب، يرى أنهم أرادوا بإحياء المتنبى خلق جو من الحماسة التى تواجه موقفهم كمستعمرين .

ولا ريب أن تلك نظرة بعيدة كل البعد عن الإنصاف وعن التقدير الصحيح لموقف الأدب العربى من إحياء شاعر يمثل الكرامة والبطولة والاستعلاء على الذل والخسف والهوان . وتلك طبائع الأمة العربية التى لم تفارقها لحظة واحدة حتى فى أشد ظروف احتلالها واستعمارها .

أما موقف المتنبى من فنى وجوته وهوجو فإنه لا يقل عن هؤلاء مكانة فى الأدب العربى بالنسبة لمكانتهم فى آدابهم إن لم يزد .

ومن هذا المنطلق الاستشراقى البعيد عن المنهج العلمى ، الغارق فى الأحقاد والتعصب انطلق طه حسين . . .

وكان الأستاذ محمود محمد شاكر قد أصدر كتاباً عن المتنبى الحق بالمقتطف يناير ١٩٣٦ ثم صدر على التو فى العام التالى كتاب طه حسين « مع المتنبى » عام ١٩٣٧ .
يقول الأستاذ شاكر : فى العام الماضى أخبرت أن الدكتور طه يذهب إلى أن المتنبى (لقيط لغية) فاستعذت بالله واستكبرت أن يقول الرجل هذا القول ، حتى كان يوم اجتمعنا فى دار الجمعية الجغرافية لأسبوع المتنبى فكان من حديثه لى أن قال : أنت تذهب إلى أن المتنبى علوى النسب . وأنا قد قرأت هذا الفصل وأوافقك على أنه علوى . . ثم ماذا يا فلان — لو قلنا إن المتنبى (لقيط) ! وقد والله خيل إلى أن الشيطان فاغرفاه بينى وبين هذا الرجل فرجفت رجفة وعذت بالله ثم قلت له : إن هذا رأى منقوض من وجوه ، وهو على كل حال نتيجة للشك فى نسب المتنبى مع التوقف عند أهل الشك قبل القول بأنه علوى أو جعفى أو هذا أو ذاك . وأردت

أن أنبه إلى أن رأيه مسلوخ من كتابى . وذلك أنه أخذ الشك فى النسب منى ، وعجز عن أن يقول شيئاً فى نسب جديد (يلصقه به) وهـذا الرأى وحده هو سر اهتمام الدكتور بالكتابة عن المتنبى . فـلو لم يكن وقع عليه ما كتب عنه ، فهو يقول :

وليس المتنبى مع هذا من أحب الشعراء وآثرهم عندى ، ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحب أو الإيثار ، ولقد أتى على حين من الدهر لم يكن يخطر لى أننى سأعنى بالمتنبى أو أطيل صحبته أو أديم التفكير فيه ، فـلولا أنى شككت فى نسب أبى الطيب . ولولا أنه أخذ هذا الشك . وانتهى إلى أنه (لقيط) لما كتب عنه حرفاً واحـداً لأنه لا يحب الرجل ولا فنه ، وتسألنى لماذا كما يقول الدكتور فجواب ذلك أن الأستاذ المازنى قـد شرح فى كتابه « قبض الريح » سر هذا بأحسن بيان وأدق فكر : يقول المازنى (ولقد لفتنى من الدكتور طه فى كتابه (حديث الأربعاء) وهـو مما وضع و (قصص تمثيلية) وهى ملخصة : أن له ولعاً يتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة ، ثم ساق الأدلة من الكتابين على ذلك إلى أن قال : « وللقارىء » أن يسأل لماذا يؤثر الدكتور (نحوا) آخر من أنحاء الأدب الغربى ، ويتهم بحكايات الجهاد (كما يقول هو) بين العواطف والشعور من جهة وبين العقل من وجهة أخرى . ، لماذا عنى على وجه الخصوص بقص الزناة والزوانى .

ثم شرع المازنى يقارن بالقسط والحق بين الدكتور طه وبشار الأعمى ، وأبى العلاء وقـد استوفى الكلام على الغريزة الجنسية عند بشار وأبى العلاء وأثرهما فى شعرهما وآرائهما وبظراتهما إلى الحياة ، وحياة المرأة خاصة حتى انتهى إلى هـذه الكلمة : « فلا عجب إذا رأينا الدكتور كلف بتناول المجان وأهـل الخلاعة من شعراء العرب وتلخيص القصص التى تدور على الخيانات وما إليها ، وتسويغ ذلك ، والاعتذار له حتى لكأنما يحاول أن يقول بلسانه غير ما تلح به الرغبة فى الكشف عنه ، والإفضاء به من مكنونات نفسه » .

ويشير الأستاذ محمـود محمـد شاكر : وتلك فصول مطولة نشرها فى جريدة البلاغ بعد صـدور كتاب « مع المتنبى » لطه حسين (فبراير ١٩٣٧) إلى قول طه

حسين أن مولد المتنبي كان شاذاً ، وأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها يقول : ولذلك زعم الدكتور أنه يشك في نسب المتنبي وأنه يتوقف عن القطع برأي في صحة ما يرويه الرواة عن نسبه ، أن الدكتور طه رجل عبقري ، فهو من قبل شك في نسب أبي الطيب فقد استطاع أن يشك في الشعر الجاهلي وفي أشياء كثيرة ، ولكن هل يستطيع الدكتور أو كتابه أن يجيبني لماذا شك في نسب أبي الطيب وما الأسباب التي دفعته إلى هذا الشك ، أما الدكتور طه فأكبر الظن أنه يترفع — على عادته — عن الإجابة ، فهو عبقري والعبقري لا يقال له لماذا ، فإذا قيل له (لماذا) زوى وجهه وانصرف وترك سائله لصخرة الأعشى التي ذكرها في لاميته المشهورة . أما كتابه فهو أطوع لسائله وأسرع إلى جوابه .

الدكتور يزعم أنك إذا قرأت ديوان أبي الطيب مستأنياً متمهلا لا تجد فيه ذكراً لأبيه وأنك تجده لم يمدحه ولم يفخر به ولم يرثه ولم يظهر الحزن عليه حين مات ، وهذا كاف في تشكيك العلماء في نسب أبي الطيب ، وهو كاف في لليقين بأن المتنبي لم يعرف أباه .

ومن حق المتنبي علينا أن ننظر في هذه الأسباب ، أهي مما يحمل على الشك في نسب رجل لم يشك في نسبه الذي رواه المؤرخون من يوم رووا ذلك النسب إلى اليوم .

ألا فليحدثنا الدكتور طه : أيكون لزاماً على كل شاعر أن يمدح أباه ، وأن يفخر به ، وأن يرثيه ، فإن لم يفعل الشاعر ذلك فهو شاعر (لا يعرف أباه . أني أجد من الشعراء من فخر بأبيه وأجد منهم كثيراً لا يعد كثرة من لم يفخر بأبيه ولا ذكره في شعره ، أفكل هؤلاء لم يعرف أباه ولا يثبت نسبه لضعفه وخسته .

رأي الدكتور طه أن إغفال الشاعر ذكر أبيه لا يدل على شيء البتة ، وأن الشعراء الذين لم يفخروا بآبائهم . ليسوا أقل نسباً ولا أحط مغرساً من الذين فاخروا ونافروا بآبائهم : وأن التاريخ يحدثنا أن أبا جرير الشاعر لم يكن شيئاً ، وأن جريراً أضاف إليه من الخلال والخصال والأخلاق ما لم يكن منه بسبب حتى خلب به الشعراء وقهر به الفحول .

ولقد عرف الدكتور أن المتنبي وهو الشاعر الذي رمى شعراء عصره فأحماهم فغلبهم فذهب بأرزاقهم عند الأمراء كان يستطيع أن يفعل ما فعل جرير ، وأن يفخر بأبيه للسقاء ، على أبي فراس الحمداني وغيره من إشراف الشعراء في عصره. وعرف أن كثيراً من الشعراء غير جرير قد فخروا بآبائهم عن كل من كان أكرم منهم أبا وأما . فاذا يفعل الدكتور بعد ذلك . أنها مشكلة تلد مشاكل ، أذن فما الذي يضيره أن يقول : أما المتنبي فلم يستطع شعره أن يغلب غروره) .

ولم يستطع أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه ولم يستطع أن يخلق أباه خلقاً ، ومن يدرى لعل مصدر ذلك أن جريراً كان يعرف أباه فصوره كما أراد لا كما كان ، وأن المتنبي لم يعرف أباه فلم يستطع أن يصوره كما أراد ولا كما كان . ا . هـ .

إني أشفق على الدكتور طه من بدوات عبقريته فهي تصور الأشياء كما تريدها هي لا كما يجب أن تكون فيتورط فيحتال فتكون حيلته كالكذبة البلقاء لا تجد ما يسترها . الخ . الخ .

هكذا مضى محمود شاكر في تزييف رأى طه حسين ، ولمن أراد الاستزادة أن يقرأ المعركة كلها في كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية) .

* * *

على أن الجديد بعد ذلك كله هو كتاب الملاح : المتنبي يسترد أباه) الذي صدر ، والدكتور طه على فراش المرض منهوكاً قد حطمه ظلمه وشكه . وكأنه جاء في هذه اللحظات الحاسمة من حياته ليصدع بالحقيقة ، التي تقول إن المتنبي ليس لقيطاً ، ولكنه ابن صاحب الزمان (الإمام محمد بن الإمام الحسن العسكري) .

ولعل صديقنا الأستاذ عبد الغني الملاح قد شغله ما أورده طه حسين في كتابه هذا فهو قد أثبت أنه معنى بهذا الأمر منذ وقت بعيد : يقول :

منذ زمن بعيد وأنا أفكر في الدوافع الموضوعية التي جعلت مثل هذا الشاعر الذي شغل الدنيا لم يذكر إسماً لأبيه ، أو شيئاً عنه . وقد خطر ببالي سببان لهذا القصد ، أما أن يكون المتنبي من التفاهة المخجلة التي تبرر للولد أن يتحاشى ذكره أو

ينوه باسمه إتقاءاً للاعتبارات الاجتماعية المتعارف عليها فى ذلك الزمان . وإما أن يكون ذلك (الأب) صاحب قضية عظيمةسياسية أو دينية أو مذهبية يصبح التصريح باسمه خطراً عليه وعلى القضية نفسها .

وقد استبعدت السبب الأول لعدم تطابق مثل هذه الحال مع أقوال المتنبى وسيرته مع الملوك والأمراء والوزراء والشعراء الذين مر بهم أو مروا به . وقد رحت أبحث عن التيارات المذهبية والسياسية فى القرن الرابع الهجرى وعن « المتخفين » اتقاء السلطان من أصحاب القضايا . . ومن خلال هـذا البحث وجدت أن : « إبراهيم العريض » قـد توصل إلى احتمال كون (صاحب الزمان المهدى المنتظر) كان أبا للمتنبى ، ولما كان العريض ينقصه الدليل لإثبات ذلك رحت أحصر بحثى فى الفترة التى عاشها صاحب الزمان فى (غيبته الصغرى) .

ويقول الدكتور صلاح خالص : أن نسب المتنبى ، وعلى الأخص والدالمتنبى بقى محوطاً بالغموض والإبهام ، يمر عليه الباحثون مرالكرام ، تقول (وإن كان الدكتور طه لم يمر عليه هكذا) مكتفين بذكر الروايات المختلفة والمتضاربة حول هذا الموضوع والتى لا تنسجم مطلقاً مع ما جاء فى شعر المتنبى نفسه عن نسبه ، غير مكلفين أنفسهم عناء ذلك التناقض وحل اللغز المحير الذى خلقته أحاديث الرواة والمؤرخين المبهمة عن الأب المغمور الذى كان يسقى المـاء فى الكوفة والذى أطلق عليه (أبا الحسين بن الحسن ابن عبد الصمد الجعفى) وطـورا (عبدان السقا) وحينا غير هذا ، وذاك . وبين إشارة المتنبى فى آبائه وجدوده الواضحة رغم ما فيها من حذر حين يقول :

وبهم فخر كل من نطق الضا   د وعون الجانى وغوث الطريد

أو قوله :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا   بأننى خير من تسعى به قدم

ولقد أقيم للمتنبى مجد أدبى شامخ ، ومع ذلك فقد أسدل ستار كثيف على نسب المتنبى وعلى والده : وكان إرادة خاصة قد تعمدت ذلك وسعت إليه ، بل وحرصت

كل الحرص على أن تبقيه مسدلا لا ينفذ منه ضوء . ولقد أسهم المتنبى إلى حد كبير فى هذا التآمر على نسبة رغم أنه كان يضيق أحياناً فتفلت منه الكلمة أو البيت .

لتثقب هذا الستار . ومن هذه الثقوب تطلع الباحث ليكشف بعض ماوراءه .

وكان لذلك كله ما يبرره . فقد كان نسب المتنبى مرتبطاً بقضية كبرى تهون فى سبيلها التضحيات .

ومع كل التحفظ فان هذا الرأى فقد لطم طه حسين واحدة من اللطمات المتعددة التى واجهها فكرة ونظرياته واحدة قد بعد أخرى وهو حى .

أحمد محرم
والالياذة الاسلامية
٥٠٠٠ بيت فى ٤٦ قصيدة

ظل مستخفيا بغار حراء — يعبد الله عائذاً مستجيراً
يسمر القوم فى الضلال ويمسى — للذى أطلع النجوم سميرا
راكعاً ساجداً يسبح مولاه — ويزجى التهليل والتكبيرا
تهتف الكائنات يأخذها الصوت — تحيى مكانه المهجورا
نال منها محله لم ينلها — صوت داود حين يتلو الزبورا
نبرات قدسية تتوالى — نغماً رائعاً وتمضى زفيرا
رب طال الخفاء والدين جهر — رب فاجعل مدى الخفاء قصيرا

إذا كان أحمد محرم قد توج حياته الأدبية بنظم (الإلياذة الإسلامية) فقد كانت حياة هذا الشاعر كلها خالصة للمثل الأعلى الذى جاء به الدين الحق، خلقاً ونبلا وسماحة واستعلاء على المطامع والصغائر والأهواء، وكأنما كان يمسك القلم فى يده فيقدر مسئولية القلم وحساب الله وجزاءه فيصرفه ذلك كله عن أن يخضعه لمن أخضع له الشعراء أقلامهم جريا وراء المطامع وتبعية الملوك والأمراء وأصحاب السلطان.

وهكذا عاش (أحمد محرم) فى ظل الحياة الفكرية المصرية منذ بدأ يكتب وينظم منذ ما قبل أوائل عام ١٩٠٠ إلى آخر عمره ١٩٤٩ م قادراً على أن يشق الطريق إلى الجاه والمال كما فعل زملاؤه وأبناء جيله، ولكن حفاظه على الكرامة وإيمانه بالوطنية وصدق عاطفته ونقاء سريرته، كل ذلك حمله على العيش فى

ظل الفقر والعفاف مترفعاً عن زخرف الدنيا متعاليا عن الوصولية مع السمو عن الدنايا .

وقد عرف بشعره الوطنى الصادق الذى اندفع إليه بإيمانه الخالص، وليس بطلب طالب ولا بغرض أو هوى وقد أخلص نفسه للحق فلم تكن له أطماع .

ولد عام ١٨٧١ — لم يذهب إلى الأزهر، وإنما تعلم فى بيته ونال شهادة الامتياز بين الشعراء عام ١٩١٠ — اتصل بمصطفى كامل وألهم حماسته ووطنيته، ودعى لتولى وظيفة التحرير فى الصحف فأبى أن يضع قلمه تحت مشيئة أى نفوذ أو حزب أو هيئة أو عظيم مهما كان مذهبه السياسى ومستواه الأدبى . وقد شهد عدد من الشعراء والنقاد بأن شعره يتميز عن شعر حافظ ابراهيم بالرنين العذب .

ويتميز وعن شعر غيره بالاتجاه الوطنى النقى الخالص ، والبعد عن الملق والعزوف عن أهواء المجتمع ، وقد حال إصراره على هذا الموقف بينه وبين اقتعاد المركز المرموق ، حيث كانت مراكز الشهرة مرتبطة بالولاء الحزبى ، والسير فى ركب الزعماء والأمراء .

كذلك فقد تأثر بمذهبه الشعرى : أحمد رامى — وعلى محمد طه — وعزيز أباظة .

أصدر ديوانه الأول عام ١٩٠٨ وأهداه إلى النيل بعبارة حاسمة . . قال : « انصرفت بشعرى عن تلك المواقف — مواقف النفاق — وبرئت إلى نفسى أن آخذ بهذه الأسباب على ما أعلم من وعورة مسلكى وضيق مضطربى ، وما كنت فى ذلك إلا جاريا على سنتى فى سياسة نفسى ، وتصريف ما أتى وأدع من أمور الحياة فما استظهرت بغير أخ حفى أو صديق صفى ، ولا آثرت أن أهدى ديوانى إلى غير النيل » .

وهو يصور موقفه من جيله وأهل عصره فيقول :

ظمئت وفى نفسى الأدب المصفى   وضعت وفى يدى الكنز الثمين
ظلمت أبى ونفسى أن مثلى   لغال من النوابغ لا يهون

كريم تدفع الأخلاق عنه ... ويمنع ركنه الأدب الحصين
لربى ما عملت وعند قومى ... ديونى حين تلتمس الديون
أشد على الفنون يدى وأنى ... لفى زمن وجهالته فنون
وجودى ما عرفتك غير معنى ... تغلغل فى الخفاء فما يبين
غريق فى الظلام ولا مناص ... ولا جسر يلاذ به أمين
أقيم عليه سور من عباب ... تضل على جوانبه السفين
أطل ويضرب التيار وجهى ... فأين أنا : أحر أم سجين !!

ولقد كتب عن نفسه يقول : أنه دعى لتولى وظيفة التحرير فى كثير عن الصحف المصرية فأبى أن يضع قلمه تحت مشيئة أى صحفى مهما كان مذهبه السياسى ومستواه الأدبى .

وأنه عاش حراً طليقاً لا سلطان لأحد على قلمه ، ويبيش من مؤلفاته ، ولم يملك إلا بيته المتواضع فى دمنهور ، وقد عمل فى آخر حياته مشرفاً على مكتبة بلدية دمنهور .

وقد رد الحق إلى أهله واعترف لأهل الفضل بالفضل ، فقد شهدت دمنهور عام ١٩٦٢ أى بعد وفاة أحمد محرم ببضعة عشر عاماً مهرجاناً حافلا حيث احتشد أعلام الأدب فى ذلك المكان الذى عاش فيه الرجل الكريم ليقولوا كلمة صادقة عن مجاهد عزف عن المطامع والأهواء . وقد كشف عبد المعطى المسيرى فى حديث ضاف له عن إباء الرجل الذى جرت المحاولات لاحتوائه من الخديو عباس حلمى والسلطان حسين والملك فؤاد ، وقيل له إن نظم بضع أبيات فى مدح الملك فؤاد يمكن أن تكون جواز مرور لعمل يوكل إليه فى المجمع اللغوى فرفض قائلا : لا و بالثلث ! . . وعرض عليه الملك عبدالله ملك شرق الأردن زيارة الأردن ضيفا فى نظير عطاء كبير فرفض . وأشار إلى أن محاولات جرت عن طريق الدكتور محمد حسين هيكل لطبع الإلياذة وتكريم الشاعر ، لولا أن محرم كشف عن شعره فى طغيان الملوك وأصحاب النفوذ .

وكان أحمد محرم قد دعا فى أوائل القرن إلى ترقية الشعر والسمو به عن عوامل

الرداءة والسقوط : فقال : لا مرية فى أن أكثر الشعر العصرى قد بلغ من الرداءة والانحطاط مبلغاً يوجب الأسف والبرح ، ويقضى بالحزن الشديد ، وكأين من قصيدة أعجب بها قائلها وطرب لها راويها ومنشدها ، لو أنك أنشدتها عند جدث أحد الشعراء العرب الأول لسمعت لغطاً من الرميمة صلصلة ولرأيت بطرة زلزلة ، وأقسم لو وقفت على دمس الحطيئة تنشده بعض ما نرى من الشعر العصرى لاشمأز و نفر. ولعمرى أنه لمن أكبر المعائب أن يبقى الشعر العصرى هكذا رديئا ساقطاً عن إمكان وجودته وسهولة ترقيته ، ولا يحتاج ذلك إلى غير البحث والنقد والتقريع والتشجيع. فإن من الحق كل الحق أن يؤخذ على المخطىء خطؤه ، فلا نلاقى تعسفه فى مسلك الشكر بالمدح والثناء والتقريظ والإعجاب لأنه قال شعراً .

(مجلة أنيس الجليس — ٣٢ من يناير سنة ١٩٠٠)

حياته مقدمة للالياذة

وقد كانت حياة أحمد محرم كلها مقدمة للالياذة الإسلامية . بل هى مدخل واسع إليها فقد كان حفيا طوال حياته بالمشاعر الإسلامية ، والمناسبات الدينية ، التى تتعلق بالهجرة ومولد الرسول ، وكان مهتما بالدعوة إلى الرابطة الإسلامية والوحدة الجامعة ، وديوانه حافل بقصائد متعددة ينافس اللون الوطنى ويتغلب عليه ، وكان من مؤهلاته لهذا العمل الكبير أيضا قوة الديباجة وإشراق العبارة ، وجزالة اللفظ وتدفق النظم ، فى حرارة عاطفة وصدق إيمان . لذلك فانه ماكاد يستمع إلى هذا الاقتراح من السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح حتى وجد نفسه ملبيه ، واستجاب له فى قوة كأنما كان متطلعاً إلى عمل أدبى كبير يفرغ فيه طاقته العريضة ومشاعره الثرة . ومن هنا فقد نظم خمسة آلاف بيت من الشعر الرائع صور فيها مراحل التاريخ الإسلامى ومواقفه المختلفة .

قال السيد محب الدين الخطيب فى خطابه إلى أحمد محرم : « كنت هممت غير مرة أن أكتب إليكم أقترح عليكم مشروعا كنا نحاول إقناع « شوقى » بك رحمه الله به ، ولكن خشيت أن يصرفكم ذلك عن معانى الجهاد الأخرى . وهذا المشروع هو إرسال نظركم الكريم بين حين وآخر إلى مفاخر التاريخ الإسلامى الخلقية

والعمرانية والسياسية والإصلاحية والحربية ، ونظم كل مفخرة منها فى قطعة خالدة تنقش فى أفئدة الشباب فإذا ذخر أدبنا بكثير من هـذه القطع على اختلاف أوزانها وقوافيها أمكن بعد ذلك ترتيبها بحسب تاريخ الوقائع وتأليف إلياذة إسلامية من مجموعها . أليس من العار أن يكون للفرس ديوان مفاخر (الشاهنامة) وأن يكون يكون لليونان ديوان مفاخر كالإلياذة) والإسلام الذى لم تفتح الإنسانية عينها على أعلى منه مرتبة وأعظم منه محامد بجتهد مؤرخوه فى تشويه صفحاته والحط من قدر رجاله . لأن الذين دونوا تاريخ الإسلام كانوا أحد رجلين : رجل جاء بعد سقوط دولة فتقرب إلى رجال الدولة الجديدة بتسويء محاسن القديمة ، ورجل اتخذ من الشخوص الأربعة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى مثلا أعلى . فكل قمر من أقمار العرب مذموم عنـده موصوف بالضالة والنقص ، لأنه لا يراه إلا على نور تلك الشموس التى هى فوق الإنسانية ، ولا تقاس مواهب البشر بمواهبهم .

إنى أخاف أن يقوض المسلمون صرح فضائلهم ، وأن يهدموا قلاعا هى دواعى الفخر ، بينما أبناؤنا يتعلمون من الأوربيين وصنائعهم تمجيد رجال لو كشف الغطاء عن تاريخهم الحقيقى لشممنا نتنه ، من من شبابنا يعرف مسلمة بن عبد الملك كأنه معاصر له ، ويعرف قتيبة بن مسلم كأنه مجاهد فى جيشه .

إن الذى قصر فيه المؤرخون لايستطيع أن يدركه إلا الشعراء ، وأكثر شعرائنا مشغولة بجسد المرأة ومصروفة عقولهم عن الخير ، وهم يسرقون من دواوين شعراء الانجليز فليس عنـدهم وقت لمـراجعة دواوين العرب والإسلام ، وقراءة ما بين سطوره .

أكثرت عليكم ، وقد يكون أن اختصك الله بهذا الفضل ، فألهمنى أن أشغل هذه الصفحات وهذه الدقائق بالإضافة إليك ..

هذا موجز ماجاء فى ذلك الخطاب الذى وجه أحمد محرم لهذا العمل الضخم الذى أتمه الرجل فى أربع مجلدات تناولت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وأشهر غزواته ، وعرضت لجوانب من بطولات أصحابه وتضحياتهم والوفود التى جاءت إليه وغير ذلك . وقد بقى الديوان مخطوطاً حتى نشره الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى عام ١٩٦١ بعد

ان تقدم برسالته عنه إلى معهد الدراسات العربية التابع للجامعة العربية . وقد أطلق عليه أحمد محرم « ديوان مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية . وقد أمضى أحمد محرم حوالى خمسة عشر عاما من حياته عاكفاً على هذا العمل .

روعـــة الاستهلال

وقد استهل أحمد محرم إلياذته بهذه الأبيات :

إملأ الأرض يا محمد نوراً   واغمر الناس حكمة والدهورا
حجبتك الغيوب سرا تجلى   يكشف الحجب كلها والستورا
عب سيل الفساد فى كل واد   فتدفق عليه حتى يغورا .
جئت ترمى عبــابه بعباب   راح يطوى سيوله والبحورا
ينقذ العــالم الغريق ويحمى   أمم الأرض أن تذوق الثبورا
زاخراً يشمل البسيطه مــدا   ويعم السبــع الطباق هديرا
أنكر الناس ربهم وتولوا   يحسبون الحياة أفــكا وزورا

نشرها فى الفتح عام ١٩٣٥ ميلادية (ربيع الثانى ١٣٥٤) هجرية .

وكتب السيد محب الدين الخطيب يقول : إن أحمد محرم لبى دعوة الإسلام إلى تدوين أمجاده بمــا وهبــه الله من بلاغة تذوقها بأساليب القرآن وجلاها بمعجز البيان .

الالياذة الاسلامية والالياذة اليونانية

لا ريب أن فكرة الإلياذة قد ظهرت فى العصر الحديث تحت تأثير ما طرحته الآداب العالمية الغربية من حديث عن الملاحم ، وخاصة الإلياذة اليونانية التى ترجمها سليمان البستانى إلى اللغة العربية والتى ظهرت عام ١٩٠٣ وطبعت ١٩٠٤ فى مطبعة الهلال تحت عنوان : (إلياذة هوميروس : معربة نظما وعليها شرح تاريخى أدبى) .

والمعروف أن المسلمين أبان عصر الترجمة فى القرن الثالث الهجرى قد عزفوا عن

ترجمة الشعر اليونانى وعن ترجمة الإلياذة وغيرها — كما عزفوا عن ترجمة القوانين الرومانية ، وذلك إيمانا منهم بأن الشعر فن يتصل بنفسية الأمة ومشاعرها ، وهو نابع من خصائصها . ومن هنا فلا حاجة للعرب إلى ترجمة شعر غيرها ، لأنه لا يمثل ذاتيتهم ولا ملاحمهم ، فضلا عما يكشف من جوانب تختلف اختلافا واضحا عن الآداب الإسلامية والأخلاق التى بثها الدين فى العرب والشرقيين على وجه العموم .

ومن الحق أن يقال أن العمل الذى قام به أحمد محرم جديراً بالتنويه والاهتمام ولكن مع الأسف لم يعرف أهل جيله قدره ، فظل مطويا حتى بعث بعد موته ببضع عشرة سنة ، واكتشف مدى مافى هذا العمل من أصالة وقوة .

وقد تناول أحمد محرم (حياة الرسول ومغازيه) فى ١٤٦ قصيدة جمعها فى ديوانه (٤ أجزاء) ولو طال به العمر لأوغل فى سيرة الخلفاء الراشدين وفتوح الإسلام . وقد قسم هذه القصائد إلى مجموعات على النحو التالى :

أولا : أبطال وشخصيات : وتناول فيها الرسول صلى الله عليه وسلم فى القصيدة الثانية والعشرين من الجزء الأول والتى استهلها بقوله :

هــذا إمام الدين فى أعلامه　　　والدين معتصم بيأس إمامه

كما تناول كثيراً من الأبطال من بينهم حمزة — سراقة بن مالك — مصعب بن عمير — أبو ذر — ضمام بن ثعلبة — عدى بن حاتم — عبادة بن بشر — نعيم بن مسعود — سعد بن معاذ — سعد بن عبادة — أبو بصير وأصحابه — كل منهم بقصيدة كاملة .

ثانيا : الوفود : وقد تناول الوفود التى جاءت مسلمة مبايعة الرسول وفداً وفداً كل وفد بقصيدة كاملة .

ثالثا : زوجات النبى : وقد تناول كلا منهن رضوان الله عليهن بقصائد مستقلة — عائشة — صفية — ميمونة . . الخ . كما تناول السيدة أم كلثوم ابنة النبى رضى الله عنها .

رابعا : تناول الغزاوت : كل غزوة بقصيدة كاملة ، وأفرد قصيدة مطولة لفتح مكة وسماه : الفتح الأعظم .

خامسا : تناول السرايا بقصائد متعددة .

سادسا : تناول مواقف متعددة هامة كلا منها بقصيدة خاصة : كتب النبى إلى الملوك — رجوع المهاجرين من الحبشة — الشاه المسمومة — إسلام خالد ابن الوليد — وعثمان بن طلحة — وعمرو بن العاص .

ما حديث (لأم معبد) تستقيه ظمأى النفوس عذبا نميرا
سائل الشاه كيف درت وكانت كزة الضرع لا ترجى الدرورا
بركات السمح المؤمل يقرى أمم الأرض زائرا أو مزورا
مظهر الحق للنبوة سبحانك ربا فرد الجلال قديرا
يا حياة النفوس جئت قباء حيثة الروح تبعث المقبورا
ارفع المسجد المبارك واصنع للبرايا صنيعك المبرورا

الفصل الخامس

محمد إقبال

إذا ذكر تاريخ التجديد فى الإسلام فشمل فى القديم : ابن تيمية والغزالى وابن حزم وابن خلدون ، فإنه فى العصر الحديث يضم : جمال الدين ومحمد عبده والكواكبى وإقبال وفريد وجدى . وقد أخذ (إقبال) مكانه فى هذه الطبقة الأولى من المجددين لأنه وصل الإسلام بالحياة ، وكشف عن جوانب الإيجابية والتقدمية الواضحة فى تعاليم الإسلام ، وأنه أحس فى ضوء الحضارة البشرية الضخمة أنه لابد من تجديد لمفاهيم الإسلام، تجديدا مستمدا من أصوله وقيمه ومفاهيمه الأساسية التى أصابها ركام من الجمود والتقليد والهوى خلال فترة الضعف التى مرت بالعالم الاسلامى ، ولقد كان إقبال منذ تطلع إلى دعوة اليقظة ينظر إلى الأمة العربية على أنها مصدر النور . وأمل المستقبل ، وأن فى نهوضها يقظة للعالم الاسلامى كله ، وتنبأ بأنها كما كانت فى الماضى ينبوع التوحيد فستكون فى المستقبل مصدر الوحدة والحرية .

أمة الصحراء يا شعب الخلود	من سواكم حل أغلال الورى
أى داع قبلكم فى ذا الوجود	صاح لا كسرى هنا أو قيصرا
من سواكم فى حديث أو قديم	أطلع القرآن صبحا للرشاد
هاتفا مع مسمع الكون العظيم	ليس غير الله ربا للعباد

ومنذ البواكير الأولى لحياة (إقبال) كان طابع فكره وحياته جميعا يرسم الصورة التى عاشها من بعد ، فقد وجهه أبوه فى مطالع حياته فقال له : «اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك » يقول « ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت » . « من الخطأ الظن أن الثقافة الاسلامية نشأت تحت تأثير الثقافة اليونانية ، فواقع الأمر أن أخذ العرب والمسلمين بالفلسفة

اليونانية ، قد أخر ظهور العلم العربي وانطلاق الثقافة الاسلامية خلال قرنين كاملين، وحين ولدت الثقافة الاسلامية بعد أن تحررت من الروح اليونانية ، كان معنى ذلك ولادة الروح الاستقرائية وبالتالى (الطريقة التجريبية) التى ترجع إليها نشأة العلوم الوضعية والرياضية والفزيائية وغيرها ، وانتقلت من العرب إلى الغرب ، وإرساء قواعد الطريقة التجريبية الاستقرائية، هذه فى العلوم التى أخذتها مدرسة أكسفورد وروجر بيكون من بعد كانت أكبر مساهمة للعرب فى نهضة الغرب ، بل وأكبر من أية نظرية علمية أبدعها الغرب . وقد تميزت روح الثقافة الاسلامية بأمرين : الايمان بوحدة الجنس البشرى الذى كان دعوة وعقيدة أكثر مما كان فى غيره من الأديان ، وانتشار الحس التاريخى وخاصة بعد ابن خلدون » .

ومن هذا الايمان بأن الفكر الاسلامى هو صاحب القاعدة العلمية التى قامت عليها الحضارة بناء على هذا فان المدنية المعاصرة استمرار لروح الاسلام ، وأن مولد الاسلام كان مولد العقل الذى يبحث بطريق الاستقراء ، وقد كان العقل القديم عقلا استنتاجياً وأن الاسلام هو مصدر الفكر المعاصر ، والعالم المعاصر ، غير أن إقبال يعقب على ذلك بأن هذه الحضارة قد انحرفت عن مقوماتها الأصيلة ، وأن محنة الغرب هى فى حقل الأخلاق والسياسة العملية وأن أوربا فشلت فى علم الاجتماع، وأنها لم تعط هذه الحضارة إنسانيتها ، بل أقامتها على أساس الاستعمار والتفرقة العنصرية ، واستذلال الشعوب التى سقطت فى قبضتها ، وأن الفكر الغربى وضع حلولا لمختلف القضايا جردتها من الروح ، وقصرتها على المادة ، وبذلك انفصلت عن مقومات الروح الاسلامية ، التى تجمع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، والتى تسوى بين البشر فلا تفاضل بينهم .

ومن عجب أن هذا الرأى الذى يدين به (إقبال) لم يسبقه إليه أحد ، ولا يشاركه فيه إلا العلامة « فريد وجدى » ولا أظن أن أحداً منهما قرأ للآخر ، وإنما استمدا هذ الرأى من عمق النظر لا غير .

وعنده أن تربية الذات لها مراحل ثلاث : الطاعة ، وضبط النفس ، والنيابة الالهية ، ودعا إلى التأليف بين الفرد القوى والذات الكاملة ، وبين الجماعة التى يعيش فيها ، فالأمة تنشأ من اختلاط الأفراد وكمال تربيتها ، وقال : إن الأمة

الاسلامية قامت على ركنين : التوحيدوالرسالة . والتوحيد من شأنه أن يزيل اليأس والخوف والحزن ، ومقصد الرسالةالمحمدية : الحرية والمساوة والأخاء بين بنى آدم، « فهى أمة لا يحدها زمان ودوامها موعود ، وقانونها القرآن » .

* * *

ومجد (إقبال) الأمومه التى عليها بقاء النوع ، وحيا المرأة فى شعر رائع :

« خلقتك الطاهرة لنا رحمة ، وأنت قسوة للدين وحصن للملة ، يا من تفطمين فينا الوليد ، على كلمةالتوحيد ، أن حبك لينجب أطوارنا، ويصور أعمالناوأفكارنا، وبرقنا الذى رباه سحابك الوضاء عشى الجبال وطوى الصحراء ، يا أمينة على الشرع المبين ، أن فى أنفاسك حياة الدين ، احذرى الزمان فى سيرك وضمى أولادك إلى صدرك . . » .

ويقول « إن شفقة الأم كشفقة النبى فى أنها تقرر المنهج لسيرة الأقوام ، إنما تتقوى نشأتنا بالأمومة ويبدو طالعنا فى خطوط وجهها » .

* * *

ولقد اتخذ إقبال الشعر سلاحه فى إذاعة فلسفته ، والشعر يفعل فعل السحر إيقاظاً للأمم ، وتحميسا للعزائم ، وإعادة الثقة بالثقافة الاسلامية يقول : « على رماد الثقافة الغربية المحترقة يمكن أن تولد ثقافة أفضل وأبقى متى استمسكنا بعرى القرآن ، لئن أصبح أحد العوالم بائداً ، أعطى القرآن عالما آخر » .

وهكذا كان إقبال داعيا إلى بعث الاسلام فى ثوب جديد ، وبعث للحياة والقوة فى قومه ، ودعوة إلى النهوض ، والاسلام عنده (دين مفتوح) . رسالته الانسانية ليس لها حدود زمانية أو مكانية ، وبه قوة كافية تستطيع أن تحرر النفوس البشرية من قيود العصبيات والألوان والأجناس .

وإقبال مؤمن بأن الحضارة الحديثة هى من صنع الفكر الاسلامى . يقول أن الحركة فى الجماعة الاسلامية تكون بالاجتهاد ، وأن أقوى أسباب ضعف المسلمين

هو ترك الجهاد . ويعلن أن (الغاية القصوى للنشاط الانسانى هى حياة مجيدة فتية مبتهجة ، وكل فن إنسانى يجب أن يخضع لتلك الغاية ، وقيمة كل شىء يجب أن تحدد بالقياس إلى تلك القوة على إيجاد الحياة وازدهارها ، وأعلى فن هو ذلك الذى يوقظ الارادة النائمة فينا ويشجعنا على مواجهة الحياة فى رجولة ، وكل ما يجلب لنا النعاس ويجعلنا نغمض عيوننا عن الحقيقة الواقعة فيما حولنا هو انحلال وموت) .

* * *

هكذا فهم (إقبال) الاسلام ، ودعا إليه ، وحمله شعره ، وجعله نشيده وصيحته : الايجابية والبناء والقوة والحياة والعمل ، ولكن فلسفة القوة عنده ليست عنفاً ولا إيذاء ولا إنكاراً للضعفاء ، بل هى فلسفة الاسلام نفسه سمواً وأخوة وتضامنا وعنده أن تحول الأمم لا يكون إلا بتحول أعماق نفوسها « على أمم الشرق أن تتبين أن الحياة لا تستطيع أن تبدل ما حولها حتى يكون تبدلها فى أعماقها ، وأن عالما جديداً لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجى حتى يوجد فى ضمائر الناس قبلا ، هذا قانون القرآن « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » إنه قانون يجمع جانبى الحياة كليهما الفردى والاجتماعى » .

والدين عنده ليس أحكاماً جامدة ، ولا كهنوتية ، ولا إذكاراً ، ولا يتيسر إلا بالدين تهيئة الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذى يحمله إياه تقدم العلوم فى عصرنا ،«والدين وحده يرد للانسان الايمان والثقة اللذين ييسران له اكتساب شخصيته فى هذه الدنيا والاحتفاظ بها فى الآخرة » .

وعنده إنه لا بد للانسان من الارتقاء ، وأنه لذلك لا بد من تصور جديد لماضيه ومستقبله ليستطيع التغلب على المجتمع المتنافر المتصادم ، ويقهر هذه المدنية التى فقدت وحدتها الروحية بالتصادم الباطنى بين الدين والمطامع السياسية .

وعنده أن سير (الدين والعلم) على اختلاف وسائلهما ينتهى إلى غاية واحدة ، بل الدين أكثر من العلم اهتماما ببلوغ الحقيقة الكبرى .

ولقد أكمل إقبال دراسته الجامعية فى الكلية الشرقية بلاهور . والتقى هنالك بأستاذه « توماس أرنولد » الباحث المنصف مؤلف كتاب (الدعوة إلى الاسلام) ثم قصد إلى أوربا فالتحق بجامعة كمبردج فى لندن وهيدلبرج فى ميونيخ وأحرز أقصى ما يطمع فيه مثقف من درجات فى القانون والفلسفة ، وعاد إلى وطنه عام ١٩٠٨ .

ومنذ ذلك التاريخ وحتى توفى فى أبريل ١٩٣٨ كانت دواوينه التسعة ترسم فلسفته الايجابية التقدمية المستمدة من الاسلام ، فى فهم عميق للحضارة والفكر الغربى ، وإحساس كامل بحاجة أمته إلى النهضة والانفلات من قيود الاحتلال .

كان إيمانه بأن « الاسلام » يستطيع أن يعطى أمته كما يعطى الانسانية ذلك الضياء الذى يصنع القوة والحياة والحرية ، هو لب فلسفته ، ومن هنا أطلق على كتابه الذى ضمنه فكرته (إعادة بناء الفكر الدينى فى الاسلام) وليس (تجديد الفكر الدينى فى الاسلام) كما أطلق على الترجمة العربية له .

كان إقبال فى دعوته امتداداً لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى ، ولكن طريقه كان جديداً ، كان فهمه للفكر الغربى وإيغاله فى دراسته قد أعطاه مفتاحا جديداً للتجديد الاسلامى لم يصل إليه من سبقوه فى الدعوة ، ولقد كان فى يقين إقبال وهو ينظم شعره ويكتب رأيه ما شاع بين المسلمين من ضعف وتخلف وإتكالية جرتها عليهم المفاهيم الدخيلة فى مذاهب الحلول ووحدة الوجود ، فكانت صيحته (إن من يصبح قريبا من الله هو شخص متقن) ولطالما ردد فى شعره كلمة (الرجل المتقن) مؤمنا بالعمل الجماعى الايجابى (أن النفس البشرية تستطيع فقط أن تنمو بالمشاركة مع النفوس الأخرى وليس بالعزلة) ولطالما أعلن إقبال أن باب الاجتهاد لم يغلق ، وأنه مبدأ الحركة والنمو فى الاسلام ، وكشف عن الفرق بين التعصب والتدين فقال . (إن التعصب يقف حائلا بين المرء والآخرين ، أما التدين الواعى المسئول فهو بمثابة جسر يوصل بين المرء وبين غيره يمكنه من أن يرعى مواطن الجمال فى الكون والآخرين) .

ولقد كشف عن آراء المسلمين فقال : لقد أكد الاسلام (الحرية) ولكن غلبة الأغراض السياسية أشاعت فى عامة المسلمين « جبرية » مشئومة .

بين إقبال والمفكرين من الغرب

وقد جرت أحاديث عن ارتباط إقبال بالفكر الغربى فى نظريات كانت أو برجسون ، أورسل . وليس هناك ما يمنع من أن يكون إقبال قد استوعب كل هذه الفلسفات ، غير أن جذور كل الدعوات الانسانية إلى الحرية وإلى العقل وإلى الدين إنما يستمدها من الفكر الاسلامى كأساس واضح .

وقد وافق إقبال «كانت» فى نقده للعقل الخالص وإيمانه بعجز العقل وحده عن التوصل إلى الحقيقة المطلقة ، وهذه هى نظرة الاسلام أساسا ، يقول إقبال : لابد لإدراك الحقيقة من الادراك الداخلى الذى يسميه «القرآن» القلب ، وليس القلب والعقل متناكرين ، وليس الفكر والالهام متنافرين ، فالدين لا يقنع بالتصور المجرد ، بل يطلب اتصالا بمقصود ووسيلة ذلك «العبادة» والصلاة وسيلة استنارة روحية تعرف بها الذات الانسانية أنها موصولة بحياة أوسع ، وكل طلب للمعرفة هو فى حقيقته صلاة ، فالباحث فى العلم الطبيعى هو كالصوفى فى صلاته ، وتزيد الصلاة قربا من مقصودها بالاجتماع ، والعبادة (فردية أو جماعية) هى أعراب عن تلهف الوجدان الانسانى إلى استجابة فى صمت الكون الهائل .

ولم تكن رسالة إقبال مقصورة على قومه فى الهند أو العالم الاسلامى وحده ، بل لقد قدم «الاسلام» للفكر الانسانى كله وللغرب الحائر باعتباره العطاء القادر على حل مشاكله وأزماته ومعضلاته، ومضى يقول : إن الانسان العصرى قد أنشأ نشاطه العقلى ، وكف عن تغذية روحه ، ومن هنا واجه صراعا مع نفسه ، ومع مجتمعه». وقال : إن هدف الحضارة هو ارتقاء الانسانية والسمو بها وأن على الانسان أن يؤمن بنفسه وأن يفرض نفسه على الحياة ، لا أن يخضع لها » .

وقد انتزع إقبال تقدير الباحثين ولقيت فلسفته الاسلامية قبولا من الدوائر المختلفة ووصف بأنه متميز له طابع بين دعاة الاسلام ومصلحيه . يقول المستشرق هاملتون جب « أنه حين تميزت كتابات المفكرين المسلمين الجدد بأنها أقرب إلى أدب الدعاية والسياسة والدفاع والتبرير وتغلب عليها العاطفة أحيانا كثيرة ، فان

كتاب إقبال يتميز بالمعالجة العلمية الرصينة والفكر العميق والثقافة الفلسفية العلمية الواسعة الدقيقة » ·

وبعد فإن إقبال لم يكن شاعراً وفيلسوفاً فحسب ، ولكنه كان سياسياً وداعية إلى إلى تحرير الهند من الاستعمار البريطانى . وهو صاحب فكرة إنشاء الباكستان التى حققها القائد الأعظم « جناح » وقد دعا إليها سنة ١٩٣٠ وقامت الدولة ١٩٤٧، ولا شك أن فلسفة إقبال فى الإسلام هى الشق الثانى من المقاومة للاستعمار ، وهى مقاومة دعوات الفكر التى كانت تحاول أن تصور الهنود والمسلمين ، وأهل الشرق كله بأنهم قوم متخلفون طبيعياً ، وأن الأجناس غير البيضاء الأوربية لاحق لها فى الحياة أو الحرية » .

ولد (إقبال) فى سيالكوت بالبنجاب عام ١٨٧٣ من عائلة تعيش على الزراعة نزح جدها الأكبر من كشمير ، وتلقى تعليمه فى طفولته على أبيه، ثم أدخل مكتباً لتعلم القرآن ثم مضى فى إكمال تعليمه حتى أحرز أرقى الدرجات العلمية ، وكانت أطروحته للدكتوراه فى الفلسفة برسالة فى « تطور الفكرة العقلية الفارسية » .

وقد عمل بالتدريس فى الجامعة غير أنه لم يقو على قبول نفوذ الاستعمار فاستقال . ولما سأله خادمه لماذا استقلت قال : « إن خدمة البريطانيين مهمة صعبة ، والأصعب من ذلك هو البقاء فى خدمة البريطانيين » وفى مجال السياسة عمل عضواً بالمجلس التشريعى بالبنجاب وزار القاهرة سنة ١٩٣٢ وهو فى طريقه للاشتراك فى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن ، وكان رئيساً لجمعية حماية الاسلام التى كانت تشرف على عدد من المؤسسات ، وأتيح لإقبال أن يزور أكثر أجزاء العالم الاسلامى ، فقصد الحجاز وأفغانستان وإيران ومصر كما زار الأندلس « الفردوس المفقود » .

وإذا كان إقبال لم يجد خلال حياته فهما واسعاً لنظرته وفلسفته، فانه كلما أمعن فى الابتعاد عن عالمنا كلما أخذت مفاهيمه تتضح وتبرز ، لقد آمن هذا الرجل بإيجابية الاسلام وتقدميته، ودعا إلى الأخذ بالحضارة الغربية على قاعدة فكرنا ، وكان أمله فى العرب ووحدة العرب إيمانا أكيداً بأنه هو السبيل إلى الحرية والوحدة .

الفصل السادس

كامل كيلانى

رائد أدب الطفل

« أريد أن أقرر حقيقة كبرى ، هى أننى لم آخذ مكانى أبداً ، الحقد والحسد والغيرة ، أكلت كل المحاولات التى بذلت لأجلس على المقعد الصحيح وأقف فى المكان المناسب ، ولكنى غفرت لكل الذين أساءوا إلى ووقفوا فى سبيلى ، غفرت لهم وعفوت عنهم ، ودعوت الله أن يعفو عنهم أيضاً ، ها أنذا أموت ولم أنل كلمة تقدير واحدة ، ولم أنل جائزة ، لم أقبض مليما واحداً مكافأة لى طوال حياتى » .

.. هذه آخر الكلمات التى نطق بها كامل كيلانى (أكتوبر ١٩٥٩) وهو يسلم الروح بعد أن لمع فى أفق الحياة الفكرية والأدبية العربية أربعين عاماً فهو من ذلك الجيل الذى ظهر بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان وزميلاه سيد إبراهيم الخطاط العربى الأشهر وزكى مبارك من رواد الجامعة المصرية القديمة قد اقتحما مجال الحياة الجامعية الأولى واقتحمها معهم وهو يحمل فى جعبته خمسة آلاف بيت من الشعر كان يفخر بها ويتيه على أقرانه وكان أغلبها من شعر المتنبى وأبى العلاء المعرى ، ولقد عاش رحمه الله يستشهد بها فى كل مناسبة وآن لما أن تذكر له حادثاً معينا أو مذهباً جديداً أو نظرية مستحدثة إلا راجعك فيها وأورد لك أبياتاً أو كلمات تثبت لك أنها سبقت فى الأدب العربى ، ويرجع هذا التحدى الذى عاشه كامل كيلانى إلى هذه الفترة الدقيقة من حياته فى الجامعة المصرية القديمة فقد كان أستاذهم يصبحهم ويمسيهم فى تيه وفخر وهو ينشد شعراً لالفريد دى موسيه وشكسبير وملتون وغيرهم من شعراء الغرب ثم يقول : هذه معان جديدة طرقها شعراء الغرب فهل طرقها شعراؤكم العرب ويذهب كامل كيلانى فيقذى عينيه تحت أضواء المصابيح الخافتة — إذ ذاك — حتى الصباح يقلب الدواوين باحثا فى شعر عشرات من الشعراء حتى يلتقط ما يشاء ثم يذهب إليه فى الصباح فيروى له شعر العرب فى مثل تلك المعانى التى طرقها شعراء الغرب وفى بيان أشد عمقاً وأبعد نفاذاً إلى جوهر النفس الإنسانية . وفى هذا قال لى رحمه الله وهو يروى قصة حياته :

« إنه ما من فن أو علم أو معنى تحدث فيه الناس فى أدب من الآداب إلا وجدت له ضريبا فى اللغة العربية وقد جمعت من هذه المعانى المشتركة (١٨٠٠) ألف وثمانمائة صورة » ثم يستطرد فيقول : إنها أبرع عملة فكرية فى الغرب بشهادة كبار النقاد وقد أردت إيراد هذه المعانى وما يقابلها فى الآداب العالمية لأقنع الشباب بجلال أدبنا وأضفت إليها (٢٥) خمسة وعشرين عملة فكرية من الأدب العربى لا ضريب لها فى الأدب الغربى بكافة فنونه وألوانه . . وهذا الأستاذ الغربى الذى تحدى كامل كيلانى هو « برسى وايت » سأله مرة عن قصة (هى أو عائشة) فقال أستاذه عنها : هى تحت درجة الاحتقار ، قال كامل كيلانى : هذا المعنى عند ابن الرومى :

قومته بالشتم يهدى له . . فلم أجـد قيمتة تسوى

***

ولكامل كيلانى مجالات واسعة فى الأدب العربى : نقداً ونثراً وقصة وترجمة ولكنه تلفت إلى « أدب الطفل » فعالجه معالجة أراد أن ينفع بها أبنه مصطفى ثم تدرج معه من سن العاشرة حتى سن الشباب والجامعة ، وتدرجت قصة الطفل معه طوال السنين ، قصة تجربة كان يقيسها على ابنه ويفصلها على سنـه ويحذف منها ما لا يفهمه ، ولم يكن يكتب القصة اعتباطا (أول قصة للأطفال بدأها ١٩٢٧) (السندباد البحرى) يقول : كنت أرى قصص الأطفال الأجنبية آية من آيات الروعة والجمال ، ولقد كنت أغار منها ، وأقول لماذا لا يكون لأدبنا مثل هذه القصص وهذه الأناقة . أن طالب الإصلاح يجب أن يعبد الطريق وأول ما يعنى به المهندس مكانة الأساس فالطفل هو أساس الآمة ، وموضع أمل الجميع ، فالعناية بها عناية بالأمة بأسرها ، هكذا بدأ عمله ثم مضى فيه ، مضى يكتب حتى أكمل ألف قصة لم يطبع منها قبل موته غير مائة وثمانين قصة والباقى فى الطريق ، وقد ظل يقرأ الحروف الأجنبية الدقيقة فى القواميس حتى كف بصره ، ثم أعاده الله إليه بعد عملية جراحية ، واستأنف عمله ، لم يكن يؤمن بأن فى مقدرته أن يعيش لحظات دون أن يكتب ، ولكن هل كان عمله مجرد كتابة قصة للطفل ، أم أنه كان صاحب فلسفة عميقة ومخطط واضح ؟ ؟ يقول : إن الشعوب العربية مختلفة اللهجات ولكن تجمعها وتوحد بينها لغة فصحى واحدة هى اللغة العربية ، فلابد من الكتابة بالفصحى ، إن الذين

يعمدون إلى جعل الحوار باللغة العامية الدارجة والمألوفة لا يفعلون ذلك إلا عن ضعف وعدم إتقان للغة . ولم يتوقف عند هذا بل تفتحت بالاخلاص والايمان برسالته أفاق جديدة ، كتب القصة العربية (صفحة بالعربية وصفحة مقابلة بالفرنسية وأخرى بالانجليزية وثالثة بالأسبانية) . أرسل لكل بلد عربى قصته بالعربية وباللغة الأجنبية المستعملة فيها وقت ذاك حتى يعين أبناءها على إتقان لغة أمتهم ، لغة الضاد الفصحى ، لغة القرآن ، ثم ماذا بعد ؟ يقول : لقد عمدت إلى مفردات الأدب العربى الحديث الجديرة بالبقاء فجمعتها من بطون الكتب النفيسة ثم ضممتها بالتدريج إلى قصصى مرافقة للولد العربى منذ طفولته إلى شبابه . وفى اعتمادى هذه المفردات اتخذت أصح الألفاظ بعد مراجعة مواضعها فى غير مصدر ، والقرآن فى مقدمة هذه المصادر ، وهكذا يجرع الطفل المفردات صحيحة من أول مرة ، ويعيش معها صحيحة ، ولا تظن أن المفردات لها من حيث صعوبتها أو سهولتها عند الطفل اعتبار ما .

ولكن كيف تسنى لكامل كيلانى أن يعمل هذا العمل الضخم فى زحمة الحياة ومشاغل الوظيفة فى وزارة الأوقاف: « أخذت نفسى برجيم قاس فى الحياة فحصرت جهودى كلها فى عملى وأغفلت كل شىء فلم أرد على ناقد ولا كاتب بل أكاد لا أجيب على رسائل الأصدقاء ، ولا أذكر أننى كتبت فى حياتى كلها أكثر من خمس وثلاثين رسالة » .

نعم لقد تنكب الدروب المطروقة وخلص إلى الطريق الطويل والعمل الأشق فأبدع فنا جديداً غير مسبوق فيه ، كان يوصينى دائما بأن أحذر من أن يجرنى النقاد إلى الحوارى وأن أخلص إلى الشارع الرئيسى دوما ، ولا أستمع لنباح النابحين ، وقد عمل صامتا ثلاثين عاما بعيداً عن معارك السياسة والصحافة التى كانت ترفع وتؤلق أو تعلى من أقدار دعاتها وعكف على عمله مؤمنا بقيمة العمل الخالص لوجه الله والوطن ، المبرأ من الهوى والغرض فلم ينصفه جيله وظلمه ظلما بينا ، فلم يثنه ذلك عن مواصلة العمل والجهد .

وكانت اللغة العربية أكبر همه والدفاع عنها أكبر أعماله يقول: «فى سنة ١٩٢٠ بدأ الهجوم على اللغة العربية وبدأ أصحاب العامية يكتبون فى الجرائد والمجلات وشعرت أنا بهذه الزوبعة وبأنها لا شك ستنتصر إذا تركنا هؤلاء يكتبون ويتكلمون ولم أجد فى نفسى الرغبة أن أكون ناقداً أو متكلماً فالموجهون فى كل عصر من عصور التاريخ قسمان : ناس يصنعون التاريخ وناس يكتبون التاريخ ووجدتنى آهلا لأن أصنع التاريخ لأن أبنى مع البناة أحجاراً تضع أساساً متينا لبناء الجيل الجديد لا بالمقالات والمحاضرات ولا بالندوات والأحزاب وإنما من صومعتى الهادئة فى الدور الأرضى بمنزلى ، وبدأت من الأول، من أول ما يفتح الطفل الصغير عينيه على صفحة فيها صــور وفيها (نغبشه) كل الذين أرادوا أن يبنوا الجيل الجديد بمجلة أو بمقالات بدأو متأخرين ، بدأوا بعد أن نما الطفل ، وانغرس فى نفسه الخوف والفزع من « أبو رجل مسلوخة » والعفريت المختفى تحت السلم وتحت السرير ، أما أنا فبدأت به مع الأشباح التى يخيفونه بها ، وضعت له القصص والصور وحطمت له الأشباح التى كانت تفزعه وفى كل القصص التى يقرأها الطفل الصغير يجب أن ينتصر الخير ويجب أن يرى الشر دائماً مصيره إلى الهلاك . ولكننى أحسست أن الطفل الذى يعيش فى قصص ويرى الخير دائماً ينتصر ثم يكبر وينزل إلى الحياة فيجدها كلها صراعاً وشراً وضلالا . يصاب بصدمة يقف منها مشلولا أمام الخديعة التى ظل يعيش فيها كل طفولته وصباه ، ولهذا كنت أضع الشر دائماً بجوار الخير ، وأصور له الصراع العنيف الذى يدور بينهما حتى ليكاد يتوقع أن ينتصر الشر فى لحظة خاطفة وتنتهى القصة ولكن الخير ينتصر فى النهاية ، أفعل ذلك لأغرس فى نفس الطفل حقيقة الحياة الواقعية وهى أن النصر للخيرين الأذكياء .

***

هكذا مضى كامل كيلانى يواجه الحملة على اللغة العربية ، فنقلها — أى هذه اللغة الفصحى إلى داخل القصور والبيوت فى أغلفة لامعة جميلة ، يقول : أنا أحارب اللغة العامية التى يدعون إليها ، أحاربها بكل ما أستطيع ، لكن أسلوبى فى محاربتها

هو حرب البناء الذى يصنع التاريخ ، وأنا أقول لهؤلاء الذين يريدون الكتابة بالعامية ، عامية مصر أو العراق أو سوريا أو الحجاز ، قلت لمحمود تيمور عندما كان يكتب الحوار فى بعض قصصه بالعامية . « إذا أردت لأدبك الخلود فاكتب بالعربية » .

هكذا عاش كامل كيلانى حياة كاملة كلها للعمل ، وقدم أعمالا ضخمة فى عالم النقد والقصة الشعر والصحافة ، وكأنما كان ينهب الأرض مسرعا حتى يحقق أكبر قسط من الإنتاج قبل أن يطويه الردى أو أنه كان يعلم من أمر عمره القصير فأراد أن يعوضه ومات الإنسان وعاش المفكر وترك تراثاً ضخما .

« لا أصغى إلى الناقد ولا أمنعه الكلام »

ولقد كان له من عباراته ما يدل على عمق التجربة ، يقول : إن شعارى فى الأدب : ليس من حقى أن أمنع الناقد من الكلام ولكن من حقى ألا أصغى إليه ، وإذا سألته ماذا خلف لك المعرى وأنت تردد إسمه مرات كل يوم يقول :

إن أبا العلاء كونى فى بيته الذى يقول فيه :

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن ، لا لأجل ثوابه

وهو من المؤمنين بالحكمة القائلة : خير العمل أدومه وإن قل . فإذا سألته أى شىء من الشعر أعجبك ؟ قال : إنه قول القائل ولعله هو القائل فى الحقيقة :

أنفع الناس وحسبى أننى أحيا لأنفع
أنفع الناس ومالى غير نفع الناس مطمع

قال لى : وقد رأيته يحمل الستين من السنوات قبل موته بقليل وأشفقت عليه ، قال : ما ضاع من عمرى شىء أبداً ، كنت أعمل حتى فى يوم المرض ، أفكر وأتأمل وأرسم خطط العمل مؤمنا بالقاعدة التى تقول . العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه ، وإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئا . .

عاش رحمه الله حياة عريضة وإن لم تكن طويلة فإنه لم يكد يستهل العقد السابع حتى كان قد كشف له المرض عن خصومة عنيفة صبر لها الكيلانى كما صبر من قبل على عشرات الخصومات التى واجهته فى حياته الفكرية غير أن المرض لم يلبث أن اشتد عليه فى عامه الأخير وهو يغالبه بالعمل المتصل والصبر الجميل وكان يخفيه عن أحب الناس فلما بلغ مبلغه وعرف أنها النهاية كان ينتهز فرصة إفاقته من نوبات الألم فيقصد إلى بيوت أحبائه وأصفيائه يودعهم ويراهم للمرة الأخيرة وذات مساء وقفت عربة أنيقة أمام منزلنا ودعيت إلى لقاء صاحبها فإذا بى أجده هو، أنه جاء، جاء يودعنى ويحدثنى عن كثير من أمور حياته، وأسرارها، يفضى بها إلى وكانت ليلة لم تذهب إلا فى صباح نعاه فيه الناعى .

الفصل السابع

إبراهيم ناجى

نشأ فى الآداب العالمية المعاصرة فن رفيع أطلق عليه اسم « النوابغ خارج دائرة تخصصهم » تناول بالبحث أولئك الأعلام الذين نبغوا فى فن آخر غير الفن الذى اختاروه صناعة للحياة ، وقد أدرج كثير من الباحثين الأطباء فى هــذا المجال بوصف أن مهنة الطب من أكثر المهن التى تنوع النبوغ فيها خارج دائرة الاختصاص .

لو نظرنا فى محيط الأدب العربى الحديث لوجدنا هذا الاتساع والتنوع :

نجد الدكتور شبلى شميل ، حامل لواء النظرية المادية .

الدكتور عبد العزيز اسماعيل الذى أنشأ قسماً عاليا من البحث بين الإسلام والطب .

الدكتور محجوب ثابت الذى كان يداعب شوقى فى مجالات السياسة وأندية الأدب.

الطبيب الدكتور أحمد فؤاد ، داعية وحدة وادى النيل وقطب الحزب الوطنى .

الدكتور عبد الحميد سعيد ، حامل لواء (لا مفاوضة إلا بعد الجلاء) وزعيم الشبان المسلمين وخطيب البرلمان فى مواجهة الأخطار .

هذه بيئة الأطباء التى عاصرها ناجى فأين نجده منها ؟ . . لا نجده إلا وقد قصر نفسه على قصيدة واحدة طويلة من شعر الوجدان والحب والعاطفة استنفدت حياته كلها وتتابعت فى دواوين ثلاثة : وراء الغمام ، ليالى القاهرة الطائر الجريح ،

ولكن إبراهيم ناجى كان طبيبا نابغا ، موفقا فى فحوصه ، حنونا رفيقا بمرضاه يعطى مهنته من ذات نفسه إلى الحد الذى يضحى فيه بموارده .

وكانت صلته بمرضاه آية من آيات الرحمة والأخلاق ، كان يدخل بسيارته الحوارى الضيقة فى الليالى الباردة ، ويفحص ، ثم يمضى فيشترى الدواء أحيانا من جيبه الخاص ، تلك خله عرفت عن ناجى واستفاضت بها الأنباء ، يصدر منها عن سجية خالصة وطبع عربى أصيل .

ولقد أعطت صناعة الطب لناجى ضوءاً وتجربة وفرضت عليه تحديات وأثقلت جناحيه بمتاعب وأزمات .

كشفت له عن النفس الانسانية وأبانت له حقائق باهرة قوامها أن مرضى الأجساد هم مرضى فى النفوس أساسا ، وأن ابتسامة الطبيب هى نصف العلاج ، واستطاع هو بما وهبه الله من طبيعة مسماحة كريمة أن يجلو صدأ كثير من القلوب ، وأن يزيل كثيراً من الآلام وأن يمسح بيده الحانية على كثير من النفوس المعذبة .

ولكنه من خلال التجربة : رأى صورة المجتمع غارقا فى الأزمات والتحديات التى فرضتها عليه الحضارة الحديثة والاحتلال وتحرير المرأة .

يقول ناجى : « إن الأطباء لو كتبوا أجادوا ، لو أذاعوا ما علموا لأحدثوا رجة فى الأدب وتغييراً فى أساليب الحياة لأنهم وحدهم الذين سيكتبون بلا نفاق ويوحون بالحقائق من غير رياء ، ذلك لأنهم لا يخشون أحداً ولا يرهبون صولة إنسان » وأشار إلى كتابات كثير من الأطباء فى الغرب مما تميزت بالبساطة التامة وأشار إلى دوره فى هذا المجال فقال :

« إنى من أكثر الأطباء اختلاطا بالناس واندماجا فى الشعب ، صغيره وكبيره ، مرضاى أصدقائى ، وزبائنى ليسوا غرباء عنى ، فهم جزء غير منفصل من حياتى ، ولقد عشت أؤمن بأن المريض ليس (حالة) كما يقول الأطباء كثيراً ، وإنما هو

إنسان وأن العــلاج لا يـكون فى تذكره الدواء وإنما فى فهم ذلك الإنسان و ...
مقاسمته آلامه .. فى الاصغاء إلى متاعبه وفى بذل العطف الصادق له وفى منحه
الحنان الذى فقده فى العالم الواسع .

ويكشف ناجى عن مزيد من تجربته فيقول : لا أحب أن أزور منازل الأغنياء
ولا أفرح للمال الذى يبذلونه لى ، وأحب أن ألبى دعوة الفقراء وأن أغشى منازلهم
وإننى على فقرى أحفظ السر وأحسن التضحية » .

ثم يتساءل فى مرارة فيقول « ماذا تجدينى السمعة الطيبــة بينما جارى الذى
يعج بالمخازى يتعثر عليه الذهب حتى أكاد أسمع رنينه من عيادتى » !

مواجهة التجربة والخطأ

والطبيب والشاعر فى ناجى لا ينفصلان ،فهو فضلا عن أنه يعامل المرضى معاملة شاعر
فان تجربة شعره كلها تكاد تكون ثمرة من ثمار حياة الطبيب ولولا الطب لما انفتحت
أمام ناجى كل الأبواب وعرف كل الوجوه التى عطف عليها وأحبها ، والتى أغرقت
قلبه فى تلك الدوامة التى لم ترحمه وانكشفت له أسرار البيوت وعرف مالم يعرفه أحد .
ولقد حاول ناجى أن يعبر عن هذه الرابطة حين قال :

خلقت بقلبين : قلب الطبيب وقلب الشاعر . قلب الطبيب يمتلىء وقلب الشاعر
يعبر ، فقد كانت التجارب الإنسانية ترتسم فى خواطرى مضاعفة ، وآلام البشرية
لها فى جوانحى صدى مرن » .

وقد أجمع الذين كتبوا عن ناجى ودرسوه على أنه عاش حياة قلقة مريرة ،
يقول محمد عبد الغنى حسن : [1] أنه شاعر عاش حياته حائرا مفننا وعاش ظامئا
على كثرة الموارد حوله ، وجائعا على وفرة الزاد عنده ومقيما كالمسافر وثاويا
كالمهاجر » .

(١) مقدمة ديوان الطائر الجريح .

ويقول عبد العزيز الدسوقى : (١) أن ناجى روح عاطش متعطش دائما للحب يبحث عنه فى كل الأوقات فى عينى كل امرأة وفى صحبتها ، ويبدو أن المثال الذى كان يتصوره لفتاة أحلامه ، كان مثالا خياليا مسرفا فى الخيال ، ولعل ناجى القلق الملول الذى كان يشبه الطائر المتوجس لا يستقر على حال ولا يهدأ لحظة فى مكان ، فحبه عاثر دائما وتجاربه العاطفية كلها دموع وألم من هذا الفشل الذى كان يتربص بحبه دائما ويعيش على الذكريات و كلها ذكريات كئيبة معتمة لا تــلوح منها بارقة أمل » .

ويقول الدكتور مندور : (٢) « وبالرغم من أن ناجى كان متزوجا وله أبناء إلا أنه ظل طوال حياته « ظمان » للحب الذى يملأ فراغ نفسه ، وهناك علاقة غرامية خاصة لم ينسها طوال حياته وقد أوحت اليه بالكثير من روائع شعره وفى مقدمتها قصيدة العودة » .

وفى هذا كله إجماع على طبيعة رقيقة حالمة ، لا تظاهرها قوة نفسية أو روحية كبرى تحول بينها وبين الإنهيار والتحطم ، فقد كان ناجى عاجزا عن أن يواجه أزمته النفسية مواجهة صادقة . وتلك هى « أزمسة العصر » التى وقع فيها كثير من الأدباء ومن بينهم زكى مبارك وجلال شعيب بطل قصــة (أديب) للدكتور طه حسين ، هؤلاء الذين عجزوا عن مواجهة المجتمع الجديد وهو يهتم للتجربة والخطأ ذلك أن المجتمع الذى اكتشفه الدكتور ناجى بعد تخرجه فى كلية الطب كان هو المجتمع المصرى ثمرة الثورة على الاحتلال ، وكانت بعض الأسر فيه قــد وقعت فى براثنما أطلق عليه طبيب زميل للدكتور ناجى فى العصر وفى الأدب ، هو الدكتور حسين الهراوى ، لقد كتب الدكتور الهراوى بضع مقالات فى السياسة الأسبوعية عما سماه (الفتنة الغربية) كشف فيها عن اخطار الأسر مما وقع نتيجة انطــلاق الحرية .

وقد كشف الدكتور ناجى عن مثل ذلك فى كتابه (ادركنى يادكتور) ورسم صورة ذلك المجتمع المترف الارستقراطى الذى كانت تسقط بعض عناصره فى الخطأ وكيف رفض هو – أى ناجى – أن يجرى عملية اجهاض بالرغم من دسامة المبلغ الذى قدم له ، هذا المجتمع بصوره المتعددة ، وكان بعيد الأثر فى نفسية ناجى ، فان

(١) جماعة أبو لو وأثرها فى الشعر الحديث (٢) الشعر المصرى بعد شوقى

ناجى الذى تعالى نفسيا على أخطاء المجتمع وعايش الفقراء . لم يستطع أن يتحرر ذهنيا من النظرية الجمالية للفن ومفهوم الايقوريين اليونان وتابع فرويد فى رأيه فى الجنس . ويمكن القول أن ثلاثة من أعلام الأدب والفكر كانوا بالغى الأثر فى فكره ونفسيته . وربما التقوا به عن طريق التشابه فى المزاج العصبى أو الرقة النفسية أو غلبة الطابع الوجدانى أولئك هم أبو نواس وبودلير . وفرويد

أما أبا نواس فقد قرأ عنه ناجى عشرات من الفصول التى نشرت فى ذلك الوقت والتى بعثته من جديد . هو وزملاؤه بشار والخليع والضحاك

أما بودلير فقد أذاع شعره الدكتور طه حسين وأغرى به أمثال الدكتور ناجى الذى ترجمه وألف عنه . أما فرويد فقد استطارت شهرته فى تلك الفترة بوصفه مبتدع التحليل النفسى . فأعجب به ناجى وتمنى أن يكون (فرويد مصر)

ويصور ناجى هذا المعنى فى بعض كتاباته فيقول : «كان طبيباً يميل إلى قراءة الفلسفة على فرط ما كان يجيش به قلبه الإنسانى من العاطفة الدافقة ، وكان هذا الميل إلى الجدل هروبا من العاطفة العمياء » .

ومن الحق أن ناجى لم يوفق فى قراءاته الفلسفة ، فقد ارتضى مفهوم فرويد فى الجنس ولم يكن هذا هو الرأى الأخير ، فقد عارضه زملاؤه أمثال أدلر ويونج فى مفهومه هذا واعتبروا أن تأكيد الذات ، وليس الجنس هو العامل القوى فى توجيه الإنسان ، وتابع ناجى هواه مع أبو نواس حتى لقد اعتبره مثله الأعلى[1] وبذلك انتقل نقلة كبرى من كوكبة الشعراء إلى دولة الظرفاء .

ولقد جاءت قراءات ناجى الغربية متباينة متضاربة فلم يستطع الشاعر أن يواجهه بأساس صامد من إيمان أو منهج فكرى له جذوره العربية ، ومن هنا كان ذلك التمزق بين عاطفته وعقله . وكانت هذه الحيرة النفسية والصراع العقلى اللذان عجلا بانطفاء مصباح حياته .

---

(١) كتاب دولة الظرفاء.

وقد كشف هو عن هذه الحيرة على نحو صريح حين قال :

« شاء أبى أن أكون طبيباً ، وليس بالطب من حرج ، وإنما الحرج ، أن يكون الخيال مركباً فى طبيعة الانسان فاذا القدر يضعه فوق أسنة المادة ويزج فى الدائرة التى لا شعر فيها ولا خيال ، وإنما الحرج أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت إلى أنات الجسد ،وشتان بين هذه وتلك ، وإنما الحرج أن تجذبه طبيعته لناحية ومهنته لأخرى حتى يتمزق بين شد هذا وجذب تلك وإنما الحرج أن تلائم بين الضدين وتوفق بين النقيضين وأخيراً يلتفت فاذا نفسه أشلاء وإذا الذبالة تحترق والزيت ينضب وإذا معين القوة قد أشرف على الزوال وإذا الجبار قد مزق أوصاله ذلك النضال العنيف بين الغرائز والقدر وبين الميول والصروف وبين الخيال والمادة وبين الوهم والواقع ، وبين الروح والجسد .

تلك مأساة ناجى : وذلك هو الصراع الذى لم يحسمه حاسم .

أغلب الظن أن أحداً لم يكن يفهمه أو يصل إلى أعماق نفسه أو يعطيه ما يرضى روحه القلقة ، أو أنه الذى انداح وراء مفاهيم المدرسة السيكولوجية فلم يستطع أن يحتفظ بإيمانه الموروث أو يحفظ نفسه من الانزلاق فى أخطار التمزق والفصام .

لقد عبر « ناجى » عن خلاصة حياته وتجربته فى بيت واحد من الشعر هو خلاصة حياته ، ذلك قوله :

اشترى الأحلام فى سوق المنى   وأبيع العمر فى سوق الهموم

نظرة فنية للحياة

لقد كان ناجى كما وصفه النقاد . صاحب «رقة» لا تستطيع مواجهة العواصف والأحداث فهو شاعر « هين لين رقيق » كما وصفه طه حسين .. شعره أشبه بما يسميه الفرنجة (موسيقى الغرفة) أو أنه يحمل سمات الضعف والمرض كما وصفه العقاد وأنه من أولئك الذين يفهمون الرقة ترادف البكاء وأن الشاعر ينظم ليبكى ويشكو

فإذا هجره حبيبه بكى ، وإذا تناجى مع حبيبته قال لما هاتى حديث السقم والوصب » .

ومن الحق أن ناجى قد تلقى حدة خصومه بين أبولو وطه حسين والعقاد فقد كانت مصر تحكمها السياسة وكانت أبولو فى نظر الكاتبين زعامة جديدة تريد أن تفرض نفسها على زعامة الكاتبين الكبيرين . ولقد عرف ناجى بأنه رائد الاتجاه الوجدانى فى جماعة أبولو وتابعه كثيرون ووصفه أبو شادى بأنه شاعر اللهفة .

ومن الحق أن يقال أن ناجى كان شاعرا مطبوعا وأن أداءه يهز النفس حقا ، ورؤياه مصقولة ، وكلماته رائعة ولكنه كان حزينا ميئوسا ، وكان مستسلم الطبع أمام الأحداث ، وأمام صولة الحبيب ، على نحو يشيع روح اليأس والهوان .

وقد أخذ على ناجى قصوره عند فن واحد ، وأنه لم ينظم فى القضايا الوطنية والقومية ولم يشارك أمته فى تحدياتها وأخطارها التى مرت بها خلال تلك المرحلة الدقيقة من حياتها ، بل لقد صبغت المدرسة الوجدانية الشعر فى ذلك الوقت بطابع التخاذل ، مما حمل إليها الاتهام بأنها « مخدر ضار » يصرف الشباب عن الجهاد والنضال فى مقاومة الاحتلال ، وحين نرى (على محمود طه وهو شاعر وجدانى وقد التفت فى قصيدته عن فلسطين إلى معان تهز النفس نعجب لتخلف ناجى فى هذا الميدان .

ومن الحق أن يقال أن ناجى فى المرحلة الأخيرة من حياته قد عزل نفسه تماما عن تحديات مجتمعه ووطنه وقصر نفسه على بعض أسمار يطلق فيها فكاهاته الساخرة المريرة ، التى يسخر فيها من كل شيء وكل إنسان بينما اتجه اترابه فى ميدان الشعر الوجدانى إلى آفاق أخرى من الشعر الوطنى والقومى يستوحونها ويعمقون شخصيتهم ويواكبون الأحداث وإذا كان الشعر هو قمة أدب ناجى وذروة إنتاجه فان ناجى لم يرد أن يقصر نفسه على نظم الشعر بل تطلع إلى منزلة أدبية واسعة فكتب القصة وسرعان ما أصدر مجموعته (مدينة الأحلام) بعد أن أصدر ديوانه الأول — ولقى من نقد النقاد ما لقى — بوقت قصير ، ولم تكن (مدينة الأحلام) قصة كبرى أو مجموعة قصص مترابطة بل كانت خليطا بين المؤلف والمترجم لا تعطى

له إمتيازا ما في مجال القصص وتوسع ناجي في إنتاجه فكتب مقالات في الطب وفي النفس واهتم بدراسة ويلز وفرويد ، وحاول أن ينشيء نظرة فنية للحياة من خلال قراءات طائرة متفرقة غير متعمقة ، واعتمد على نظرية دارون أساسا وأخذ مفاهيمه فيها من الماديين ، ولو أنه أطلق لنفسه حرية البحث وقرأ جوليان هكسلي في الداروينة الجديدة أو اليكسي كاريل في (الإنسان ذلك المجهول) لاهتدى إلى أشياء كثيرة ربما كانت له عاصما وحاميا مما تأثرت به نفسه في شأن الخلق والخلود ولماذا جئنا وإلى أين نذهب من نظرة متشائمة إلى الوجود من طابع اللا ادرية الذي مس فكره فقاده إلى نوع من الشك في كثير من القيم الأصلية .

ومعى صديق تأملاتى

ولقد توسع ناجي في بحوث الفلسفة وكتب فيها وحاضر ، ولم يصل فيها إلى فكرة واضحة بل بقى في ضباب المذاهب النفسية والميتافيزيقية . وإلى هذا المعنى أشار الدكتور محمد مندور وهو يقوم تراث ناجي حين قال : (١) « لقد كانت طبيعته دائمة التوثب والتنقل من فن إلى فن كالطائر سواء بسواء ، ومثل هذه الطبيعة لا قدرة لها على التحليل والدرس والصبر عليهما ، لذلك تراه يقفز في بحوثه من فكرة إلى أخرى ولكنه قلما يستطيع بناء فكرة على أخرى ، أو توسيع الأساس الذي يبنى عليه لبنات أفكاره في بناء متكامل سليم . . »

ومن أجل هذا لم ير مندور في تراث ناجي ما هو أهل للتقدير غير شعره الذي هو بحق عصارة روحه ، والذي وصف ناجي نفسه بأنه « النافذة التي أطل منها على الحياة وأشرف منها على الأبد وما وراء الأبد .

وقد طالع فنون الشعر العربي القديم وقرأ في فن العروض والقوافي ثم طالع في الأدب الانجليزي والفرنسي فنونا مختلفة من الشعر والنثر ، وكان لمولده في شبرا على أطراف المدينة أثر بعيد في اعجابه بالطبيعة : ويقول : كنا نسكن شبرا . . . وشبرا منذ ثلاثين عاما كانت بساطا أخضر شعريا بديعا تتوسطه ساقية وعلى حفافيه شجيرات جميز وتوت فكنت أمضي إلى تلك المروج ومعي صديق

تاملاتي (دافيد كوبر فيلد) فما زلت به حتى قرأته مثنى وثلاث ورباع وما زال بي حتى خلق مني أديبا وشاعرا سامحه الله ، والحق أنني لا أدري أأحسن القدر أم أساءه أبي كان يحبب (دكنز) إلي ليصقل شعوري ويزرع في الإنسانية ويعلمني التامل والملاحظة ، أما دكنز فقد حبب إلي الأدب على الإطلاق أما (دافيد كوبر فيلد) فقد خلق مني شاعرا وجعلني أبحث لي عن (دورا) أخرى أشرب من عينيها خمر الحياة سامحه الله لقد عذبتني (دورا) هذه وشطرت روحي شطرين .

تلك هي أعماق المأساة . شاعر حالم ومعه مثل من أمثلة الخيال ، لا توجد على الأرض إلا قليلا دفعه الشوق إلى البحث طويلا حتى أرهقه التجوال فلما وجده أووجدها لم يستطع أن يستخلصها لنفسه فتضاعفت الأزمة وطال به العذاب.

(ولد ناجي ١٨٩٨ وتخرج في مدرسة الطب ١٩٢٢ وعمل في وزارات الصحة والمواصلات والأوقاف وتوفي في ٢٥ مارس ١٩٥٣ بعد أن ترك خدمة الحكومة بعام واحد قضاه مريضا عليلا)

---

(١) الشعر المصري بعد شوقي ح ٢

الباب الرابع

الفصل الأول :

بين رحلة السفر ورحلة الفكر

الفصل الثانق :

الملتقى الاسلامى فى بجاية

الفصل الثالث :

مسئولية الفكر المسلم فى هذا العصر

الفصل الرابع :

صلاة العصر فى قلعة بنى حمدان

الفصل الأول

بين رحلة السفر ورحلة الفكر

أدب الرحلة له شيء من الاستقلال ، وهو ذو طابع خاص تمتزج فيه آراء الكاتب وخلجات فؤاده بمشاهداته الكثيرة وما تتركه هذه المشاهدات من إنطباعات في نفسه . وهذا النوع من الأدب كثير في الأدب العالمي قديمة وحديثه . . وكثير أيضاً في أدبنا العربي منذ أن كتب بن بطوطة وابن جبير عن رحلاتهما وما شاهداه فيها من عجائب الكون إلى العصر الحديث مروراً بأحمد فارس الشدياق وأدباء المهجر وغيرهم من أدباء العربية كالزيات والرافعي والمنفلوطي وأحمد أمين .
ومن مفكرينا من يعطى أهمية خاصة لرحلات الفكر بين الكتب وعلى أجنحة الخيال أو في أعماق النفس وأهمهم الاستاذ عباس محمود العقاد ، ومنهم من لا يرى لهذه الرحلات الفكرية أهمية كبيرة ما لم تكن مرتكزة على رحلات واقعية ، وهذا رأى الدكتور طه حسين ..

كان للرحلة أثر بعيد المدى في الأدب العربي المعاصر ، فقد ظفرنا بتراث كبير من المؤلفات والكتابات التي سجلها عدد من الكتاب الذين أتيحت لهم الرحلة شرقا وغربا ، غير أن أغلب هذه الرحلات كانت إلى أوربا بالذات وكان أغلبها رحلات دراسة وطلب ، أما القليل منها فكان إلى الشرق الأقصى أو أفريقيا وكان من أجل الرحلة واكتشاف المجهول.

ولقد كانت الرحلة بعيدة الأثر في الأدب العربي المعاصر من ناحيتين : من من ناحية أن أصحابها قصدوا بلاد الغرب واتصلوا بحضارته وثقافته ، وحاولوا أن يقدموا لنا صوراً جديدة ومظاهر غريبة مما بهرهم من إتساع العمران وأساليب العيش الحديثة السريعة ، ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك محاولة دائبة لتصوير

هذه الرحلة بانها منطلق الفكر والثقافة . يتميز به الذين سافروا عن الذين لم تتح لهم الفرصة رحلة أو سفراً أو سياحة .

غير أن عدداً من نوابغ الأدب الحديث قد استطاعوا أن يصلوا إلى قمة الصدارة والإطلاع والقدرة على البحث والتفوق دون أن يرحلوا رحلة العلم أو رحلة السياحة الطويلة ومن أبرز هؤلاء عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازنى وأحمد لطفى السيد ومحمد فريد أبو حديد ومصطفى صادق الرافعى وعبد العزيز البشرى ومصطفى لطفى المنفلوطى وأحمد أمين . بينما لم تكن الرحلة موضع ازدهار وفخر إلا لعدد قليل من الكتاب هم محمد حسين هيكل وطه حسين وزكى مبارك وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الزيات وسلامة موسى .

ومن الحق أن يقال أن هؤلاء الكتاب الذين رحلوا رحلة العلم إلى أوروبا قد شاهدوا وكتبوا وقدموا كثيرا من خبرتهم وتجربتهم فالدكتور هيكل له فى أدب الرحلات كتاب معروف وهو (ولدى) وله رحلات أخرى كتب عنها فى السياسة . والسياسة الأسبوعية لم تجمع .

وللدكتور طه حسين كتابه (رحلة الربيع والصيف) وله كتابات موزعة على كثير من كتبه عن رحلاته إلى أوروبا . هذه التى لاتنقطع عاما بعد عام . وللزيات فصول متعددة عن رحلته إلى أوروبا وإقامته فى فرنسا . أما زكى مبارك فقد كتب كتابين: أحدهما (ذكريات باريس) والثانى (ذكريات بغداد) ولتوفيق الحكيم كتابه (عصفور من الشرق) وذكريات أخرى متعددة فى ثنايا مؤلفاته .

واذا ذهبنا نستقصى آثار الرحلة فى أدب الكتاب المعاصرين لوجدنا صفحات كثيرة وعرضا شاملا لآثار هذه الرحلات فى البلاد والعباد.

وهناك رحلات كثيرة قام بها الرحالة محمد ثابت وطاف بها معظم القارات.وهى أشبه بشريط تسجيلى وليست أدبا من أدب الرحلات الذى يستقصى خلجات النفس ، مشاعر الأمم وأحاسيسها.

غير أن كتابات الكتاب الذين لم يرحلوا رحلات طويلة فى سبيل العلم لم تخل

من حدیث عن رحلة أو أخرى هنا أو هناك . فلطفى السيد أشار فى مؤلفاته عن رحلاته إلى جينيف وأوروبا . ورحل العقاد رحلتين قصيرتين إلى فلسطين وجدة ونشر المازنى (رحلة الحجاز)..

ولقد كان للرحلات التى قام بها الأدباء فى عالمهم العربى وحده أبعد الأثر فى توطيد الروابط وتأكيد العلاقات . ومن هذه رحلات محمود عزمى إلى فلسطين وسوريا ولبنان . ورحلات الزيات وعبد الوهاب عزام إلى العراق . ورحلات هيكل إلى السودان . ورحلات المازنى إلى العراق والشام . ومن قبلها رحلات شوقى وحافظ.

ولقد حفظ الأدب العربى آثاراً حية لهذه الرحلات شعراً ونثراً ، ولقد كان لرحلات أدباء المغرب إلى المشرق أثر بعيد فى الأدب أيضا ، وكذلك كان لرحلات أدباء المشرق العربى إلى المغرب .

غير أن القضية التى مايزال يثيرها أولئك الذين لم يرحلوا إلى الغرب رحلة السفر ماتزال أيضا لها أهميتها وحقها من العرض والاستقصاء . فقد أنشأ هؤلاء مذهباً أطلقوا عليه رحلة النفس أو رحلة الفكر التى تغنى عن رحلة السفر والسياحة وتحقق نفس الغرض ، وقد دافع العقاد عن هذا المذهب دفاعا حارا .

ولما كان العقاد من أكثر الأدباء رغبة فى القبوع وزهداً فى السفر فقد كان من رأية أن الكاتب يستطيع أن يرحل بالنفس والعقل . يقول :

« أعتقد أن ملكة الرحلة غالبة على الرحالين وغير الرحالين ولكنها تظهر فى صور كثيرة غير صورة الرحلة الخارجية ومنها الرحلة إلى داخل النفس أو فى عالم الخيال .

« وبين كبار الرحالين من هذا الطراز ناس لم يفارقوا مكانا واحدا خلال عشرات السنين .

« ومن ذلك رحلة أبى العلاء المعرى رهين المحبسين فى رسالة الغفران .

« والظاهر — لا بل المحقق — أننى أنا أحد الرحالين بغير انتقال ، ومع هذا يحلو لى أن أقول أننى طفت العالم من مكانى الذى لا أبرحه لأننى رأيت من هـذا المكان مالا يراه الرحالة المتنقلون

« لقد تعلقت بالسياحة فى أوائل صباى ، وشاقنى أن أسيح هنا وأصبح هناك بين مشارق الأرض ومغاربها.

« ولكنها كانت كما تبين لى بعد ذلك عارضا من عوارض الصبا التى تنزوى مع الزمن وراء غيرها من الميول المتمكنة فى السليقة ، فما زالت تضعف حتى ليسعنى أن أقول اليوم أننى لولا رياضة المشى التى تعودتها لما خطر لى أن أبرح المنزل أياما بل أسابيع .

« ولذلك سبب منى وسبب من أحوال العصر الذى نعيش فيه فأما السبب الذى منى فبعضه يرجع إلى حب العزلة التى نشأت عليها وورثتها من أبواى .

« وبعضها يرجع إلى شعورى بالقراءة التى تغنينى ، فاننى أشعر بأننى لا أقرأ سطوراً على الورق ولكننى أحيا فى تلك الأوراق بين أحياء .

« ومن هنا ألفت بعض شيوخ التاريخ كأننى أعاشرهم كل يوم .

« وأما السبب الذى من العصر فذلك أن العصر الحاضر هو أول عصر يسر للإنسان وهو جالس فى مكانه أن يدرك بالبصر والسمع بلادا واسعة على مدى مئات الفراسخ أو ألوفها .

« كانت السياحة هى الوسيلة الوحيدة للإحساس بالبلاد البعيدة ،أما اليوم فنحن نحسها بالعين والأذن كلما أردنا ونحن فى الدار أو على مقربة من الدار.

« لن أنقطع عن السياحة فى العالم رحالة بغير رحلة وطوافا بغير طواف .

« لقد طفت بالعالم من مكانى » .

هـذه هى فلسفة رحلة الفكر ورحلة النفس — فهل هى موازية حقا لرحلة

السفر والسياحة ، وهل تستطيع حقا أن تكشف للرحالة ما يكشفه لقاء الناس ، ومشاهدتهم في أعمالهم وحياتهم وبيوتهم ؟ وهل تستطيع رحلة الفكر أن تكشف عن خفايا النفوس ، أو أعماق العواطف ، هذه التي لا تتم إلا بالمشاهدة والحوار والجلوس طويلا إلى الناس !

الحق أن الرحلة بالسياحة والسفر شيء مختلف كل الاختلاف عن رحلة النفس والفكر والكتب وأفلام السينما ومصورات الجغرافيا .

ومن هنا فقد كان لا بد لأصحاب الرحلة بالسياحة أن يواجهوا موقف «العقاد» ومن تبعه في هذا الرأي وأن يعارضوه وعلى رأسهم « طه حسين » أكثر هؤلاء عبوراً للبحر ورحلة إلى الغرب

ولقد انتهز الدكتور طه فرصة إخراج العقاد لكتابه (رحلة أبي العلاء) فكشف عن هذا الموقف . ذلك بأن العقاد طوف بأبي العلاء في أوروبا وعرض رأيه بما رأى هناك . وكيف يمكن للعقاد أن يعرف رأى أبي العلاء في طوافه بأوربا بينما لم يذهب هو إلى هناك .

يقول الدكتور طه حسين : وأن الأستاذ العقاد أراد أن يرتحل بأبي العلاء ، وأن يطوف به في أقطار الأرض فلم يصنع شيئاً وإنما ارتحل به في طائفة من الكتب التي قرأها وفي ألوان من العلم الذي أحاط به وفي فنون من الآراء التي اتقنها واستقصاها . ذلك لأن العقاد نفسه لم يرتحل ولم يطوف في أقطار الأرض وإنما إرتحل وهو مقيم وطوف وهو مستقر ، وعرف الدنيا وهو لم يتجاوز حدود مصر ، وهذه مزية من مزايا العقاد وفضيلة من فضائله ، ولكن الله لا يكلف الناس فوق ما يطيقون . وعند الأستاذ العقاد أدب وعلم وفلسفة ، فقد ملأ يديك أدبا وعلماً وفلسفة ولكنه لم يرحل إلى أوروبا ولا أمريكا فلا يستطيع ان يرحل بك ولا بأبي العلاء إلى أوروبا ولا إلى أمريكا ، أو ينزل بك وبأبي العلاء في ألمانيا أو في الروسيا وفي السويد والنرويج والدنمارك ، وفي بلاد الإنجليز وفي اسبانيا وفي أمريكا، ولكنه لا يريك من هذه البلاد شيئا ولا يظهرك ولا يظهر أبا

العلاء إلا على بعض ما عنده من آراء أصحابها وبعض سيرهم وينتهى بك إلى مصر ، قد رآها رأى العين ، فهو قادر على أن يعطيك منها شيئاً ، وهو أميز كل الأمكنة ، ولا يستطيع أن يعطيك من أوروبا ولا من أمريكا شيئاً لأنه لا يعرفهما ، لأنه لم يرهما رأى العين ، ولم يلم بهما إلا من طريق الكتب » .

***

وهكذا يبدو الفارق واضحا بين رحلة السفر ورحلة الفكر .

وكلاهما قدم للأدب العربى تراثا قيما وفصولا نافعة تكشف عن أثر الرحلة فى النفس الانسانية.

الفصل الثاني

الملتقى الاسلامى فى بجاية

كم من العبر والملاحظات والحقائق تتكشف سريعاً بين سمع الباحث وبصره حين يشهد مؤتمراً ضخماً يضم أكثر من سبعين عالماً وباحثاً ومحاضراً من الشرق والغرب ، من المسلمين والمستشرقين ، من المؤرخين والفلاسفة والفقهاء وعلماء الفن والأدب،مثل هذا الملتقى الاسلامى الثامن الذى عقد فى بجاية إحدى ولايات الجزائر خلال فترة مولد رسول الهدى بين أول ربيع وليلة المولد فى حوار دائم لم ينقطع فى الصباح والمساء فى أيام الرحلات والاقامة وفى المحاضرات والتعليقات بين جماعة صادقة جاءت كلها تنشد الحق وتقول الكلمة وتسمع وتضيف إلى ثقافتها الجديد وبالنسبة إلى رجل عاش أكثر من أربعين عاما بين المحابر والأوراق ، وبين المراجع والأبحاث كم كانت شيقة هذه الرحلة وتلك الندوة وكم أضافت من علم وفتحت من آفاق وقدمت من ثمرات علوم وحصيلة عقول .

١ — منذ اللحظة الأولى كنت أحس أن خبرات ضخمة سوف تتيسر للكاتب الباحث إذا استطاع أن يقتنصها ويفيد منها وما ظنك بجمع يضم مثل عثمان الكعاك مؤرخ الحضارة الإسلامية وهو قد جاوز السبعين ولكنه مازال مليئاً بالحيوية والتفتح ، وقد جاء من تونس بعد أن ولى خزانتها العامة أكثر من ثلاثين عاما وقرا وتابع خدادات وأضابير وأسماء لمئات الكتب التى ألفت فى الشرق والغرب عن حضارة الاسلام ، ومن أمثال محمد الفاسى المؤرخ المغربى الذى جاب بلاد العالم كلها يبحث وراء المخطوطات والتراث ، وعرف عشرات من الباحثين والعلماء واستمع إليهم وتحدث معهم . ومن أمثال هؤلاء الذين جاءوا من فرنسا والأندلس وجاءوا من الهند واليابان ، كل يحمل معه ثروته الفكرية وينثرها فى الحديث المنطلق وفى المحاضرة المضبوطة بالوقت المحدد وفى التعليق والتعقيب .

فهذا نجاة الله الصديقى من جامعة عليكره بالهند وهذا عبد الكريم سايتو

أستاذ الاقتصاد بجامعة طوكيو باليابان وهذه نخبة من رجالات الفكر والتاريخ والأدب من مختلف إجراء البلاد العربية لايحصيهم العد .

وها نحن نعيش فى أجواء عاش فيها ابن خلدون ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على والمهدى بن تومرت ونشاهد على الطبيعة تلك البلاد الجبلية التى قاتلت الفرنسيين طويلا حتى استخلصت حقها وقدمت شدائها ونجد هذه الروح السارية إيمانا وأصرارا وثقة باصالة الاسلام كطريق للحياة والنهضة والبناء .

٢ — ولن نعدم أن نجد هنا الحديث عن الشرق ورجاله فالشيخ محمد عبده الذى زار الجزائر عام ١٩٠٣ ما زال مذكورا ومازال مسجد القائد فى ضاحية من ضواحى العاصمة ويسمى (بى كود) حيث يقع المسجد فى زنقة ضيقة فى العاصمة عندما ألقى درسا فى تفسير سورة العصر ، والحديث عن ابن خلدون لا ينقطع بهذه أراءه يستشهد بها فى كل مجال ، وهذا مسجد القصبة فى بجاية حيث كان يلقى دروسه ، وهذا اسم أبو القاسم الزهراوى الطبيب الاسلامى يتردد ، فقدكان أول من أجرى جراحة المخ واستعمل المرقد (البنج) وهذا الدكتور سعيد شيبان يقدم لنا شريطا سينمائيا عن كتاب مرشد الكحالين لمحمد بن أسلم الغافقى وهو مصنف لطب العين من القرن السادس الهجرى مازال يثبت جدارة المسلمين ودورهم فى هذا المجال وكيف أن الطب لم يتقدم بعده إلا قليلا حتى الآن .

٣ — وقددار الحديث عن الأرقام الغبارية التى مازال المغرب يستعملها إيمانا منه بأنها أرقام عربية الأصل وقد أشار الأستاذ محمد الفاسى فى مسامرة طويلة إلى أن البيرونى هو الذى جاء بهذه الأرقام من الهند وان أراء البيرونى فى المشرق لم تلق من الأثر ألا القليل وعلى العكس فى المغرب والأندلس .

٤ — واتصل الحديث بالتراث فسمعنا عجبنا فقد أشار الأستاذ محمد الفاسى أن أهل المغرب عندما دخل الاستعمار الفرنسى وأحسوا كيف تتعرض مخطوطاتهم وتراثهم إلى النهب أن أقاموا حوائط على الخزائن تصل إلى السقف وتعزلها تماما

عن البيت وذلك حتى لا تكون عرضة للنهب والسرقة والاغتصاب .

ولقد اكتشف هذه الخطة عندما ذهب ليتسلم المخطوطات التى كانت مدخرة فى مكان ما وتبلغ اثنى عشر ألفا من الكتب ، فلما سأل عنهـا وكان الوقت مساء ، قالوا أن تسليمها مستحيل الآن ولا بد أن يكون فى الصباح حتى يأتى (البناء) ولماذا البناء ! : قالوا لان هناك حائطا يفصل الخزانة عن البيت حتى ولو كان معك مفتاحها :

٥ — أما شيخ المؤرخين عثمان الكعاك فان حديثه طلى ومدخراته واسعة لا تنتهى ، وتمضى ، الساعات دون أن تشبع مما يروى ودون أن يكف هـو عن العطاء ولقد كنت عرفته من الأبحاث وكتبت عنه فصلا مطولا فى كتابى (الفكر والثقافة فى شمال أفريقيا) فلما لقيته وجدته أكبر مما كنت أظن وأروع .

حقيقة أنه عالم بحق جدير بأن يصفه (مولود قاسم) بأنه شيخ المؤرخين ولكنى أضيف إلى ذلك وصفا آخر ، هو أنه أقدر المؤرخين المعاصرين فى مجال الحضارة الإسلامية : القدرة على التفاصيل الدقيقة ، والمعطيات المنوعة ، الرجل الذى لا يمكن أن يكون هناك كتاب هام قد وضع عن الحضارة الإسلامية فى الغرب دون أن يطالعه أو يعرف مضمونه .

٦ — كانت أكبر معطياته التى قدمها قصة الألف برج من الاسكندرية إلى الدار البيضاء (ابراج المرابطين) على مسافة ستة آلاف كيلو متر على ساحل البحر الأبيض ، هذه التى كانت عامرة بأولئك المجاهدين الذين يرصدون الساحل الشمالى ومعهم أدواتهم فى التبليغ عن الخطر فى أبانه ، ومعهم مع ذلك عملهم من نسج الكتب والكتابة والعبادة وغيرها .

فقد كانت هناك قصة طويلة . قصة المغامرة والانتهاب حين كانت أوربا تغير على موانىء المغرب كله وكان المغرب صامدا لذلك قادرا على رد العدوان .

ولقد كنت أسأله عن الخسارة التى فقدناها بضياع الكتب الاسلامية التى وضعها التتار فى نهر دجلة وعبروا عليها وتلك التى حرقها الكاهن المسيحى فى ميدان طليطلة فأشار إلى أن ذلك لم يحقق خسارة ما ، ذلك أن هؤلاء الألوف الذين كانوا يقيمون فى الرباط كانوا يتداولون نسخ الكتب الاسلامية فلم يكن كتاب ما إلا وقد نسخ منه عشرات. وعثمان الكعاك شأنه شأن كل كتاب المغرب ورجاله يفخرون بابن خلدون ويستشهدون به ولقد كان سؤالى عما إذا كان يرى ما يراه ساطع الحصرى وعلى عبد الواحد وافى من أن ابن خلدون حين ذكر العرب فى المقدمة كان يقصد الاعراب وضحك المؤرخ الكبير . وعجبت لذلك ولكنه سرعان مازال عجبى عندما قال لى .

٧ — أن الفرنسيين بعد احتلال الجزائر وحوالى عام ١٨٤٧ سارعوا إلى ترجمة مقدمة ابن خلدون (١) واقتنصوا منها هذا النص وأذاعوا به وجعلوه سلاحا خطيرا فى التفرقة بين المغاربة عربا وبربرا وتلك كانت خطتهم ولكن الأمر لم يلبث طويلا حتى اكتشف المسلمون أنهم ليسوا بحاجة إلى مثل هذه المؤامرات للفصل بينهم ذلك أن وقائع التاريخ وأبحاث المؤرخين وعلماء الآثار لم تلبث إلا قليلا حتى أثبتت أن كل هذه الشيع التى تعلق بها الاستعمار سواء فى المغرب أم فى مصر أم فى سوريا أم فى العراق ، كلها عربية قادمة من جزيرة العرب .

هؤلاء البربر ، الفراعنة ، الفينيقيون ، الاشوريون ، ألخ .

وأن ابن خلكان أشار من قبل إلى أن البربر عرب عارية من القحطانيين وأنهم من جنوب اليمن وقد بين (بروكلمان) أن شمال اليمن كانت مغمورة من أعلاها بالثلوج الدائمة ، فلما رجعت تلك الجبال عن القطب صار اليمن بلاد العرب المتحجرة وعبر اليهود إلى مصر وهذا سر تسميتهم ، والبربر انتقلوا إلى شمال أفريقيا

(١) دوسلان هو أول من ترجم ابن خلدون .

وإلى الجزائر ، والفينيقيون ذهبوا شمالا والأشوريون ذهبوا إلى العـراق، هكذا تقول النظريات الإيطالية والغربية ـ فهم عرب ولا يريدون أن ينبوا إلى غير العرب والحقيقة أن العناصر التي تسكن شمال أفريقيا تسمى (أمازيغ) أما من سماهم بالبربر فهم اليونان باعتبار أن كل ما ليس يونانى فهو بربرى ، فلما جاء الرومان ساروا على هذه الوتيرة فقالوا : (جرمان وما حولهم بربر) والبربر يعرفون من أين تؤكل الكتف فهم أمازيغ ، عظماء ، من جزيرة صقلية ، من المرسى الكبير الذى نزل به أسد ابن الفرات جاء الفينيقيون ، لأنهم وصفوا الأول مرة فى التاريخ بالعظمة البحرية ولما احتاج الفينيقيون إلى الخشب الذى يصنعون منه سفنهم جلبوه من لبنان وجاء عقبة ابن نافع عام ٥١ هجرية وأول قبيلة عربية لا يزال أسمها قائما وهى قبيلة (بشر بن عوانه) ولم يأت آخر القرن الأول حتى أسلمت البربر وأسلم المغرب عن بكرة أبيه .

٨ — وأشار عثمان الكعاك إلى أمرين من آثار عظمة الحضارة الاسلامية هما جديدان بالنسبة إلى أولهما : أن المدفع ظهر أول مرة بين المسلمين ولم يظهر بين الانجليز والفرنسيين .

فقد اخترعته صنهاجة فى مدينة المهدية يوم هاجم النورمان من جزيرة صقلية مدينة المهدية فقد أراد الأمير الصنهاجى أن يضرب النورمان بالضربة القاضية أو بالقوة الصاعقة فأسس دار الكيمياء وجلب البارود وطبقوه على جعبة لها عجلتان وجعلوا شيئا من الصوف سريع الالتهاب وواجهوا بها النورمان فى جزيرة قورية (بين المانستير والمهدية) ففر النورمان .

وقد ذكر ذلك ابن خلكان وابن الأثير وابن خلدون .

وجاء فى ديوان ابن حمديس وصفا لواقعه (رأس الدماج) هذه .

ثانيا : إنشاء العرب للخطاف الذى تنتقل به إلى المراكب وإنشاء السلم الخشبى،

كذلك صنع العرب الشراع المتحرك بعد أن كان الشراع ثابتا فى المركب وقد أعانهم هذا على السير فى عكس اتجاه الريح والتيار بعد أن لم يكن ذلك ممكناً من قبل .

٩ ـ وامتد الحديث عن المسلمين فى المغرب وعن شبهات الاستشراق وخاصة فيما يدور حول كلمة البربر و بربرست وقال كلمة الفصل وزير الاسلام : مولود قاسم المشرف على الملتقى الاسلامى .

قال : أن البربر كانوا يسمون أنفسهم (الأمازيع) أى الرجال الأحرار أما كلمة بربرست فهى آتية من لفظة أفرنجية أطلقت على (خير الدين) الذى أنقذ المغرب كله وربما أنقذ المشرق ، كان خير الدين له لحية حمراء فقال عنه الأفرنج خير الدين برباروس أى صاحب اللحية الحمراء ومن هنا جاءت الكلمة ثم سميت الدول المغربية (ليبيا وتونس والجزائر) باستثناء المغرب لأن الله نجاها من الاحتلال أى الدول التى دخلها خير الدين باسمه فقد كانت ليبيا وتونس والجزائر تحت نفوذ خير الدين الذى أنقذها من الاحتلال الأسبانى إذ ذاك فقد احتل المرسى الكبير فى وهران واحتل المدن الساحلية كلها التى بقى فيها الاحتلال .

الفصل الثالث

مسئولية المفكر المسلم فى هذا العصر

لاريب أن هذه التجمعات الفكرية الاسلامية التى تتصل اليوم وتتشكل فى مكة المكرمة (رابطة العالم الاسلامى) وفى القاهرة : (مجمع البحوث الاسلامية) ، وفى الجزائر (الملتقى الاسلامى) وفى طرابلس الغرب (مؤتمر الدعوة الاسلامية) لاريب ستكون بعيدة الأثر فى إعادة بناء الفكر الاسلامى من جديد وتحرير قضاياه وتصحيح مفاهيمه .

وإن الأنطباع الذى يملأ النفس اليوم هو أن العالم الاسلامى قد أصبح يبحث عن ذاته فى قوة ويستطلع الآفاق المحيطة به فى فطنة ، وتلك مرحلة متقدمة عما كان منذ سنوات ، وهى علامة على تزايد الوعى بالمسئولية وتقدير التبعة الملقاة على عاتق المفكرين والنخبة المتقدمة .

وبقى أن يتبع ذلك توا : دخول المسلمين مرحلة الارادة بالتطبيق ، فقد وعى المسلمون اليوم دورهم وذواتهم ومسئوليتهم وعرفوا خطر الجمود وخطر الاندفاع فى نفس الوقت ، وما هذا الاختلاف فى وجهات النظر إلا نتيجة تعدد الثقافات التى فرضت على المسلمين من قبل ، وكان القصد منها الحيلولة ، دون قيام وحدة فكر وأصالة فكر ، ولكن مثل هذه الملتقيات قادرة على أن تبدد الظلمات وتكشف الحقائق ، وتقرب وجهات النظر حين تلتقى حول المصدر الأصيل للفكر ، وهو الاسلام والمنبع الأول للثقافة وهو القرآن . فقد آن للمسلمين أن يلتقوا حول تقدير واضح كاشف هو أن يقيموا قاعدتهم الصلبة الثابتة المكينة أولا قبل التفتح حتى لايؤدى التفتح إلى الانحراف والتجاوز ، وأن يقيموا وحدة الفكر فى أصوله وقواعده الكلية قبل التكيف ، حتى لايؤدى التكيف إلى فقدان الذاتية والأصالة جرياً وراء الأهواء المضلة والمذاهب المختلفة .

ذلك أن مسئولية المفكر المسلم هى مسئولية الرائد الذى يكشف الطريق أمام الجموع المتدفقة بما يملك من ضوء يضىء ومعرفة للمنحنيات والمفاوز ، واذا كان الاسلام قد طالب المسلمين جميعاً بان يتفكروا فأنما وسد لهم السبيل إلى ذلك وأقامه وأمنه ثم جعل المفكرين المسلمين ورثة التراث ، ينبعثون على رؤوس الأجيال ، يجددون هذا الفكر . بأن يخلصوه من الجمود الذى يرين عليه ويدفعونه قادراً على أداء دوره فى التلقى والعطاء ، فى مختلف الأجيال والبيئات ، محررين إياه من أخطار التبعيه والتقليد فى نفس الوقت الذى يلتمسون به المنابع والأصول

فالأسلام قد أعطانا تلك الأصول والضوابط التى تجعلنا قادرين دوماً على التجدد ، دون أن نفقد الأصالة ، وعلى التقدم دون أن نفقد المنابع ، فقد أقام لنا ثوابت أساسية ، ثم دعانا إلى التحرك من داخلها فاذا جاوزنا ذلك واجهنا خطر الأنحراف والجمود .

يقول الوزير مولود قاسم فى الملتقى . « لقد آن الوقت للمفكر أن يخرج من برجه العاجى وألا يقف مكتوف اليدين سلبياً يوافق دائما ويصفق ، ويتوارى وينمق ، ويمدح ويزوق ، عوض أن يصدع برأيه ويحلق ويؤثر ، ويفحص قبل أن يؤشر ، ويجاهر ويظاهر ويصرح ولا يلمح ليؤدى أمانته ويبلغ رسـالته ، ويضطلع بمسؤولياته كاملة ، وهو الذى ينبغى أن يكون أكثر من غيره على الحق أحرص ، وقد روى فى الحديث أن الساكت عن الحق شيطان أخرس . .. »

وقد دعت اللجنة التى ناقشت الأبحاث المقدمة فى هذا الشأن إلى التحرر من التبعية الفكرية الأجنبية فى ميدان الدراسات الاجتماعية والانسانية عامة ، تلك التبعية التى اصطبغت بها الجامعات فى البلاد الاسلامية ، وتوجيه هـذه الدراسات النظرية فيها والتطبيقية إلى صميم المتغيرات الاجتماعية التى يمر بها مجتمعنا اليوم كما دعت إلى وضع فلسفة تربوية ترسم فيها الأهداف الأساسية الصالحة لاعداد المواطن المسلم .

ولقد أتيح لى أن أشارك فى هذا المجال حين أجبت على التسائل الذى يقول : من هو المفكر ؟ ومن الحق أن يقال : ان المفكر هو الماضم لكل [illegible]رات التخصص المحول لها إلى رؤية جديدة : ذلك أن نظرة المؤرخ فى ذاتها نظرة [illegible]زئية وليست

شاملة لأنها ترتبط بعنصر واحد هو الماضى ، كذلك : فان نظرة الفيلسوف نظرة جزئية لأنها ترتبط بالفروض التى تحاول أن ترسم المستقبل ، ونظرة العالم التجريبى هى جزئية أيضاً ، لأنها تتصل بجانب واحد من جوانب الفكر هو العلم ، كذلك نظرة السياسى والاجتماعى والاقتصادى والتربوى والقانونى وهى جميعاً حين تلتقى عصاراتها وتجاربها فى عقل المفكر وبصيرته تشكل ذلك الشكل الجامع الذى دعا اليه الإسلام ، دون أن يكون لأحد هذه العناصر استعلاء ما ، أو سيطرة خاصة ، ولقد إتسم الفكر الاسلامى بالتكامل وحمل الاســلامى المفكر المسلم مسئولية أمانة التوجيه والريادة ، فالرائد لايكذب أهله ، والعلم ليس حكراً ولكنه ينفق ويبذل ومن كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار ، وفى مجال الفكر الاسلامى تلتقى المعرفة والثقافة والعقيدة كل فى مكانها الصحيح وتتحرك كلها من داخل إطار التوجيه : فالمسلمون لايعرفون لهم ثقافة منفصلة عن فكرهم ، ولا علماً منتزعاً عن قاعدتهم. ولا بد أن تتلاقى تلك العناصر جميعاً ، كما تتلاقى الأجزاء فى الشكل الجامع متكاملة متوازنة متوائمة تهدف فى مجموعها إلى رعاية هذا الأنسان الذى صنعه الله من روح ومادة ، ، فجمع فيه العقل والروح ، ووجهه إلى العمل للدنيا والآخرة .

ومن هنا فلم تكن (النظريات الفلسفية) إلا وجهات نظر لمفكرين متقدمين على عصرهم وأجيالهم ، فهى ليست علماً على الحقيقة لأنها لاتقاس بمقياس المختبرات ولا تخضع للتجربة.

ونحن نعرف أن الفلسفة الحديثة كانت تتطلع إلى بناء أيديولوجية بشرية ، تحل محل الدين الذى أزاحته من طريقها ، فذهبت الرؤى بالفلاسفة إلى الحرية والفردية تارة ، وإلى الجماعية والتقنينية تارة أخرى ، وإلى الوجودية أو المادية ... ثم بان بعد فساد ذلك كله وفشل ذلك كله : فقد عجزت الفلسفة أن تقدم نموذجاً صالحاً يعطى سعادة الجماعة وأشواق الروح ، ويحل محل الدين : ذلك أن الفلسفة دخلتها أهواء النفس ومطامع الرغبات ، فلم تلبث أن جددت الفكر البشرى القديم ، الذى جاء الاسلام ليحرر الإنسانية منه ، ويضعها أمام مســئوليتها الفردية والجماعية ، والتزامها الأخلاقى وأمانتها فى الدنيا بالسعى ، وفى الأرض بالتعمير . وفى الآخرة ــــزاء .

ولقد تراوحت الفلسفات بين النظرة العقلية والنظرة الوجدانية ، وبرزت من وراء ذلك فلسفتان إحداهما حدسية شرقية ، عرفت بالغنوصية فى الشرق والأخرى عقلية اكتسبت طابع العلم عرفتها اليونانية من قبل ، ثم تعالت صيحتها فى الفكر الغربى الحديث . وقد تجاوزت كل منها حقها وقدرها ، وبقى الاسلام بمنهجه الأصيل فى المعرفة ، جامعاً بين العقل والوجدان ، متكاملا بين الروح والمادة .

ولقد مر الفكر الاسلامى خلال فترة اتصاله بالفلسفات القديمة باستعلائين : أحدهما : نحو العقل بالمعتزلة والآخر نحو القلب بالتصوف ، وكلاهما عجز بمفرده عن أن يعطى الفكر الاسلامى غايته الأصيلة وتكامله الجامع ، ومن ثم فقد سقطت التجربتان حين تجاوز كل منهما حده الطبيعى ، وحين استعلى بنفسه . فالعقل البشرى مصباح ، ولكنه لا يضىء إلا إذا استمد نوره من عطاء الوحى ، والعلم عطاء ولكنه لابد أن يتحرك فى إطار العقيدة والتقود خادماً للإنسانية ، وليس مسيطراً عليها طاغيا ومدمراً ، وهو إلى ذلك ليس أداة انحراف فى الأخلاق أو اباحية فى المجتمع على النحو الذى حاولت الحضارة الحديثة أن تجعله كذلك .

وبعد فإننى أعتقد أن الملتقى فى الجزائر قد استطاع أن يلقى الضوء الكاشف على كثير من جوانب هذه القضية وأنه وضع الفلسفة الغربية بالنسبة للفكر الاسلامى فى مكانها الصحيح ، من حيث أنها مرحلة قد أوفت على غايتها على النحو الذى وقع بعد مساجلات القرنين : الثالث والرابع ،عندما ترجمت الفلسفة اليونانية وأعتقد أننا الآن بسبيل انتقال واضح وصحيح نحو مرحلة جديدة هى مرحلة . « قرآنية الفكر الاسلامى »

ونحن نعرف أن حركة اليقظة الاسلامية قد قامت فى قلب الجزيرة العربية فى العصر الحديث بالدعوة الى التوحيد مما أطلق عليه من بعد (الحركة الوهابية) ثم توالت مراحل هذه الحركة السنوسية والمهدية فى أفريقيا ، وحركة أحمد نعمان الشهيد فى الهند ، وكان ذلك مقدمة لمرحلة الكلام الجديدة الذى قام على الفلسفة والمنطق والذى حمل لواءه : جمال الدين ومحمد عبده واقبال وغيرهم رحمهم الله ، ثم انتقلت حركة اليقظة من بعد واتسعت آفاقها حتى شملت المغرب كله ، بما أذاعه الدكالى وكانون ومحمد بن على العربى وعبد الحميد بن باديس ، وقد أدى هذا الدور

الكلامى والفلسفى دوره تماماً من حيث كان منطلقاً إلى مرحلة جديدة هى مرحلة (النهج القرآنى) الذى توالت علاماته على يد الجيل الذى تلا هؤلاء الرواد وفى مقدمتهم حسن البنا والمودودى والندوى والذى يتمثل اليوم فى كتابات عدد من الأعلام بحيث يمكن القول اليوم أنه أوفى على الغاية وأصبح من الضرورى أن يواكب هذه المرحلة القرآنية الجديدة إعلان طابع الأصالة الراشدة للفكر الإسلامى الذى أخذ يستمد منهجه ومنطقه وسلاحه فى مجال الحوار والجدل والاقناع من القرآن نفسه على نفس الطريق الذى عرفته التجربة الاسلامية الأولى بظهور الغزالى وابن تيمية رحمهما الله .

وأعتقد أن المفكرين المسلمين أخذوا يدرسون الاسلام بمنهجه الأصيل بعد أن تبين أن المناهج الأخرى التى حاولت أن تدرس الاسلام قد حجبها عن الرؤية المتكاملة والنظرة الأصلية تصور هذه المناهج وجزئيتها وانشطارها ، وكيف يدرس الفكر المتكامل بالمنهج الجزئى ، وكيف يستطيع المذهب الانشطارى أن يكشف الفكر الجامع ؟!

الفصل الرابع

صلاة العصر

في قلعة بني حماد

عندما وصلنا إلى قلعة بنى حماد كان وقت العصر قد آذن ، فكان لا بد أن نحتفظ بهذه الذكرى التي لا نظن أنها ستتكرر مرة أخرى لرجل جاء من المشرق ليشارك فى الملتقى الاسلامى الثامن الذى عقد فى ولاية بجاية وكان من أهدافه دراسة مساهمة بجاية الحمادية فى الحضارة والفكر الاسلاميين ، ولذلك فما لبثنا أن أقمنا صلاة العصر على هذه الربى بينما كان زملاؤنا يقتحمون القلعة ويصعدون إلى منارتها العالية وكنا قد انطلقنا منذ الصباح الباكر إلى هذه الرحلة فوصلناها بعد مشقة شديدة قريبا من الغروب بعد أن مررنا بمدينة سطيف وتناولنا الغذاء عند عائلاتها .

ومن الحق أن يقال أننا فى كل خطوة كنا نخطوها كنا نجد معالم التاريخ الحافل ونستمع إلى خيوط من تراث عزيز طالما قرأنا عنه فى الكتب وها نحن نراه اليوم واقعاً حياً .

وفى الطريق إلى قلعة بنى حماد مررنا بذلك الوادى المخيف الذى يطلقون عليه (وادى الآخرة) وذلك حتى لا ينزعج الناس إذا أطلقوا عليه (وادى الموت) .

فقد كانت جباله العالية وخطوط طريقه المتعرجة وأغواره العميقة تملأ النفس حقاً بالخوف والعجب لهذه المنطقة الحافلة بكل عوامل الخطر وتبارك الله رب العالمين الخالق الذى جمع بين الجبل الأشم والوادى العميق والصخر الأحمر والأرض السندسية الخضراء .

ولقد كانت هذه الصورة غريبة حقا على أمثالنا ممن عاشوا فى الوادى الأخضر لا يقتحمون الجبال إلا نادراً ، أو إذا مروا بها وجدوها جرداء مقفرة لا نبت فيها ولا ماء ، أما هنا فى الجزائر فالأمر جد مختلف ، هذه الجبال العالية خضراء جد مزدهرة ، ومن حولها الأودية كالبساط الزاهر ، ومن حول ذلك كله غابات وأشجار ومياه وعيون وصدق الله العظيم : « وإن من الحجارة لمـــا يتفجر منه الأنهار » .

وفى ظل قلعة بنى حماد يكشف التاريخ الاسلامى صفحة من أزهى صفحاته عندما كان حماد بن بولغين حاكما للمغرب الأوسـط باسم دولة بنى زيرى ، منذ عام ٣٩٨ هجرية ثم بنى هذه القلعة واتخذها عاصمة للمملـكة وقد تم هذا فى نهاية القرن الرابع وقد ظلت هذه المدينة عاصمة للمملـكة الحجازية زمنا كانت خلالها أهم مدينة فى المغرب كله واليوم يجرى إصلاح هذا البرج الضخم وترميمه حتى يكون آية من آيات الفن المتجدد الذى يجرى بالنسبة لكل تاريخ هذه البلاد وآثارها .

وسواء ذهبنا إلى آخر هذا الطرف حتى سطيف أو ذهبنا إلى وادى الصومام من الطرف الآخر فان مناظر الازدواج بين الجبال والبحـر والوادى الأخضر متفرقة وملتقية متعانقة ومنفصلة هى طابع الرحلة .

أى روعة تلك فى هذه المناظر الخلابة فى بطن الوادى وقد تدفقت الأمطـار فوق الجبال وأخذت تتسرب من خلال فتحات ومسارب ما تزال تتقاذفها منحدرة إلى الوادى حتى تصل إلى نهر الصومام فاذا هو بعد قليل يفيض ويمتلىء بالمياه الحمراء المتدفقة فى طريقها إلى كل مكان وهى تحمل الغرين الأسود .

حقاً لقد كان يوما حافلا عندما انطلقنا تجاه وادى الصومام بالحافلات الضخمة وأخذت السماء تمطر فى غزارة . ولـكن الجو كان دافئا ولقد ظلت الحافـلات تصعد بنا فى طرق ممهدة ولـكنها حلزونية حتى وصلنا إلى ارتفاع ألف متر فوق سطح البحر وما تزال الجبال فوقنا شامخة . ومن الجبل إلى السهل ، فالسهل فى قلب

الجبل ، والجبال مخضرة مليئة بالغابات ، وقممها شامخة بيضاء كعمائم العرب وقد كستها الثلوج ، مجموعة من السلاسل المتداخلة من الجبال بينها الوادى الأخضر ، ومجارى النهر ، ولقد ترى وأنت فى أعلى قمة الجبل واديا منخفضا أمامك ثم ترى الجبال العالية الأخرى من بعدها محيطة بك من كل جانب .

ولقد فرح بنا الذين زرناهم وهللوا وكبروا لله ، فقد حمل إليهم ضيوف ملتقى الاسلام الرحمة ممثلة فى المطر والغيث الهمام .

ولقد كان نهر الصومام مرافقا لنا طوال الرحله فهذا هو وادية الواسع ، نراه ثم يختفى ثم يعود ثانية ، كان فى الصباح ضحلا تبدو صخوره وأحجاره ، فلما عدنا فى المساء كان قد امتلىء بالماء وأزبد فى قوة ، لقد تلاقت العيون المتدافقة من أعلى الجبال فى مسارب متعددة ثم اختفت تحت الطريق الذى تمر عليه الحافلات فاذا بها تتجمع فى رواق أكبر وأكبر جياشة بالمياه الحمراء ، حتى بلغت النهر نفسه الذى دبت فيه الحياة وجاشت وعلا موجه وزبده وهديره فذكرنا قدرة الله القادر الذى أحيا الأرض بعد موتها ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وما رأيت كيف تفسر هذه الآية إلا فى مثل هذا المنظر الباهر الذى لا نعرفه نحن فى المشرق أو فى مصر على الخصوص : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا » لقد جرف السيل أمامه كل شىء وجاء رزق السماء واسعاً وفيرا وامتلأت قلوب أهل وادى الصومام بالفرحة التى جاءت مع وفد الملتقى الاسلامى .

كانت هذه الصورة خارج الحافلة ، أما فى داخلها فقد كانت حلقة علم وتاريخ تترامى فيه أسماء الأعلام ووقائع الأحداث كلما مررنا على موقع منها مشخصا أمامنا يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على وابن تومرت ، وفى ملاله حيث التقى عبد المؤمن مع ابن تومرت فكان منطلق الدولة الموحدية وفى صدوق مسقط رأس الشيخ الحداد الذى قاوم الاستعمار الفرنسى وفى أفرى حيث انعقد مؤتمر الصومام ١٩٥٦ ، كان هناك أعلام فى تاريخ الجزائر والمغرب كله فى مقدمتهم شيخ [illegible]

المؤرخين ومؤرخ الحضارة الإسلامية على الخصوص : عثمان الكعاك ، ومحمد الفاسي صاحب الأبحاث الواسعة عن أحداث المغرب القديم والوسيط وكان أبرز المتحدثين هو المهدى بو عبدلى هذا الرجل الذى كان يتحدث عن هذه البلاد وكان عاش تلك الفترات عارفا برجالها وما ورد فى الكتب عنها وما نشر فى المغرب أو المشرق ، والشيخ سليمان داود بن يوسف الذى كان يعرض من الجوانب ما يكشف عن أعماق التاريخ وكان هناك مولود قاسم نفسه هذا الوزير العلامة حقا ، الذى كان يصحح ويدقق ويستكمل الجوانب من كل ما يعرض وما يقدم وكان الأستاذ مصطفى بعيسو الوزير المؤرخ الليبى ، وكان الشيخ عبد الله الشماخى القاضى اليمنى فكاهة الندوة ومجلاها فى الشعر والأدب أما مفدى زكريا شاعر الثورة الجزائرية فكان يذكرنا بشعره الرصين دوما بتلك المواقف الحاسمة من جهاد الجزائر ولقد حدثنا الوزير مولود قاسم عن ثورة الشيخ الحداد : هذه الثورة التى استمرت إلى عام ١٩١٠ ، وكان الشيخ الحداد فى الثمانين من عمره وقد جاء إليه محمد المقرانى الذى قاد الثورة المسلحة ووجد فى الشيخ سناده الروحى حيث كان الحداد شيخ الطريقة الصوفية الرحمانية مقيما فى زاويته ، قال المقرانى : جئنا لنعلن الجهاد على فرنسا . قال الحداد : أن الأمر يتطلب إعداداً واستعداداً . قال المقرانى : بل فى الحين ، فوافق الشيخ على مضض وقال : إن دعوتك هذه مشؤومة ، ولكن سنقوم بها ، وقد كان المقرانى يظن الشيخ الحداد من أولياء النعمة والمطمع على النحو الذى عرف عن بعض رجال الطرق غير أنه لما أزاح الشيخ الغطاء عن الطعام الذى قدم له لم يكن فيه غير زيت وجبن وشقة خبز ، وكان هذا كل ما يأكله الحداد ، هناك تبين المقرانى أن الحداد ليس رجل دنيا ، واندلعت الثورة وأعلن الجهاد (٨ أبريل ١٨٧١) ولما قدم للمحاكمة صدر الحكم عليه بالسجن خمس سنوات فقال : أنتم حكمتم على بخمس سنين وأنا حكمت على نفسى بخمسة أيام ثم مات بعد الأيام الخمسة ودفن فى قسنطينة حيث دفن بجواره الامام عبد الحميد بن باديس .

ولقد أشار الوزير مولود قاسم بعد أن استعرضت ندوته الحافلة تاريخ بجاية وسبب سقوط دولتها : إلى مضمون هام هو غاية القول فى سقوط الحضارات . قال لقد ذكر ابن خلدون بكل وضوح الأسباب التى مهدت لانهيار دولة بنى حماد وهى

نفس الأسباب التى وقعت بالنسبة لدولة المرابطين وبقايا الزيريين فى تونس ونفس أسباب سقوط الموحدين ، وهى نفس الأسباب التى قضت على الدولة الفاطمية والعباسية وبابل وأشور وقرطاجه وأثينا .

هذه الأسباب هى الانحلال الذى يعقبه الاحتلال مستشريا وكيف كان النساء يتصرفن فى شؤون الدولة وكان الرجال قد تخنثوا ، يخرجون للصيد ويستمعون للموسيقى . غناء وحداء بشعره وحده وما شابه ذلك . هذا هو الوضع الذى كانت فيه دولة الحماديين ، وهذا هو الوضع الذى كان عليه الموحدون بعدهم .

هكذا انقلبت الأوضاع وانعكست وهذا يؤدى إلى النتيجة المحتومة . لقد تأنث الرجال واسترجلت الأميرات وكان ما كان ، وإن كان ليس من الضرورى أن يعيد التاريخ نفسه تماما ، فعلينا أن نستفيد من ماضينا وماضى الأمم ، وإن كانت قد بنت قبل أن تلهو فإن خراب بنائها يعاقب اللهو مباشرة . وتنقل هذه المناقشات الجادة المثرية مضت ساعات طويلة بين بجاية ووادى الصومام مرة وبين بجاية وقلعة بنى حماد مرة أخرى واتصل هذا بالنقطة الثالثة من مواد الملتقى الاسلامى الثامن التى أكدت على دور (بجاية) الحمادية فى الفكر والحضارة الاسلاميين والعالميين وأسباب وآثار انحطاطهما . وتلك سنة طيبة أسنتها وزير الاسلام فى مختلف المؤتمرات وهو التركيز فى نقطة هامة من النقط على ولاية من ولايات الجزائر . ومن قبل تناولت الأبحاث قسنطينة وتيزى أوزو ووهران ومن بعد تتركز الابحاث على « تلمسان » ومن خلال هذا يثرى البحث العلمى تاريخ الجزائر كله بهذه الدراسات المكثفة وقد وزع علينا هذا الكتاب التاريخى المصور الانيق عن بجاية الذى آثار الانتباه حتى سألنى زميلى الصحفى الاستاذ صبرى أبو المجد عما إذا كان لدينا فى القاهرة متخصصون على هذا النحو :

ولقد كانت هذه هى زيارتى الاولى للجزائر بعد إن عشت معها بالعلم والقلم والقلب سنوات الكفاح الطويلة وسنوات الثورة الظافرة .

ولا ريب كانت دعوتى لزيارة الجزائر مصدر فرحة روحية كبرى وكنت عشت هذه الملتقيات الإسلامية من قبل بالروح والفكر فقد أتيح لى أن أطالع ما نشر من مناقشات ومحاضرات وعرفت كيف تقدم إلى الفكر الاسلامى إضافات ذا بال ستكون بعيدة الأثر فى دراساته ومفاهيمه . وقد كان قلبى يخفق وأنا فى الطائرة إلى الجزائر بحب عدد من الأعلام الذين عرفتهم وأحببتهم وتعلمت عنهم من أمثال الإمام عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الابراهيمى ومالك بن نبى والفضيل الورتلانى وكنت قد درست الحياة الثقافية فى المغرب العربى كله (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) حينما ألفت كتابى (الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال أفريقيا) منذ بضعة عشرة سنة ودرست جهاد جمعية العلماء وفى مقدمة رجالها ابن باديس والابراهيمى والمدنى والميلى والتبسى وغيرهم من الرواد وأن حز فى نفسى أن جريدة الشعب تجاهلت موضوعى الذى قدمته إلى رئيس تحريرها بمجرد أن وطئت قدماى أرض الجزائر تحية للجزائر والملتقى، ولست أدرى لذلك سببا وضحا .

نعم لقد وصلنا إلى الجزائر ومنها قصدنا إلى بجاية ومن خلال رحلة الطائرة كان البحر الأبيض مصاحبا لنا فى نتوئه وشواطئه وجباله على نحو يسعد النفس ويملأ القلب فرحة لامتداد ذلك الشاطىء الاسلامى حيث يلتقى الجبل بالبحر والسهل بالصخر ، وحيث الجبال العالية مكسوة بالخضرة الدائمة والأشجار الباسقة .

لقد عشت فى هذه الأيام رحلة الفكر وعبرة التاريخ وصورة الحاضر، ووجدنا الجزائر تبنى حياتها من جديد فى نشاط وعزيمة قوية وتتحرك نحو النهضة والتقدم وقد تعالت صيحة اللغة العربية فبـــدت على كل لسان .

وأعطانا فندق الحماديين فى بجاية حيث نزلنا صورة التجدد والمحافظة فى أطار واحد ، فهو مبنى على صورة القلاع التاريخية الاسلامية وفى داخله نجد النموذج الجزائرى المغربى الاسلامى القديم . وبالرغم من التقدم العصرى فى كل مجال البناء والهندسة والخدمة ، أجد أمامى هذه (الطاقة) الجميلة المصممة على الطراز

الجزائرى القديم ، وتحت المائدة وعاء من الحوص وهناك الطاقة القديمة والحزنة الخشبية ، ولقد أمضيت ليلتى أمس استمع إلى هدير البحر واصطخاب موجاته وهو يضرب فى جدار الفندق الضخم .

ومن خلال هذا الملتقى تعرفنا على العشرات من الأعلام من شرق الارض وغربها ، نماذج متعددة من اليابان واليمن والهند وإيران ومن إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وألمانيا ، كلهم جاءوا يتحدثون عن الاسلام ويشاركون فى البحث عن حضارته وفكرة ويدلون بدلائهم حول الاصالة والمعاصرة ، ومجال الحوار مفتوح ، فما تنتهى محاضرة باحث منهم حتى يفتح باب التعليق والتعقيب ، فتضاء كل المصابيح ، وتتكشف كل الحقائق وهناك رجال فى الجزائر يقظون حذورن لا يتركون خطأ أو انحرافا دون أن ينبهوا عليه وأذكر فى مقدمتهم الشاذلى مكى وأحمد حمانى ورشيد بن عيسى ، هؤلاء ركائز من النواحى التاريخية والفقهيــة والدراسات الحديثة ، أما الوزير فانه يقظ لا تفوته كلمة ولا يتجاوز عن الحق متحدث أمامه ، بيده الضوابط التى تكفل حماية البحث من الانحراف ، ورده إلى الإصالة إذا أعوزه الامر .

ولقد تحدث المتحدثون عن حضارة بجاية وقالوا كل ما عندهم عن عــلوها وسقوطها ، ولكنهم غفلوا عن حقيقة أساسية فلم يلبث إلا أن تقدم إلى المنبر بعد أن أنتهوا . ليكشف هذه الحقيقة ويصحح الموقف ويضعه فى الاطار الصحيح .

ولقد كانت رحله الملتقى الاسلامى الثامن بعيدة الغور فى أماد التاريخ وفى أعماق الفكر وفى آفاق البحث جميعاً وكانت ثروة ضخمة للمفكر والباحث والمؤرخ والصحفى من خلال اثنى عشر يوما من العمل الدائب والنظر المتصل على نحو لم نشهده فى كثير من مؤتمرات البحث أو ندوات الدرس ، مما يجعلنا نعتقد بحق أن الملتقى قد أضاف كثيرا وصحح كثيرا وأثرى العقول والافكار .

الباب الخامس

فى مرآة الذكريات

(١) فى مراه الذكريات .

(٢) كتابات الريف .

(٣) تعلمت من قوائم الكتب .

(٤) المصادر التى الهمتنى الكتابة .

الفصل الأول

فى مرآة الذكريات

« على عتبة الخمسين » ، تحس النفس أنها فى حاجة إلى أن تقول كلمة . فقد طال بها القول فى سير الباحثين والكاتبين ، أفلا يجوز لها أن تنطلق مرة لتتحدث عن ذكرياتها، تاركة ذلك الطريق الذى طالما مضت فيه تشق أغوار التاريخ وحيوات الناس ، لتندفع إلى أعماقها باحثة عن أغوار الذات . . . كنت فى أول الشوط لا أكتب غير الوجدانيات ، كنت معنيا بنفسى ومشاعرى أسجلها ، وأعيش معها وأجترها ، أما اليوم فقد يمضى العام لا أكتب صفحة من ذكرياتى ، وتمر الأحداث فاعيشها حقا فى أعماقى وأتمزها ، ولكن لا أسجلها ، ربما كانت كتابات الذكريات واليوميات مرتبطة إلى حد كبير بوسائل البث والافضاء فاذا أتيح للكاتب أن يقول كلمته ، لم يجد من نفسه حاجة إلى كتابة المذكرات ، وربما كان لارتفاع السن أثره فى الانصراف عن بعض رغبات الشباب ، أو تسجيل ذكريات العاطفة والوجدان أم أنه شعور غامض يتجه إلى الدراسات العقلية فى اغضاء عن الكتابات الوجدانية بعد أن هبط إسمها وضعف فنها وأصبحت من فتات الموائد

لا أدرى لماذا أمسكت القلم لأكتب ثم كيف بحثت عن صحيفة أنشر بها كلمتى، كنت هناك فى الريف فى (ديروط) لست متصلا باداة من أدوات النشر ولكننى أذكر أننى كنت قارئا ، وكانت أعماقى تزخر بالصور والمعانى والعواطف فوجدت الراحة فى الافضاء للورق حيث العزلة والوحدة والحياة الضيقة وحيث لم يكن ميسوراً لى أن أفضى بما يطوف إلى نفسى لأحد من حولى . . . كان مفهوم الافضاء بسيطا ساذجا هو تصوير عاطفة أو لمحة من خاطر وحين أنظر اليوم إلى الطاقة العريضة التى يندفع من خلالها الانسان مفكراً وكاتبا وباحثا، أدهش لسذاجة ذلك الخيط الرقيق الأول حين أمسكت القلم ومدى الأمل الذى كنت أعلقه على كتابة خاطرة أو نفثة حول عاطفةما ، وكان مدى أملى أن أكتب كل يوم كلمة فى سطر ، ربما برق عينى بريق الصحيفة أو المجلة ، لأتحدث عن الحب أو العاطفة

أو الحياة ، حقا كم كان ضعيفا هذا المجال ، أحس كأنما كانت مشاعرى خانقة كأنما تنبعث من فوهة مدخنة طويلة ضيقة إلى الفضاء الرحيب . كم كنت أحس بالراحة بعد أن أكتب الكلمة ، كلمة تصور النقمة على ضيق المجال فى الريف ، أو تصور جناحى عن التحليق .. كان احساسى هو أننى سأجد الحرية الكاملة حين أقول كلمتى الساذجة فى سطور تتمثل فى يوميات أو خواطر . كان ذلك فى عام ١٩٣٢ عندما كتبت الكلمة الأولى : ساذجة بسيطة تحمل إحساس الانسان الحى الذى يريد أن يؤكد ذاته ويقول بين ألوف الأصوات العالية « أننى موجود » . وقد تحول هذا الفهم وتطور مع الزمن خلال بضعة وثلاثين عاما إلى « رسالة » مارا بمراحل طويلة ، ووقفات نما فيها العقل وتأصلت العاطفة وعمقت التجارب والخبرات فى مجال العاطفة والعمل والحياة والأدب .

أى مسافة بعيدة بين « تأكيد الذات » وبين حمل أمانة « رسالة » أى بعد شاسع بين كلمة عاطفية وبين عمل لبناء لبنة فى فكر أمة ، أى بعد واسع بين نفثة شعر وبين رسالة فكر ، مرورا بالأدب والصحافة والنقد والتراجم والتاريخ ، ونفاذا من خلال التصوف والفلسفة والدين والعقائد وجريا من بين ثنايا المطالعة والدراسة والتجربة والرحلة وقراءة مئات من آثار الباحثين ولقاء العشرات من الأعـلام والمثقفين والدارسين فى مختلف المجالات فى دورة كاملة بين فكر الغرب وفكر الشرق وبين القديم والجديد وفى طريق ممتد من « التراث » إلى « الحضارة » ، فى رحلة فكر بين الفراعنة والاغريق والرومان والعرب والغرب خلال خمسة آلاف عام .

وانى لاذكر عام ١٩٢٣ عندما بدأت جريدة « أسيوط » تنشر لى أولى كلماتى تحت عنوان « حطام » . أنه سن السابعة عشرة بل إنه تأثر بالمازنى فى عنوان كتابه « حصاد الهشيم وقبض الريح » تلك النزعة المهومة المضببة التى تلف الشباب فى مرحلة التطلع حيث كانت الكلمات تخرج من قرية صغيرة بعيدة عن شريط السكة الحديد ومن غرفة ساذجة بها سرير سفر ، ومائدة صغيرة عليها لمبة غاز « نمرة خمسة » والنافذة أمامها متر واحد هو الطريق ومن بعده غدير ماء يلعب عليه الأطفال وتملأ منهن النساء جرارهن ، ذلك وضعى إذ ذاك على أحسن حال بعد الحارة الضيقة والمنزل المعتم سنوات ، الكلمات تخرج من نفس حزينة ولكنها تستعلى على الجراح

وهى مليئة بالألم ، ولكنها تواجه الحياة بالابتسام والتفاؤل والتطلع إلى الغدو الايمان بالله وثقة بان الصحيح يصح والأبقى يبقى . ذلك أننى كنت فى تلك اللحظات الموحشة المليئة بالغربة وضيق ذات اليد ، اتطلع إلى فجر مشرق ، إلى حياة العاطفة والمجد ، ومن وراء الواقع الجاف تتراءى صور حلوة باسمة ولكنها كالنجوم البعيده فى أجواز السماء ومن هنا اضفت العاطفة على الكلمات روح الشوق والحزن دون يأس . .
كانت الحياة فى نظر صبى فى السابعة عشرة كأنما هى خضم عريض متلاطم الأمواج. ولكنه كان صادق الاحساس بانه واقف على الأرض الصلبة ولم يلبث أن أحس بوجوده فكتب « فى خضم الحياة » .

وحاولت أن أربط نفسى بدنيا النوابغ . . كان حافظ إبراهيم شاعر النيل ولد على ضفاف بلدى ديروط وكان علامة الارتباط بدنيا الأدب لذلك فما أن انقضى عام ١٩٣٣ حتى أحسست بأنى لا بد أن أقدم له باسم مسقط رأسه كلمة رثاء فى عدد يوليو الخاص الذى صدر عنه من مجلة أبولو (يوليو ١٩٣٣) وأننى لأذكر كيف حاولت من بعد أن ارتبط بجمال الدين الأفغانى ، فالتقيت مع آخر علم حى رآه وهو الشيخ عبد القادر المغربى ، وعشنا ليلة طويلة نتحدث عنه وكانما كان المغربى فى تلك الليلة يصل بينى وبينه وينقل إلى أماناته ، فيتصل جناحى برسالته وفكره والحق أننى أحسست أن صلة كبرى قد قامت فعلا بينى وبين جمال الدين منذ عرفته وقرأته لم يكن ينقص هذه الصلة شيئا لتبلغ غايتها فى الكمال إلا أن أسمع حديثه من رجل رآه وحادثه وتلك علامات ساذجة من علامات الارتباط بالأعلام والنوابغ . وفى أعماق الريف جاء الرجل الذى طالما ترقبت لقياه ، أستاذ الأساتذة ومربى جيل من الأعلام الرجل الذى خرجته دار العلوم ، تلك المدرسة الوسطى فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر بين الجامعة والأزهر ، فقد التقيت به كما التقيت بالشيخ محمد فخر الدين أستاذ العقاد فى أسوان ، فقد جاء الرجل مهاجراً عام ١٩٥٠ إلى بلدنا وقد قامت بينى وبينه صله روحية عميقة ولقد أحبنى الرجل وقرأ بعض آثارى وتمنى لى مكان تلميذه الأول فى دنيا الفكر والصحافة .

هكذا كانت الصورة من بعيد مغلقة بالضباب ليست شيئا إلا أن نقول «الكلمة» أى كلمة ، كانت الكلمة مهومة غامضة تضطرب فى قضايا الساعة بين الدين والحضارة وبين الروحية والمادية وبين الاسلام والعروبة والمصرية كان لا بد أن تجد السبيل الحق

عن طريق هذا الأستاذ الذى جاء زائراً ، ليهز هذه النفس الغامضة التى تعيش فى الضباب تريد ولا تعرف ما تريد .. نعم ، لم تكن الكتابات التى تنشرها الصحف أو أبحاث الكتب ولا تلك الأحزاب السياسية الصاخبة المتصارعة بمعطية النفس الرائدة شيئا .

ولقد أمضيت سنوات أكتب كلمة عاطفية . قصة ، مقالا سياسيا ، نصف عامود بعضها نقد أدبى أو ترجمة لعلم أو نابغة .. كل ذلك فعلته منذ عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٤١ بين صحف الأنذار والأفكار والوادى والقاهرة والأمانى القومية وأسيوط . تلك كانت مرحلة إثنى عشر عاما كاملة فى مناقشات ومساجلات ولم تلبث أن ظهرت مدرسة ديروط الأدبية تضم المريدى والصناديقى ومحمد زكى والجندى على صفحات القاهرة عام ١٩٤٠ وهى غير مدرسة جريدة الأفكار التى تزعمها أخى «حمدان» وشارك فيها وديع ميخائيل ، وزينب عبدالرحمن وكنت أحد كتابها وكأنما كنت متصلا بالمدرستين على بعد ما بينهما من فروق ، واختلاف فى طرق البحث وأساليب الدراسة ، ومضمون الرأى .

أما مدرسة ديروط فقد كانت تقسم بطابع الريف ، كتابها يعيشون تلك الحياة المتطلعة إلى المجد فى ظل الأدب يدينون بالحب للرافعى أساسا فهو أستاذهم أو أستاذ المريدى وزكى ، ولزكى مبارك عندهم مكانة وأثر أما مدرسة الأفكار فقد كانت تدين بالحب للعقاد أولا ثم الرافعى وزكى مبارك فقد كان « حمدان » من أبرز تلاميذ صاحب العبقريات .

وللمدرسة طابع إيمان عميق بالفكر العربى الاسلامى والتراث ومقومات أمتنا وأمجادها تبرز فى كتابات المريدى والجندى من بعد . والرصانة فى العرض هى سمت أسلوب زكى تلميذ الرافعى الأصيل أما الصناديقى فقد كان صاحب أضخم مكتبة فى ديروط . وكانت هواية الأدب عنده مصدر الخلاف بينه وبين والده الثرى الذى يريد أن يصطفيه للتجارة لا للأدب . وكان يمضى يومه فى الأغلب مكبا على كتاب ولعل أبسط ما يصور هذه المرحلة فى حياة الكاتب أنها مرحلة الاندفاعة العاطفية المبهمة المهومة وراء مشاعر الذات والوجدان وخلف نزق الجدل والهجاء فى أقسى صوره حيث كانت معارك السياسة الحزبية وأهاجيها تفتن النفس وتدفع الطلائع إلى التقليد . فتندفع فى خصومات تستمد

وقودها من عبارات العقاد ومبارك وطه حسين ولقد وقعت فى سقطات من هذه المعارك مع زكى وحمدان . . أنظر إليها اليوم فى ضيق شديد ، وإن كانت النفوس التى بلغتها الاساءة قد غفرت هفواتها إلا أنها لا تزال تمثل اندفاعة القلم فى سبيل الاستعلاء أو الغلبة بأسوأ وسائل النصر وقد تحولت النفس بعيداً بعيداً عن هذه الأساليب التى ربما كان دافعها ذلك الاحساس الشقى بالبقاء فى الريف وانسداد الأبواب أمام الامال والتطلعات وامتلاء النفس بأزمة الضيق والحرمان ، كل هذا كان يتفجر كلاما يريد أن يؤكد البقاء فيدفع القلم إلى غير طبيعته الأصيلة .

فاذا مرت هذه المرحلة تكشفت النفس عن طبيعتها الناصعة التى تتمثل فى العزوف عن الكلمة النابية اللاغية إلى الكلمة المشرقة القادرة على أن تقول كل شىء دون أن تنزلق ، نعم ، كان اللقاء مع ذلك الرائد الذى علم الأعلام ، أستاذ دار العلوم ، الذى جاء مهاجراً إلى قريتنا ، قد ذوب تلك الفقاعات التى طفت على السطح ومن ثم يذهب الزبد وتتبدى الطبيعة الأصيلة نقية مشرقة كالفضة تتلألأ بضياء جديد من نور الحقيقة وهدى الجمال والخير وتبدأ صفحة جديدة . . فقد خرجت الفراشة من الشرنقة بعد أن استقرت هناك حتى مطالع الثلاثين ثم تفتحت لها الآفاق إلى قلب الكنانة إلى القاهرة ، بعد حياة الريف التى امتدت منذ ثارت فى النفس رغبة الكتابة والتطلع ومنذ هرب ابن العشرين تحت جنح الظلام فى مجازفة الطموح المتطلع إلى الغامض المثير ، موفورة الثقة فى الهجرة إذا ضاقت الأرض .

غير أن إرادة الحياة ردت المندفع حتى يستكمل أدواته وأعادت الغصن حتى ينضج وحمته ظلال الريف الحانية فترة أخرى حتى يقوى عوده ، فلا ينقصف أمام العواصف ، يقرأ ويتأمل ويعب من جمال الطبيعة وخبرة الحياة وثقافة الأجيال . ويدرس الشمائل والأخلاق فى حياة مليئة بالصراع وفى لقاء لعشرات الناس .

وحين بلغ صاحبنا القاهرة كان يظن أنه سيشق الطريق دون أن تقف عقبة ما فى وجهه غير حاسب حسابا لقوى كبيرة كانت تسيطر على الصحافة ومفاهيم كثيرة كانت تطوى إليها ذوى الأقلام وحيث أن القدرة على التعبير وسلامة الضمير لا تكفى وحدها لأن يقول الكاتب الصادق كلمته وأن وراء الصحف قوى أخرى من الحزبية والسياسة والنفوذ الأجنبى ما يفرض عليه أن يكون خديما لها مواليا ، وأن يكون على الأقل

فى ركب كاتب كبير أو زعيم بارز حتى يستطيع أن يظهر أو يصل .. لم يكن يعرف هذا كله ، كان يظن أن صحيفة صغيرة تصدر فى ورقتين ، تستطيع مثلا أن تعطيه الشهرة وغفل عن أن فى القاهرة إذ ذاك مائة صحيفة على الأقل لا أهمية لها وأن هناك خمس صحف هى وحدها التى ترسم الصورة وتعطى الشهرة والمال .

من هنا كانت تجربة سن العشرين مسلمة إلى تجربة سن الثلاثين — عملا مقدوراً ومحسوباً فى حساب المكانة التى ستتاح له حين يصل ويكتب فى إحدى الصحف الكبرى التى لها مكانها فى تقدير الناس وفى صحيفة يومية لها طابعها ومن حولها مجموعة ضخمة من القراء .

كان ذلك عام ١٩٤٦ وقد وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها . وقد انفتح طريق جديد لمصر والعالم العربى « الأمل فى الحرية والجلاء » وكان ذلك مقدمة لسنوات عشر من « التهويم » بين الأدب والسياسة والصحافة والسجن وبين الاندفاعة التى تطمع فى الظهور وبريق الشهرة والكتابة فى الصحف وتأليف الكتب ودخول المعارك .

ولقد كانت سنوات العمر من الثلاثين إلى الأربعين موازية لمرحلة الجزئيات والتهويم منطلقة إلى الكليات والعمل الكبير ، منتقلة من المقالة إلى الموسوعة ومن النظرة الجزئية المحدودة إلى النظرة الكلية الشاملة والحق أننى كنت متطلعاً إلى العمل فى الصحافة غير أننى ما كدت أبدأ فى العمل بها حتى أحسست أنها ليست «الشىء» الذى تطلعت إليه فى الريف ورجوته . لست أدرى هل تطور فكرى ومفهومى أم أن الواقع كان غير الصورة .

الحق أننى لو وصلت القاهرة قبل أن ألقى ذلك الشيخ أستاذ الأساتذة فى دار العلوم الذى هاجر إلى قريتنا عام ٩٤٠ لكان الأمر غير ما وجاء من بعد . فقد كنت قبل أن ألقاه أطمع فى أن أكون كاتب صالونات لامع غير أنه غذى فى أعماق «الأصالة» والعمل من أجل بناء فكرة أو خدمة رسالة . ومن هنا كانت المشاق واحتمال الطريق الصعب فقد وجدت أننى لست أطمع أن أكتب كل يوم نصف عمود ثابت ، أو أنقد هذا الكتاب أو ذاك ، أو أكتب تعليقاً سياسياً أو اجتماعياً ، ليس هذا ما كنت أريد

في الواقع ، كما استكشفت نفسي من بعد فقد كان ذلك سهلاً ويسيراً أن ألمع بالوسائط السريعة للتبريز والظهور ، إذ كان على أن أندمج في الأوساط الفنية والصالونات الاجتماعية والندوات الصاخبة وأن أسهر مع الساهرين ، حتى أستطيع الحصول على الخبطة الصحفية أو الخبر المثير أو أسقط على سر جديد من أسرار بيئات النجوم والكواكب . لقد تبينت أنني لو فعلت ذلك لجفوت طبيعتي وعققت فطرتي . . كان في أعماقي إيمان بأن أعمل شيئاً يحقق خطوة في سبيل اليقظة ، ومن هنا بدأت حملة على الحزبية والاحتلال والاستعمار داعياً إلى الحرية ومن خلال تطلعات الحرية إلى الكاملة نشرت كتابي « أخرجوا من بلادنا » عام ١٩٤٧ فأثار تأثرات لاحد لها من محاكمة واعتقال وسجن وهكذا بدا الفارق بعيداً بين الصحافة والكتابة كما كنت أتطلع إليها من نافذة الريف في صورة كلمة أنيقة وفكرة طريفة وبين ماتطور إليه مفهومي في صناعة الفكر والقلم .

وفي خلال سنوات العزلة كنت أفكر في العمل الذي أستطيع أن أقوم به من أجل تجديد الفكر وانبعاث تراثه وخلق روح اليقظة والبناء ، وحاولت أن أجد ثلاث مجالات في حاجة إلى جهد كبير هي :

تاريخ الأدب العربي المعاصر ، أمجادنا العربية والإسلامية. وبطولاتنا وأعلامنا ومن هنا حاولت أن أعمل ما استطعت خلال سنوات ١٩٥٠ وما بعدها في هـذه الحقول الثلاثة غير أني ظللت مهوما بينها حتى عام ١٩٥٦ حين وجدت طريقي الصحيح في أعداد موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر .

وهكذا كانت السنوات العشر الأولى من اتصالي بالصحافة والأدب في القاهرة ، سنوات أعداد في مجال الدراسة الفكرية ، كما كانت سنوات الريف مجال تكوين الأسلوب وبناء للعاطفة والمشاعر والوجدانيات ، كنت في الريف أنظر إلى القاهرة كحلم جميل وأتأهب له بالإعداد الثقافي العام ، وأجد في الصحافة ذلك البريق اللامع والسن بعد تجري وراء البريق غير أنني لم ألبث بعد أن بلغت القاهرة أن زهدت في بريق الصحافة وتطلعت إلى العمل الأدبي ثم قارفته في فنونه المختلفة : كتابات في الصحف أو رسائل صغيرة تجري بين الوطنية والسياسية والاسلاميات والتراجم دون أن تحدد خطاً واضحاً لعمل ، ودون تخصص في عمل بعمق مجراه ، لا يدفعني

غير الإيمان بالفكر والقلم من أجل خدمة مجردة متحررة، خدمة خالصة زاهدة فى الشهرة أو المال أو الجاه .

وكان يملأ نفسى إحساس بالحيرة وتساؤل من الأعماق . هل سابقى هكذا أكتب فى كل شىء . وفى كل مجال . « أين » العمل الكبير الذى يتجرد له الكاتب ويفنى فيه ويعيش به ولا ينتظر منه الجزاء السريع وظل هذا الحا ر قائما فى أعماق يقلق على أيامى حتى أحسست يوماً بانى بلغت حافة الشاطىء العريض قلت : لماذا لا أغطى منطقة من الدراسة الأدبية شغل عنها الأدباء والكتاب . . وأعددت قاربى الصغير وبدأت أغزو المحيط(١٩٦٧)

الفصل الثانى

كتابات الريف

عندما يتطلع الكاتب وهو يوغل فى العقد الخامس إلى الأمس البعيد مثلا فى الفترة الحرجة، فترة القلق والترقب ومحاولة رسم الطريق، يحس قطعاً بمدى ماقطع من مراحل الطريق. هناك فى العشرينات وقبل أن تكتمل فى سن السابعة عشرة وقد أوقدت فى أعماق النفس مصابيح الأدب والصحافة والقلم فى الريف أعلى شاطىء الابراهيمية. حيث ولدت هذه الأحلام، القاهرة، الصحافة وأسرة القلم.

أى كتابات هـذه، أى هدف، أى رسالة يمكن أن يرسمها القلم فى هذا السن الباكر وهو خـلو من كل زاد، ماقراءاته إذ ذاك الاقصاصات الصحف، مالقاءاته إذ ذاك الا مع بعض الشيوخ، وقليل من الأطباء والمحامين والمهندسين حيث حياة الريف لاتتيح إلا تلك الأسمار الساذجة الضحلة التى لاتعطى إلا هوامش الهوامش فى تعليقات حول السياسة أوالأحداث. ومن هنا يبدو ذلك الاحساس العميق بالتطلع إلى الكتابة والجرى فى الحلقة مع الفرسان تلمع أسماؤهم وتبهر الشاب الصغير، الذى كان يحلم يوما بان يرى اسمه ممهوراً به نصف عامود فى الصفحة الأولى من جريدة كبرى. يومها لم تكن صور الكتاب تنشر بجوار اسمائهم وإلا لكان التطلع إلى هذا الحلم الذى تحقق من بعد من غير أن يكون قد مر بمرحلة التخمر والترقب.

وإذا كان ذلك الأمل فى كتابة نصف عامود قد تحقق قبل أن يترك الريف حين كتب «جولات» فى جريدة الوادى، فان ماحدث كان أكبر حقا مما تطلع إليه، فقد كان أمله أن يقول الكلمة القصيرة الموجزة، فإذا به يقول كلمة أخرى أشد عمقا من التعليق الصحفى السريع والملاحظات العابرة المشة، وإذا به لاينشر فى صحف القاهرة وحدها بل ينشر فى صحف تمتد من المغرب إلى العراق، وقد أمر أن يلتقى

القراء فى صحفهم وأوطانهم ، دون أن ينتظر منهم أن يبحثوا عنه فى صحف القاهرة ، فقد توسعت آفاق فكرته وحاول أن يحمل رسالة كبرى ، ربما لم تكن فى خاطره يوم جرب قلمه فى كلمات قصيرة موجهة نشرها فى البلاغ أو فى كوكب الشرق أو فى الوادى أو فى مجلة أبولو .

كان ذلك فى الثلاثينيات فى عام ١٩٣٢ بالذات هذا العام الحاسم فى حياة الأدب العربى المصرى الواضح الأثر والدلالة . حيث مات شوقى وحافظ والبكرى وظهرت الرسالة وأبولو ، وظهر البلاغ فى حلته الجديدة وصفحته الأدبية المشرقة التى حفلت بكتابات زكى مبارك وسلامة موسى وابراهيم المصرى ولطفى جمعه .

كان هذا العام حقاً ، من الأعوام الفاصلة فى حياة الأدب والصحافة فى مصر ، ومنه بدأت تحولات ضخمة . كان حكم صدقى يضغط على الحريات فلم يلبث طه حسين أن تحول من السياسة إلى كوكب الشرق ، ومن الأحرار إلى الوفد ، وإذا به يهب إمارة الشعر إلى العقاد ترضية لنفوذه فى الوفد وصحفه ثم لا يلبث العقاد بعد عام واحد أن يتحول عن الوفد ويعارضه وتصدر جريدة روز اليوسف اليومية . وفى هذه المرحلة الدقيقة التى عشتها مفتوح العينين وما تزال صورتها تملأ خاطرى ، بدأ هيكل فى تحوله الخطير فكتب (حياة محمد) ونسى دعوته إلى الفرعونية من قبل قليل ، وكتب طه حسين هامش السيرة ، وحلت الرسالة محل السياسة الأسبوعية التى تحولت إلى ملاحق ، فأعطت صورة جديدة وضمت كتابا جديداً وأعلنت أسماء لمعت من بعد ووسعت مجالها فلم تعد مصر وحدها بل امتدت إلى الشام والعراق ، وكانت « أبولو » حدثا من الأحداث ، مجلة الشعر ونقد الشعر ومعارك الصراع بين مدرسة ومدرسة . وفى ظل هذه الأيام ظهر ديوان وحى الأربعين للعقاد فنقده الرافعى فى البلاغ نقداً عنيفاً ذكرنا بما قرأناه من سنوات قليلة فى العصور من مقالات « على السفود » وزكى مبارك كان يشدو كل مساء جمعة بمقاله « الحديث شجون » فيربطنا إليه ، ويدفعنا لأن نكتب له ، بعد أن ملأ اليأس النفوس من كتابات إلى عبد القادر حمزة وهيكل وداود بركات وحافظ عوض . ويستجيب زكى مبارك فى فلسفة فيقول « اقتل رغبتك فى الأدب قبل أن تقتلك » وينادى إبراهيم المصرى « ارسل باسمى كل ما تود نشره فى البلاغ » .

ويطيب لى أن أكتب عن « حافظ » فهو ابن بلدى ، ولد على شفاف نيل ديروط ، وما رأيت قناطرها الحلوة ، ولا مشيت فوقها إلا ذكرته وذكرت والده المهندس الذى بناها ، وهناك كنا نقرأ المنفلوطى ، جارنا ، فنفلوط جارة ديروط ، ولنا به حب مرتبط بالقبلية ، وله موسيقى ورواء فاتن لم نسمعها قبله من جبران ولا الريحانى ولا نعيمه ، فالأم فرتر حزينة موجعة تطلع على قلوب الشباب الحائر فى سنى اليفاعة وفى قلب الريف شوقا وقلقا يضيق فيه بالريف والغروب ويحلم بالقاهرة والليل والحب .

و من كتابات العقاد فى الجهاد ، وطه حسين فى الوادى وهيكل فى السياسة وسلامة موسى فى البلاغ والصاوى فى ماقل ودل الأهرام تتكون عصارة حائرة مضطربة ، ويموت شوقى وحافظ فتكتب عشرات الأبحاث حولهما ، وتدور فى الجو الادبى ملامح وكلمات ورموز ، تطور وثقافة وحضارة ويدوز نقد غاضب جائر فيه عنف السياسة وألفاظها المريرة ومعارك جائرة يبدو فيها الخلاف الشخصى والذاتية وتبدو روح المصرية والأقليمية الضيقة والفرعونية مضطربة بدعوات الشرق ووحدة الاسلام وصيحات من الزهاوى الثائر ومن جبران الغامض المهموم ومن « مى » الحالمة ومن سحاب الرافعى الأحمر ومن هلال زيدان ومقتطف صروف فى متاهة من المتاهات العاصفة بالفكر والعقل والقلب .

وإذ بى أكتب فى صحف الأقاليم دوماً وفى صحف القاهرة الماضى خلال عشر سنوات أو تزيد (١٩٣٢ — ١٩٤٥) وانظر اليوم فى صحف الماضى فاجد حصيلة ضخمة ولكنها هشة وابحث عن الذين كانوا معنا فى تلك الأيام فلا أجد إلا القليل . وأجد أول مقال عام ١٩٣٣ (معول فى الأدب) وأول كتاب ١٩٣٩ (عرائس البكارى) وأول باب نصف عامود (جولات) فى الوادى ١٩٣٥ ولا أصل إلى العمل فى الصحافة فى القاهرة إلا عام ١٩٤٦ حيث بدأت حياة الفكر والأدب حقيقة وأحاول أن أبحث عن نفسى فى تلك السنوات من خلال الصحف فاذا أنا مصارع بين صحف الوادى والانذار والأفكار والقاهرة والزمان والصباح وأسيوط خلال تلك السنوات ماعدا ثلاث أعوام (١٩٣٧ ــ ١٩٣٩) وثلاث أعوام (١٩٤٣ — ١٩٤٥) اين اتناجى فى هذه السنوات فلا أجد شيئا ، ترانى

كنت أخذت بنصيحة الدكتور زكى مبارك حين صرفنى عن الأدب فاعتزلت أم ترانى لبست مسوح الصوفى ثمة وعشت مع الغزالى وابن تيمية والبخارى .

ولم يكن ذلك غريباً فقد بدأت حياتى الأدبية قبل الصحافة والصحف بقراءة مقدمة ابن خلدون ودائرة معارف فريد وجدى فلا عجب أن أدور دورة كبرى تبدأ بابن خلدون وتنتهى بالغزالى وتحمل فى أحضانها عصارات الصحف والكتب من فلسفات ودعوات فى مجال السياسة والاجتماع والتربية والدين والأدب والثقافة .

ولكنها كلها قراءات سريعة ، فلا بد من تعمق وبلوغ إلى القاع . لقد كان التطلع إلى القاهرة فى هذا السن الباكر يواجه باليأس فكان لابد من القراءة والتامل ، ولابد من الاستعداد للغد المتوقع ، ومن هنا كانت العودة مرة أخرى من قراءات الصحف السريعة الخاطفة إلى المجلدات . ولا بد من تعمق للفكر العربى الاسلامى ، فى نفس الوقت الذى نقرأ فيه شكسبير وجوستاف لوبون ودانتى وجوته . والريف يفسح المجال للقراءة تحت شجرتى النبق والتوت فوق سطح منزلنا حيث تنطلق النظرة إلى الحقول الخضراء لايحدها الطرف فلا تلتقى إلا بشريط السكة الحديد يحمل الصوت الحلو ، صوت القطار القادم من القاهرة يحمل البريد والصحف والوجوه الضاحكة المشرقة .

أدهش اليوم حين أقرأ عام ١٩٤١ فى جريدة الأفكار بحثاً فى ثمان حلقات تحت عنوان « نزعات التفكير فى مصر منذ نصف قرن » لم يكن سنى يتجاوز إذ ذاك الرابعة والعشرين ، وأنا أتناول قضايا الساعة إذ ذاك على نحو ربما رأيته أشد حماساً أو سذاجة أو ضحالة ولكنه على أى حال يكشف اغوار « النفس » يوم كانت منطلقة إلى طريق خطير ، أين أنا اليوم من هذا البحث ولو حاولته لقرأت له مئات المراجع واستنفذت فى الوصول إليه شهورا ، فما أخوف الكاتب من جلال الكلمة بعد أن يجد من يستمع له أما فى ذلك الوقت الباكر فقد كانت الجرأة طابعاً واضحاً وكان الجرى وراء المفاهيم لايرده إلا إحساس غامض قائم فى أعماق النفس لما يتكشف بعد ، هذا الاحساس هو إستقلال الفكر وتكون الطابع الخاص ، وبروز الذاتية والنظرية والفكرة ، وهذه قد تكون بذرتها موجودة أساسا فى

كلمة « مذاهب الرجل الدينى المدنى » وهى عبارة ساذجة تحاول أن تصور ماتسميه اليوم : « المدرسة الوسطى : مدرسة البناء على الأساس » .

وربما لم يكن طابع الفكر واضحا ، فهذا لم يبرز إلا بعد الأربعين أما طابع العشرين فقد كان « الأدب الوجدانى » المرتبط بالحب والمرأة والفن مستمداً مايسمى من الداخل إلى الخارج فى كل مايتصل بالمشاعر والعواطف والأحاسيس المشة الساذجة التى لم تصل بعد إلى وضوح التجربة أو استكمال الخبرة فهى تحاول أمراً واحداً هو « تأكيد الشخصية » وتوسيع قاعدة الكتابة فى مجال أوسع ، لاحواجز فيه يجمع بين الصوفية الروحية والعاطفة الوجدانية بحيث يكتب القلم « ذخائر القرآن » يكتب عن المراة وحيث يكتب « نور من الله » يكتب « فلسفة الجمال » .

ثم هناك عشرات من الموضوعات : أعلام كالزهاوى وعمر بن الخيام وصيحات التحرر من قيود الريف ورسائل حب وذكريات الميلاد وخواطر سائبة ورسائل موجهه إلى وديع ميخائيل موسى ومحمد محمود حمدان وعبد العال المريدى ومحمد زكى محمود وأنور الصناديقى وزينب عبد الرحمن محمد رفقاء الصبا فى مجال الأدب .

ودراسات عن تيمور والعقاد وهيكل والمازنى والسباعى ، ثم معارك عنيفة متعسفة ، يبدو فيها تقليد لمنهج العقاد وزكى مبارك فى النقد . وأحاديث مع محمود حسين نفادى وروبرت بوليس وعيسى الترزى وحنفى غالى ومحمد محمد مالك وحبيب نعمان رزق الله هذا الكاتب الذى مازلت أذكره وأذكر أسلوبه الحلو الرائع وقد كان يكتب للناس على مائدة صغيرة أمام المحكمة « عرائض » الدعوى . وكنت أتوقع له — لو وجد مجالا — مستقبلا أدبياً رائعاً .

وما زلت أذكر كيف كانت جريدة « الانذار » الأقليمية التى كتبت فيها عام ١٩٣٣ ممتازة ورائعة على البعد عن مجال الصدارة فى القاهرة وقد كان صاحبها « صادق سلامة » من أوائل الصحفيين الذين اتصلت بهم واستفدت من خبرتهم وقد استكتب فى صحيفته أعلام من كتاب القاهرة . وأذكر أنه نشر صورنا فى عيد جريدته ١٩٣٤ وكانت معنا سنية زهير ولويس عوض ومحمد عثمان وأحمد تاج الدين وفايد العمروسى وسيد قطب وعبد السلام الشريف وأحمد الأحداوى

ومحمد محمود رضوان وأحمد جلال ورمزى تظيم وزكى التهامى وعيسى متولى وتوفيق حبيب وكان أول مقال لى بهـا هو « ميزان التجديد والحضارة فى مصر » فى ٢٩ / ١ / ١٩٣٣ .

كانت كتاباتى فى العقد الثانى مهومة عاطفية فى أول أمرها وجدانية كلها حديث عن الحب والحرمان والشوق إلى القاهرة والتطلع إلى المجد ، وإلى الصحافة ، وكان لا بد أن أنشر كتاباً أو كتابين ، لقد اضطررت أن أطبع كتاباً فى أسيوط على (ورق الأرز) المعروف ولا أدرى اليوم ماذا كان اسمه ولكنه كان فى ظل أزمة الورق أبان الحرب العالمية إصراراً وتأكيد للذات . فلما جرت فى يدى النقود سارعت فطبعت كتاباً عنوانه «الانسانية فى الميزان» كان للأستاذ حمدان رفيق صباى والمقيم فى القاهرة الفضل فى مراجعته إخراجه .

ولكن تهويماتى وعاطفياتى لم تلبث على المدى أن تحولت إلى فكر وبحث وقد شملت كل الميادين التى طرقتها من بعد وحتى عام ١٩٤٦ وهو العام الذى وصلت فيه إلى القاهرة وخلفت الريف وعملت بالصحافة على رأس الثلاثين حيث كانت جذور فكرى قد تكونت حقاً فى كتابات متنوعة : الأدب الوجدانى، التراجم ، النقد الأدبى دراسات الأدباء ، دراسات العربية والفكر العربى والتاريخ الاسلامى وقضايا القومية العربية والعالم الاسلامى .

تكونت البذرة فى كتابات الريف تهويماً حول كل موضوع ودراسة وقضية ولون ثم تحولت من بعـد الخطوط عامة ، وتكونت المفاهيم أساساً تحت كلمة « الرجل الدينى المدنى » ثم تطورت إلى مذهب واضح الأصول والحدود . إن الكاتب إذا أحس بقلمه يجرى جرى معه فى كل طريق ولكنه لا يتحدد ولا يتخصص إلا بعد رحلة طويلة ، ولكنه مع هذا التهويم والجرى المنطلق يكون محـدوداً من ناحية المفهوم ، ربما تضلله الدعوات التى تدق الطبول العالية كما ضللتنا حول القومية الضيقة والمصرية والفرعونية ولكننا لما نمض فى الطريق طويلا فقد كانت مفاهيمنا الأصلية حول الفكر العربى الاسلامى ومقومات أمتنا ، والايمان بالتراث واللغة والدين والتاريخ عاملا فعالا فى ردنا عن المضى معهم وقد تحولوا هم من بعـد ذلك أيضاً ، وأحسوا أنهم جروا فى غير ميدان أصيل ، وربما تكشفت هذه اللمحات عن صورة النفس ،

وهى تتحول عن أدب الوجدان إلى أدب العقل ٨ مارس ١٩٤٠ (جريدة القاهرة)
كلما تهيأت الأذواق للكمال ، أقبلت على أدب الجد ، وكلما أمعنت ازدادت إقبالا وعمدت إلى الألوان العميقة ، وأخذت منها بقوة وكلما تقهقرت الحضارات تقهقرت المعانى من نفوس الأفراد وفى عقولهم فجنحت إلى أدب اللهو ورغبت فيه رغبة التذوق والايثار والاعجاب ، أدب الجد يرفع النفوس إلى رغبات السمو ويهيىء الأذواق إلى الاعتراف من معانى الوجود ، تذوقا صحيحا قائما على صدق النظرة وصحة الاعتقاد وقوة اليقين » .

ولكن الكاتب لا يلبث أن يعود إلى أحزانه ومشاعره : الريف والحرمان (١٨ أبريل ١٩٤٠) :

« ترى هل من الخير لنا أن تعيش فى الريف بعد أن أساء إلينا إذ حجبنا عن حقول الأدب والفن والثقافة وحال بيننا و بين التكون الروحى والوجدانى والعقلى الكامل الذى لا يتم إلا فى الحواضر . إن هذا النقص قد أثر فى مشاعرنا وتفكيرنا ووجداننا،فتأخرنا عن النضوج من أثرما فى الريف من قيود على هذه الحياة المحدودة تشعرنا دائما بالحرمان وتلقى فى نفوسنا ظلا يائسا من الوحشة والألم .

أقضى أيامى فاتراً عابسا ، ولياليى ساهداً معذبا ، لا أشعر براحة لجنبى إلى منام أو لجفنى إلى نعاس،أحيانا تسبح روحى فى أجواء ناعمة فاذا عاودها التشاؤم تلبدت بغيوم كثيفة تحجب النور .

كان يزعجنى الربيع حين تتفتح الأزهار وتشرق وجه السماء وحينما تحلو الطبيعة وتكتسى الدنيا ثوبا زاهيا فتؤوب النفس إلى حزن غليظ لا يدع فسحة لرضى ولا بارقة لأمل .

أحاول أن استمتع بالطبيعة فى الصباح الباكر ، زقزقة العصافير ، وتمايل الأشجار فلا تزداد روحى إلا لوعة وتتوارى كأنها تستكر حقها من هذا النعيم مادام لا يتحقق لها الأمل الكبير .

أعيش بين الناس غريباً أو كالغريب ، أترابى سعداء راضون ، يقتلون الوقت

بالأحاديث ، وأنا متمرد أعيش بفم باسم وقلب حزين ، لقد كان يزعجني مطلع الربيع . لطالما كنت أنكفىء مبكراً إلى فراشي أدفن أحلامي وأشواقي » .

هذه صورة النفس ، وهي تتطلع إلى الأدب والحياة. نفس الأديب ، نفس الكاتب الذي يريد أن يحمل القلم ، هكذا كانت كتابات الريف تحمل البساطة والسذاجة ، مغلفة بالإيمان والتطلع إلى الحياة إلى عالم الفكر إلى أسرة القلم ، هذه الأسرة التي ضحك من أجلها زكي مبارك وتهته وقال : إنه لا يوجد في الدنيا شيء اسمه أسرة القلم ، كما لا يوجد شيء اسمه العنقاء .

الفصل الثالث

« تعلمت من قوائم الكتب »

من ألطف ما كان يلفت النظر فى سن السابعة عشرة لجيلنا سطر صغير فى الصحف ، يكون فى إسم مكتبة من المكتبات وقد كتب تحته « ترسل قائمة المكتبة مجاناً لمن يطلبها » إذا فليس هناك بينى و بين الحصول على كتاب ضخم فى أربعمائة صفحة من أن أرسل خطاباً بخمسة مليمات يحقق لى هـــذا الأمل . وما دام الريف لا يقدم لنا إلا تلك الخزائن التى تحوى الكتب الصفراء ولم نكن نعرف قيمتها وما فيها من جواهر وذخائر هى سر عظمة أمتنا وخلاصة فكرها . وبعد أيام قليلة يرد البريد إلى قريتنا وفيه هذا الكتاب الضخم « قائمة مكتبة ... » وقد أصبحت عادة ، ما أن تعلن مكتبة عن نفسها حتى نسارع بالارسال طالبين القائمة .

ومن حق،لقد كانت مطالعة هذه القائمة فى هذا السن فى الثلاثينات من هذا القرن متعة لا حد لها . وهى عوض مسعد عن مطالعة هـــذه الكتب أو رؤيتها فى رفوفها الزجاجية بألوانها الخلابة و أغلفتها المنوعة .

كانت هذه القوائم تبدأ دائما بالتعريف بالمكتبة وحسن معاملتهـا واستعدادها لتلبية رغبات عملائها ، محددة أسعار العملة وطريقة التحويل وخصم الجملة للمكتبات والمدارس وطلبات الجملة .وهناك نص أساسى هو أن جميع الطلبات يجب أن تكون مصحوبة بعربون لا يقل عن ثلث الثمن .

وكانت هذه القوائم مقسمة إلى أبواب تبدأ بالقرآن الكريم وطبعات المصاحف المختلفة على الورق الأبيـــض والورق الأصفر ، والمجلدة تجليداً مذهبا ، وتجليداً « عادة » والأحجام الكبيرة و الأحجام المتوسطة والصغيرة وخاصة « مصحف مذهب بخط مصطفى نظيف الشهير بقدرغلى » ثم يليها كتب التفسير والحديث النبوى والفقه على مختلف المذاهب ثم التصوف والزهد والعقـائد والمواعظ ثم يلى ذلك التاريخ

والسير والتراجم ودواوين الشعر واللغة العربية بقواميسها ومعاجمها ثم دوائر المعارف والموسوعات والقصص ، والفلك والرياضيات والهندسة والزراعة والمنطق والاجتماع والأخلاق والعلوم (كهرباء وكيمياء) ثم التربية وعلم النفس والمحاسبة والاقتصاد .

وكان يلفت نظرى بوجه خاص كتب التراجم والسير والتاريخ ثم كتب الأدب ، وأتمزز بقطع تلك السطور القليلة المكتوبة تحت اسم كل كتاب :

تصف مضمون الكتاب وما يحويه من أبواب وفنون ، وكنت أعاود قراءة هذه الكلمات بين حين وحين ، رغبة فى الحصول على أكبر قدر من المعلومات التى عجزت عن الحصول عليها بقراءة الكتاب نفسه .

ومن الحق أن قراءة هذه القوائم وتمززها وأنا لا زلت طالبا فى أول الشوط ، قد أفادتنى كثيراً من المعلومات العامة إن لم تكن عميقة فإنها على الأقل متسعة تتصل بفنون مختلفة من الثقافة العربية والفكر الاسلامى العريق ، وإذا كان لى أن أحدد اليوم وبعد حوالى أربعين عاما الانطباع الأساسى الذى انعكس من بعد على كتاباتى وإنتاجى فإننى أقول بحق أن إدمان قراءة قوائم الكتب فى مطالع الصبا قد أعطانى طابع التكامل والشمول فى مجال الثقافة والفكر ، فلم يعد تقديرى قائما على لون واحد هو « الأدب » ولكنى أصبحت أحس بأن الأدب ليس إلا قطاع من الفكر العربى الإسلامى الواسع الآفاق الذى يضم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والدين والأدب والعلم والتربية والفن والأخلاق وأن هذه القطاعات كلها لا يمكن تدرس فى الفكر الاسلامى والثقافة العربية منفصلة أو مجزأة ، ولكنها تتكامل وتتداخل ولا يأتى التخصص فيها إلا فى المراحل العليا أما القيم الأساسية فيها فانها تمثل كيانا متكاملا يدور حول الانسان والكون والمجتمع ويحاول أن يحقق له : « العدل والحرية » وتلك عظمة الفكر الاسلامى العربى فى تكامله حيث تشمل قطاعى الثقافة الانسانية : العقل والقلب ، والروح والمادة ، الدنيا والآخرة .

وإنى لأذكر كيف كانت مطالعة قوائم الكتب تجعلنى فى مقدمة الطلاب فى الصفوف المختلفة ، وكيف كانت موضوعات الانشاء تتسم بطابع يلفت النظر .

وقد هدانى ذلك أن ألقى محاضرة عام ١٩٣٢ فى المدرسة الابتدائية عن (الأدب

العربى الحديث) أعرض فيه للعقاد والمازنى والزيات وطه حسين وهيكل وشوقى وحافظ واحمد محرم وأتحدث عن مؤلفاتهم موضوعاتها وخاصة ساعات بين الكتب للعقاد، وقبض الريح للمازنى ورفائيل وآلام فرتر للزيات والأيام لطه حسين وفى أوقات الفراغ لهيكل ويومها عدت إلى درجى فى الفصل فوجدته مقلوبا مضطربا، فقد عن لبعض الأساتذة أن يبحث عن كراسة الانشــاء ليقارن بين ماذكرته فى المحاضرة وما أكتبه فى هذه الكراسة، ظنا منه أننى «سرقت» هذه المحاضرة من بعض المجلات.

وما زلت أذكر كيف أننى دعيت لمرافقة بعض الفلاحين يوم قطع الفيضان جسر بلدتنا حيث أقيم لى عريش صغير فى إحدى الحقول لنقل الحطب إلى الجسر لحمايته، وكيف أن هؤلاء الفلاحين قد ذهبوا يجنون بقايا الأقطان من الحطب ويضمونها إلى عبوتهم، ثم رأو فى آخر اليوم أن يشركونى فى حصيلة ما جمعوه فقدموا لى مبلغا من المال وقد رفضته على الفور، غير أن بعضهم كان يعرف هويتى فى قراءة قوائم الكتب فأسرع وقد عرف عنوان هذه المكتبة فاشترى حوالة بريد باسمى بالمبلغ الذى رفضته قائلا: إنك تحب الكتب ولذلك فان هديتنا إليك ستكون بعض هذه المؤلفات وما زلت أذكر كيف تلقيت بعد أيام «ربطة ضخمة تحوى مؤلفات هؤلاء الكتاب. وقد فرحت بها فرحا لا حد له وكانت هى نواه مكتبتى ولا تزال حتى اليوم.

وما زلت أبحث إلى اليوم عن ذلك الكاتب الأديب المجهول الذى كان يكتب تلك السطور القليلة تحت كل كتاب فى التعريف به، ويبدو أنه كان أحد رجال الأزهر الذين يعملون فى هذه المكتبة أو تلك، غير أن هذا الفن: فن التعريف بالكتب قد تقدم فى السنوات الأخيرة تقدما باهراً، وأصبح يقوم به رجال متخصصون، أذكر منهم اليوم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن الذى أشرف على قوائم عدد من دور الكتب الكبرى ولقد أعد نوعا فريداً من القوائم السريعة الشبيهة بالمجلات تحت إسم «بريد الكتاب» ولقد كانت تجارة الكتب فى العقود الأولى من هذا القرن عملا مربحا كل الربح للناشرين وأصحاب المكتبات بينما كان إيراده ضئيلا جداً بالنسبة للمؤلفين ولقد كان أمثال العقاد والمازنى يبيعون مؤلفاتهم للناشرين لقاء جنيهات قليلة لا تتجاوز أحيانا أصابع اليد الواحدة، ويحصلون عليها قروشا وانصاف ريالات، ويشترط الناشر أن يكون له حق طبع هذه الكتب وإعادتها مدى الحياة.

فضلا عن ذلك تنبه أصحاب المكتبات إلى طبع الكتب التي ليس لأحد حق فيها ، فطبعوا عشرات الكتب القديمة في وقت كانت أسعار الورق فيه زهيدة جداً وأذكر أنني سافرت من بلدتي في الريف إلى القاهرة وقد تجمع لي بعض الجنيهات في سبيل الحصول على مجموعة من الكتب ، فلما ذهبت إلى المكتبة المرموقة في مكانها المعروف في قلب القاهرة ، قال لي البائع أن هذه الكتب ليست عنده ولكنها في المخازن الموجودة قريبا من الأزهر ، فلما ذهبت إلى هناك أذ بي أجد قبوا مهيبا مظلما تحت الأرض وقد عـلا عليه نظام الشوارع الجديدة فاختفى وأصبح يضاء بالفوانيس والكهرباء ، وإذا بي أمام مدينة كاملة تحت الأرض تتكدس فيها الكتب الصفراء بأعداد ضخمة وفي غرف واسعة ، وحواصل عديدة . وذكرت كيف تنبه هؤلاء الناشرون إلى أن مثل هذه الكتب ستصبح فيما بعد ثروة ضخمة لهم ولأبنائهم وقد كان .

وهكذا كان شغفي بقوائم الكتب مقدمة لخط واضح مازلت أسير فيه إلى اليوم ، هو خط الكتب والتأليف والطبع والنشر ، ومازلت كلما وقعت في يدي قائمة من قوائم المكتبات أذكر مطالع حياتي الأدبية منذ أربعين عاما وأنا قابع في الريف أحلم برفوف الكتب وواجهات المكتبات التي لم تكن زجاجية في ذلك الوقت وكان يمر بخاطري يوما أن يكون لي كتاب معروض ، فلما قدمت القاهرة وأقمت بها قرأت عشرات من هذه الكتب . وأصبح لي رقم معروف في قاعة المطالعة بدار الكتب ومكان معروف ، وما زلت منذ بضع وعشرين سنة لا أغيب عنه إلا لماما ، وقد قرأت به مئات من الكتب ، بل لقد اضطررت وأنا أعد « الموسوعة الاسلامية العربية » الجامعة أن تكون لي قائمة تضم أسماء الكتب التي تلزمني وأرقامها وفنونها حتى لا أضيع الوقت كل يوم في البحث عن هذه الأرقام . ومن ثم عكفت على دراسة ما يزيد عن نصف مليـون بطاقة اقتضتني من الوقت أكثر من خمسة شهور ، راجعت فيها بطاقات يحويها أكثر من ١٨٠ صندوقا ، وأعددت من خلال ذلك مجلدا ضخما يحوي أكثر من خمسة آلاف كتاب ، هذا بالإضافة إلى فهارس ضخمة للصحف والمجلات التي صدرت منذ ١٨٧١ حتى اليوم ، ومنها فهرس خاص لجريدة الأهرام في فترة ما بين الحربين ١٩١٩ — ١٩٣٩ يحوي مواد الأهرام في مختلف فنونه الأدبية والفكرية والاجتماعية وكتابه ، والأحداث التاريخية .

وقد علمتنى قوائم الكتب كثيرا ، علمتنى حاجة الباحث الملحة إلى متابعة كل ماصدر من مؤلفات ، لايتوقف عن هذه المتابعة ، فكل يوم يصدر كتاب جديد ولعل كتاب يصدر فى موضوع ، أو عن شخصية ما ، يغنينا عن ساعات طويلة من البحث ، قد تكفل بها هذا الباحث .

ولقد ظهرت فى السنوات الأخيرة بعض المؤلفات الجامعة التى تعين الباحث على الوصول إلى المراجع التى يحتاج إليها فى مقدمتها (قوائم المكتبات العامة) ، وقوائم الدوريات الصحفية ، وهناك « معجم المؤلفين للباحث العلامة عمر رضا كحالة ، والمصادر الأدبية للباحث المكتبى : يوسف أسعد داغر ، بالاضافة إلى « الأعلام » للزركلى .

ومن حق ، أن قوائم الكتب كانت ولاتزال نافذة ثرة على عالم الفكر العربى الاسلامى تعطينا أول ماتعطينا أنطباع التكامل والشمول الذى يتمثل به هذا الفكر جامعاً بين العلوم والفنون والآداب فى سمت واحد متصل لاينفصل .

الفصل الرابع
المصادر التى الهمتنى الكتابة

يسألنى سائل : ماهى المصادر التى الهمتنى الكتابة ، فأقول : لا مشاحة ان « الكتابة » سليقة طبيعية لا سبيل إلى خلقها واصطناعها إذا لم تكن قائمة فى تركيب الكاتب نفسه ، وهى أيضا مما لا سبيل إلى تجاهلها أو الاغضاء عنها إذا ما برزت وأرادت أن تؤكد وجودها . غير أن هذه السليقة الطبيعية تظل ساذجة غضة إذا لم تجود وتنمى وتجد المجال لظهورها وتجد المادة الوفيرة التى تعطيها الخصب والحيوية .

ولقد يحس الكاتب الموهوب بطاقة ضخمة من التطلع إلى القراءة والثقافة وإختزان الرؤى والأحاسيس ونفس راغبة إلى معرفة الكون والحياة ، والنظر فيما وراء الظواهر ، ومعرفة الناس والجلوس إلى أصحاب الندوات ، واكتناه أسرار المجتمعات ، فى علاقات الرجل والمرأة ، والتطلع إلى الصحف ومتابعة الأحداث العالمية والوطنيه ، ولقد كنت فى مطالع حياتى شابا طامعة ولكن فى حياء بالغ وحضور وعى شديد ، استمع اكثر مما أتكلم ، وأقرأ أكثر مما أكتب ، يشدنى تطلع غامض إلى مجالات الفكر والأدب والصحافة دون أن استكمل الاداة .

ولقد دنوت من آفاق الثقافة على مهل وفى بطء شديد ، ولم تتسع دائرتى إلا على مراحل طويلة ، وطال بقائى فى الريف وكنت ضائقا به ولكنه كان بمثابه التمهيد والاعداد لتكوين أداة الكتابة وأداة الفكر والبحث على السواء .

وكانت طاقتى إلى الكتابة هى الأدب ، وكان أول ما كتبت خواطر النفس ومشاعر المراهقة ، وظلت دائرتى قاصرة على تراجم الأدباء وحيواتهم فى كل ما يتصل بالعواطف والمشاعر ، ثم اتسع الأفق ثمة من خلال مشاعر نفسية أقرب إلى التصوف والزهادة والاتصال بافاق الروحانيات ثم كانت الوطنية والسياسة هى الشغل الشاغل لقراء الصحف والمجلات . غير انى لم أكد أبلغ العشرين من العمر حتى انفتح أمامى أفق التاريخ الاسلامى ثم الاسلام نفسه من خلال مطالعات

متنوعه لا تقف عند شيء ، ولكنها تحوم تحويم الطائر القلق الذي يندفع من خلال إحساس داخلي عميق غامض لم يتبينه بعد .

ولم تلبث عواطفي أن شدت الى الورد النمير «القرآن» والعهد به قديم منذ أول ما طالعت العين وقرأ اللسان وحفظ القلب من آيات بينات ، ثم شغلتنا الدراسة المدنية القاصرة ، حتى دارت النفس دورتها عائدة مرة أخرى إلى ذلك المصدر الأصيل .

كنا نظن القرآن كتاب دين أو كتاب قصص ، حتى عرفنا أنه كتاب الانسانية كلها . دينها ودنياها ، أدبها وعلومها ، قصصها وواقعها ، وأنه هو المصدر الأول للفكر الاسلامي نفسه ، وأنه هو الذي هدى المسلمين إلى أصول العلوم ومن بينها العلم التجريبي الذي إبتدعه المسلمون وكان هو قاعدة بناء الحضارة والتكنولوجيا الحديثة .

ولكن ذلك لم يكن من اليسير أن نعرفه من أنفسنا وكان لا بد أن يرودنا اليه ذلك الإمام الجليل الذي مر كالشهاب الساطع في حياتها ، ذلك الشيخ الذي عرفناه يوما ثم مضى ،

كان القرآن في الحق على رأس المصادر التي الهمتني الكتابة الحقة ، بعد تهويمة طويلة ، على أطرافه وحواشيه من كل ما كتبه الكتاب من علوم وآداب .

ثم كان « الفكر الاسلامي » هو المصدر الثاني . ذلك الذي أنشأه القرآن من خلال علماء المسلمين ومفكريهم في مختلف مجالات الفقه والتشريع والأخلاق والتربية والتفسير والإقتصاد والاجتماع والسياسة ، حيث قدم لنا أولئك الأبرار تراثا ضخما ثرا ، حافلا بالضياء والنور ، فيه عصارة الفكر وذوب القلب ، من كل ماتحتاج اليه الانسانية في حل معضلاتها وترشيد مجتمعاتها والتسامي بأفرادها وجماعاتها إلى بناء المجتمع الانساني الفريد .

وكان التاريخ الاسلامي هو المصدر الثالث . بما يرسم من طريق طويل لذلك النهر العتيد نهر الاسلام وهو يخرج من الجزيرة العربية يمتد شرقا وغربا فيصل إ

إلى حدود الصين، ثم يصل إلى نهر الفولار ، ثم يمتد إلى أسوار فينا ، ثم ينتشر بقوته الذاتية فيصل إلى الفلبين وأندونيسيا فى أقصى الشرق ، وإلى السنغال ونيجريا فى أقصى الجنوب ، ماضيا بفتح الآفاق باسم الله وبكلمة (لا إله إلا الله)

وكانت تراجم الأعلام وبطولات النوابغ والقادة مصدر من أعظم المصادر ، فقد رسم الإسلام نموذجا جديداً من البطولة يختلف إختلافا كبيراً عن نماذج البطولات فى الشرق والغرب ، تلك البطولات التى قامت على المطامع والأهواء بينما قامت بطولات الاسلام على مفهوم واضح صريح : « الذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » .

واللغة العربية بتراثها الحافل وايماءاتها الحية مصدر ثرى من مصادر الكتابة ، فلقد كانت تلك اللغة الكريمة قد استحصدت ونضجت قبل نزول القرآن فلما اختارها الحق تبارك وتعالى لكتابة كان ذلك شرفا لها أى شرف ، بل كان علامة الخلود : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فقد عاشت اللغة العربية بفضل القرآن هذه القرون ، أمدها بروحه وبلاغته ، ووسع آفاقها ، وذهب بها إلى كل مكان استعلنت فيه كلمة الله ، فقد كان على كل مسلم فى أقصى الأرض ان يقرأ العربية ، لأنه يقرأ (القرآن وحافظت العربية على بلاغتها حتى يظل العقل الاسلامى فى مستوى القرآن ، ولما كانت اللغة هى أداة الفكر فان اللغة العربية هى أداة الفكر العربى الاسلامى وفيها طابع النفس العربية الاسلامية وروحها ومزاجها .

. . . . .

أمدتنى هذه المصادر بالرصيد الأصيل ، وبالقاعدة العريضة التى انبعثت منها أكتب ، ولكن هل وقفت مصادرى عند هذا التراث العربى الاسلامى وحده ، فى الحق أننى قرأت الكثير فى أداب اللغات وفلسفاتها سواء فى لغته الأصلية أو مترجما إلى اللغة العربية ، والممت كثيراً بعصارة الفكر الأوربى الحديث والفكر اليونانى القديم وفلسفات الهنود والفرس والصين القديمة . ولعلنا فى مطالع الصبا قد ألقى الينا ، فى الثلاثينات كثير من المترجمات عن الفرنسية والإنجليزية مما غبر به المستعمرون بلادنا من القصص والروايات ومن تراجم أرسطو وأفلاطون وفرجيل

ونابليون وداروين وفرويد ، وكان لدينا كتاب تخصصوا فى ترجمة آثار هؤلاء الكتاب وتقديمها الينا ، على أنها هى الفكر والثقافة ، وأن كتب الأزهر القديمة هى الأوراق الصفراء التى يجب أن [illegible] منها كل مثقف متمدن .

وصدق هـذه الفرية كثير من زملائنا وأخواننا ، عزفوا عن الغزالى وابن تيمية وكلفوا بترجمة تاييس للصـاوى والـكونت دى مونت كريستو ، وغادة الـكاميليا ، وظنوا بذلك أنهم قد بلغوا قمة العصرية وأنهم تساموا إلى هيكل وطه حسين والعقاد والمازنى ، فاذا قيل لهم أنتم عرب ومسلمون قيل لهم فلتقرأوا ألف ليلة وكليلة ودمنة ومقامات الحريرى وشعر أبى نواس و بشار بن برد .

وكنا نعجب لمثل هذا التوجيه ، يغرى به جيلنا فى العقد الثالث ، وكنت أسأل لماذا لا نقرأ : (مقدمة ابن خلدون) وفى سن السابعة عشرة ، حمل إلى أبى رحمه الله « المقدمة» بعد أن ألححت فى قراءتها ، ولـكن هل حقا فهمت شيئاً .

إن لم أكن قد فهمت فقد كان ذلك علامة للطريق على الخط الذى أجدنى قائما عليه اليوم وأنا أتجاوز سن الخمسين بأعوام .

كانت هذه المترجمات التى قدمها (طانيوس عبده) وغيره عندما ترجموا مئات القصص الفرنسية المكشوفة ، وأغرقوا بها السوق فكان اترابنا يشترونها بمليمات قليلة إنما تهدف إلى غرض واضح ، وكان كتاب الف ليلة وهو يطبع ويباع عند (الكتبية) باسعار رخيصة إنما يهدف إلى قصد مبيت ، فقد كان الغرض هو « توسيد » أرضية نفسية فاسدة مدمرة لهذا الشباب الذى يتطلع إلى التبريز فى مجال الـكتابة والفكر لهدمه وتحطيمه ، أو لاحتوائه داخل أطر الفكر الغربى بانيا حياته ووثنياته والحادة فكانت قصص طانيوس عبده بالاضافة إلى ألف ليلة تحاول أن تصور له المجتمع فى أقسى صور إنحلاله وفساده ، مع إعلاء شأن الادب الغربى وإبطاله بتراجم نابليون وبوضع الفكر اليونانى فوق قمة الفكر البشرى بتراجم أرسطو وأفلاطون ، وكان شعر بشار وأبو نواس إنما يهدف إلى إكمال الحلقة حول النفس العربية والعقل العربى ليفقد أصوله ويذهب فى غربة غريبة عن جذوره وقيمه .

فلقد كان الفكر الاسلامى مجهولا ومنكورا وكان الأدب العربى فى نظر أصحاب مذاهب

النقد الغربي الوافد هو هـــذه الحصيلة من شعر الأباحيين بالاضافة إلى مقامات الحريري، مع الأغضاء عن إنتاج الأعـلام الكبار الذين مروا في تاريخ الفكر الإسلامي عبر عشرات السنين، أما اليوم فقد تحقق لنا أن بشارا وأبو نواس لا يمثلون إلا أنفسهم وأن ألف ليلة لا تمثل النفس العربية في جوهرها وأن قصص طانيوس عبده إنما هي صور دخيلة من مجتمع غريب لا يمثل أمتنا ولا يعبر عن مزاجنا العربي الاسلامي، الذي صنعته أخلاق الاسلام وقيمه والذي كان يعرفه العرب في الجاهلية حيث يقول شاعرهم:

واغض طرفي ان بدت لي جارتي   حتى توارى جارتي ماواهـــا

لقد كانت هناك محاولة لازاحة القرآن والسنة النبوية وحكمة الامام علي بن أبي طالب التي تمثل أول خيط للبلاغة العربية والنثر الفني الذي سار على نهجه الأدب العربي من بعد ومازال يسير، ولكن هذه المحاولة قد فشلت وعجزت عن أن تحطم كيان هذا النتاج الاسلامي العربي الباهر وانكشفت هذه المخططات بعد أن أغرتنا زمناً وبعد أن خدعتنا طويلا وكنا ضحاياها، فترة من الزمن، ثم عدنا نلتمس الحقائق وكشف لنا الأبرار الطريق وأضاؤا لنا السبيل، لقد كشف التغريب عن خططه وأعلن عن هدفه، وجاء كثيرون يحررون فكرنا ويزيحون من طريقنا ماغفلنا عنه وتبين لنا أن الأدب لايستطيع أن ينفصل عن المجتمع ولا عن الفكر، وأنه حر كل الحرية في نطاق القيم الإخلاقية الإسلامية، وأنه يستطيع أن يعبر عن نفسه دون أن يخرج عن دائرة التكامل مع قطاعات الفكر المختلفة وأن الفكر في أساسه خادم لبناء الجماعة وأن الفرد له شخصيته وله أيضاً وجوده داخل الجماعة التي يعيش فيهـا وأن حرية كل فرد تنتهي إلى حيث لا تكون عدوانا على حرية فرد آخر.

وإذا كان العقل في أوائل الشباب قد يصادف شيئا ما فيحتضنه في أعماقه وقتاً طويلا ثم يقذف به من بعد كعلامة على اكتمال نمو المزاج النفسي، وكدليل طريق ونور كاشف فانى أستطيع أن أقول أن كلمات ثلاثة هي المثل الأعلى، والشجاعة الأدبية، والنور الجديد أياً يكون مصدره، كانت تتمثل في عقلي وقلبي من وراء

كل الصور والرؤى والظواهر لتشكل هذا الاتجاه الذى سيطر على مخططات الكتابة وأهدافها .

وإذ كان لإلهام الكتابة مصادر غير القراءة والثقافة ، فإنها تتمثل عندى فى النظرة إلى الافق البعيد وتلك علمتنيها السماء المكشوفة الممتدة أمام دويرتنا فى ديروط ، تصل بالطرف إلى آخر الأفق حتى تصطدم العين بجبال المقطم ، مارة بالسندس الأخضر ، ومن حوله العصافير تزقزق والنخيلات العاليه تميل ، وحيث تزدهر قناطر ديروط فى المساء ونحن نتنقل بين روافد النيل : الابراهيمية وبحر يوسف والديروطية حيث تشكل شجيرات الجميز خميلة رائعة ، بينا طواحين الهواء تدور لتنقل الماء من حقل إلى حقل .

لعل هذه الطبيعه الحافلة قد دفعتنى إلى التأمل الطويل ، حتى إذا غادرت الريف إلى القاهرة قصدت ضاحية الطالبيه بالهرم لاستبقى ذلك الأفق الطليق ، والسماء المكشوفة ، من حولها الزهور والطيور .

لقد كانت مطالع الكتابة متواضعه محدودة فى أفق أدب المشاعر والعاطفة ، ولكن النفس الطموح مازالت توسع آفاقها حتى هديت إلى طبيعتها الاصيلة ومرماها الطبيعى ، كانت تطمع فى أن تقول شيئاً جديداً أو تكمل عملا ناقصاً أو تصحيح خطأ مشهوراً .

وكان تعلقها بتحرير الثقافة العربيه مما اختلط بها من أخطاء الامم أكبر مطامحها حين نضج العود وأوفى على الاربعين حتى لأستطيع أن أقول مهمتى قد جعلتها فى تصحيح المفاهيم ودحض الشبهات وانى لأحسب أن هذا العمل لن ينتهى ولن يستقصى .

وأن مهمتى فيه ليست مرحلية ولكنها أساسية ، وتلك مهمة حمل لواءها الكثيرون من رجال العروبه والاسلام على مراحل التاريخ ، ذلك لأن مصدرها هو ذلك « التحريف » المقصود وغير المقصود الذى واجه الفكر الاسلامى منذ مطالع الاسلام إلى اليوم ، وتلك مهمة عسيرة تحتاج إلى جهد وصبر وجلد .

لقد واجه الفكر الاسلامي غزوات متعددة من غزوات « التحريف » رماه به خصومه ، ومن تضامنوا معهم من بعض أهله ، وكان هذا الفكر حفيا بأن يدفع عن نفسه ، ويصحح مساره ، ويرد هــذا الغشاء الذي يراه أن يطفيء نوره ، أو يحرفه عن مداره أو يضعه في دائرة الظل ، وكانت أصالة هذه الفكر هي التي تبعث من أعماقه حماته ومصححوه .

ولقد نظرت فوجدت تلك رسالة دائمة لم تتوقف ، وتلك حملة مستمرة لم تنقطع وفي عصرنا هــذا ، جدد الغزو والتغريب كل الشبهات القديمة ونثرها من جديد وأغرى بها ، فأثار شكوكا وشبهات ، وسيظل ذلك أمراً لا ينقطع : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » « و » ستظل طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم .

لقد كشفت لي المطالعه الواســعة للثقافة الغربية والشرقية من يونانية وغربية وفارسية وهندية قديمة ، أن هناك خطأ واضحا لا سبيل إلى تجاوزه بين فكر الاسلام وقيمة ومفاهيمه ، وبين هذه الثقافات جميعا فقد تتلاقى هذه الثقافات وقد تتقارب وقد ترى بين بعضها وبين البعض الآخر مشابه لاحد لها ، والجديد منها يستمد من القديم ، وتراث الهند الوثنى القديم يبدوا واضحا في التراث الفرعونى وفي التراث الغربى الحديث ، أشياء كثيرة ، وقضايا كثيرة ، ومفاهيم كثيرة ، تتلاقى ولا تختلف ، إلا من حيث الصياغة والتطور .

أما الفكر الاسلامي فيقف وحده بكل قيمه ومفاهيمه ليمثل نظرة إنسانية متحررة عن الوثنية وعن عبادة الفرد وعن عبادة القوة وعن الظلم الاجتماعى وعن التفرقة العنصرية .

نظرة شاملة متكاملة تلتقى فيها العناصر جميعا وتقوم على الأخلاق وتستهدف بناء الفرد الصميم صاحب الشخصية الممتازة القويه المؤمنة ، كجزء في بناء مجتمع الطوبيا الذي تتطلع اليه البشرية .

ومن ثم فقد كنت أرى هذه القيمة من القيم وهي تختلف بين نظرة الاسلام اليها ونظرة الفلسفات والثقافات والتراث الشرقي والغربي على السواء .

لاشك أن مصدر المعرفة واحد، والأديان واحد ، ولكن جاء الانحراف من خلال المطامع والأهواء ، ولا شك كل الدعوات تتطلع إلى الحرية والعدل وخير الانسانية ، ولكنها خلطت حقها الأصيل بباطل أهواء الأقوياء أما الاسلام فما يزال نقيا . وقد ظل كتابه « القرآن » نصا موثقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولذلك فالاسلام مرجو أن يقدم للانسانية ضياء جديدا بل أن طال بها الاضطراب والقلق باحثة عن مصادر النور ،من خلال محاولاتها وايدلوجياتها المتعددة فهل يستطيع أهل الاسلام أن يقدموه للناس ، لينهم .

لقد كانت مصادر الكتابة عندى يسيره متواضعا فى مطالع الصبا ، بدأت بالقرآن الكريم ، ثم طوفت ما بالفلسفات والمذاهب والعلوم والنظريات حتى أوفت على الغاية من المعرفة ، حين تحقق لها أن هذا الكتاب هو مصدر الضياء والهدى لكل نفس حائرة وعقل متطلع ، وأمة تنشىء الحياة وللانسانية جميعا فى غدها المرتقب .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

أنور الجندى

محتويات الكتاب

أفق البحث

صفحة

صفحة

رقم الايـداع
١٩٧٨/٢١٣٤